الاتحاد الدولي للمؤرخين .. للتنمية والثقافة
والعلوم الاجتماعية

# المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية

المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية

المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية

العدد 24
مايس/ مايو
2023

رئيس التحرير
الاستاذ الدكتور
ابراهيم سعيد البيضاني

العدد 23 شباط فبراير 2023

ISSN: 2707-8183

# محتويات العدد 24


| ت | اسم المؤلف | عنوان البحث | الصفحة |
|---|---|---|---|
| 1 | المحتويات | المحتويات | 1 |
| 2 | اللجنة العلمية والاستشارية | اللجنة العلمية والاستشارية | 2 |
| 3 | تعليمات وشروط النشر | تعليمات وشروط النشر | 3 |
| 4 | أ.د عالم مليكة جامعة الجيلالي بونعامة /خميس مليانة | القائد الرمز " الأمير خالد الجزائري ودوره النضالي في الحركة الوطنية الجزائرية"1919م – 1924م " | 9 |
| 5 | د . أبوبكر صالح السنوسي . كلية السياحة والآثار جامعة عمر المختار البيضاء ليبيا . | محمود بن سبكتكين الغزنوي ودوره في نهضة الدولة الغزنوية والفتوحات في شبه القارة الهندية (360 -421هـ / 971-1030م) | 21 |
| 6 | د. مُحَمَّد الذويب | دور المصادر الشفوية في كتابة التاريخ | 33 |
| 7 | أ. إدريس عبد النبي الجوير كلية السياحة والآثار / جامعة عمر المختار ليبيا | تنوع معاهدات الصلح في الفتوح الإسلامية | 49 |
| 8 | أ. خليفة مُحَمَّد مُحَمَّد الدويبي د. نجية مُحَمَّد خليفة القماطي . .كلية التربية . جامعة الزيتونة . ليبيا | جهود المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية في جمع وفهرسة ونشر المحفوظات | 65 |
| 9 | حامد العجيلي أستاذ مساعد بكلية الآداب والعلوم الانسانية بصفاقس. | الدور الاقتصادي للعبيد في إفريقية خلال القرن الأول والقرن الرابع الهجري. | 79 |
| 10 | خميسة العايب/ جامعة ام البواقي | الجبل في التاريخ : الكتابات الاستعمارية عن جبال الجزائر للتمثيل | 101 |
| 11 | أ.م.د. لمى فائق احمد الجامعة المستنصرية / كلية الاداب | منهج اليعقوبي في كتابه مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر | 127 |
| 12 | د. لحسن أوري جامعة سيدي مُحَمَّد بن عبد الله فاس | الدستور المغربي رمز للتعايش بين مكونات الشعب المغربي وثقافاته | 139 |

# هيئة التحرير واللجنة العلمية الاستشارية

**رئيس التحرير**
الاستاذ الدكتور ابراهيم سعيد البيضاني
**نائب رئيس التحرير**
الدكتور عثمان برهومي تاريخ تونس
**مديرة التحرير**
الدكتورة وفاء سمير نعيم اجتماع مصر

**الهيئة العلمية**

- الاستاذ الدكتور ناهدة حسين علي الاسدي تاريخ العراق
- الاستاذ الدكتورة جنان عبدالجليل هموندي تاريخ العراق
- الاستاذ الدكتور علاء الرهيمي تاريخ جامعة الكوفة
- الاستاذ الدكتور حسين جبار شكر تاريخ جامعة كربلاء
- الاستاذ الدكتور مُحَمَّد سالم الطراونة تاريخ جامعة السلطان قابوس
- الاستاذ الدكتور حاجي دوران اجتماع تركيا
- الاستاذ الدكتور علي علام تاريخ جامعة سيدي مُحَمَّد بن عبدالله المغرب
- الدكتور لحسن أوري تاريخ جامعة سيدي مُحَمَّد بن عبدالله المغرب

# المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية
## السياسات والقواعد والاجراءات

ترحب المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية والاجتماعية البحوث العلمية المكتوبة وفقا للمعايير العلمية في اي من الحقول الدراسات التاريخية او العلوم المساعدة ذات العلاقة ويشمل ذلك كل العلوم نظرا لطبيعة التاريخ كعلم يتناول النشاطات الانسانية كافة مع مراعاة عدم تعارض الاعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، والا تتخذ ايه صفة سياسية والا تتعارض مع الاعراف والاخلاق الحميدة، وان تتسم بالجدة والأصالة والموضوعية وتكتب بلغه سليمه واسلوب واضح.

**سياسات النشر**

تسعى المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية والاجتماعية الى استيعاب روافد كل الافكار والثقافات ذات البعد التاريخي ويسعدها ان تستقبل مساهمات الافاضل ضمن اقسام الدورية البحوث والدراسات عروض الكتب عروض الاطاريح الجامعية وتقارير اللقاءات العلمية.

**هيئه التحرير**

تعطي هيئة التحرير الأولوية في النشر والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية الواردة للمجلة، ووفقا لاعتبارات علمية و فنية تراها هيئه التحرير.

وتقوم هيئه التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالمجلة للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.

يحق لهيئة التحرير اجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار تنسيق النص في عمودين مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخه المقال المعياري.

**هيئه التحكيم**

يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصيه هيئه التحرير والمحكمين، اذ تجري عملية التحكيم السري للابحاث المقدمة وفقا لاستمارة خاصة بذلك.

يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث الى المدى ارتباط البحث بحقل المعرفة والقيمة العلمية لنتائجه ومدى اصاله افكار البحث وموضوعيه ودقه الادبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، فضلا عن سلامه المنهج العلمي المستخدم في

الدراسة ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث وسلامه تنظيم اسلوب العرض من حيث صياغة الافكار ولغة البحث وجوده الجداول والاشكال والصور ووضوحها.

البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون اجراء تعديلات جذريه عليها تعادل الى اصحابها لأجرائها في موعد اقصاه اسبوعين من تاريخ ارسال التعديلات المقترحة الى المؤلف اما اذا كنت التعديلات طفيفة فتقوم هيئه التحرير بإجرائها.

تبذل هيئه التحرير الجهد اللازم لإتمام عمليه التحكيم من متابعه اجراءات التعديل والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة حتى التوصل الى قرار بشأن كل بحث مقدم من قبل النشر بحيث يتم اختصار الوقت الازم لذلك الى أدني ممكن.

في حاله عدم مناسبه البحث للنشر تقوم الدورية بأخطار الباحث بذلك، اما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها واستوفت قواعد وشروط النشر بالمجلة فيمنح كل باحث افاده بقبول بحثه للنشر.

**البحوث والدراسات العلمية**

تقبل الاعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها وتقديمها للنشر في مجله الكترونيه او مطبوعة اخرى.

يجب ان يتسم البحث العلمي بالجودة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه متوافقا مع عنوانه.

التزام الكتاب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الافكار وعزوها لأصحابها وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الاصول العلمية في اعداد وكتابه البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع مع الالتزام بعلاقات الترقيم المتنوعة.

اعطاء مساحة واسعة للتحليل والاستنباط والقراءات الفكرية والتوقعات المستقبلية بالنسبة للموضوعات التي تأخذ بعدا تاريخيا سياسيا.

ارشادات المؤلفين (الاشتراطات الشكلية والمنهجية)

ينبغي الا يزيد حجم البحث على ثلاثين 30 صفحه ولا يقل عن 12 صفحة حجم A4 ،مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميا بشكل البحوث بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل ملخص مقدمه موضوع البحث خاتمه ملاحق الاشكال الجداول الهوامش المراجع .

**عنوان البحث**

يجب ان لا يتجاوز عنوان البحث عشرين 20 كلمه وان يتناسب مع مضمون البحث ويدل عليه او يتضمن الاستنساخ الرئيسي.

**نبذه عن المؤلف والمؤلفين**

يقدم مع البحث نبذه عن كل مؤلف في حدود 50 كلمه تبين اخر درجة علمية حصل عليها واسم الجامعة والكلية والقسم التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة والوظيفة الحالية والمؤسسة او الجهة او الجامعة التي يعمل لديها والمجالات الرئيسية لاهتماماته البحثية مع توضيح عنوان المراسلة العنوان البريدي وارقام التليفون الموبايل الجوال والفاكس.

**صور شخصية**

ترسل صوره واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع .

**ملخص البحث**

يجب تقديم ملخص باللغة الانكليزية للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود 100 الى 150 كلمة، اما البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود 150 الى 200 كلمة.

**الكلمات المفتاحية**

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشره كلمات يختاره الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث وفي حاله عدم ذكرها تقوم هيئه التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وادراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث اثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكه الانترنيت.

**مجال البحث**

الإشارة الى مجال تخصص البحث المرسل العام والدقيق.

**المقدمة**

تضمن المقدمة بوضوح دواعي اجراء البحث والهدف وتساؤلات وفرضيات البحث مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة.

**موضوع البحث**

يراعي ان تتم كتابة البحث بلغة سليمه واضحه مركزة، وبأسلوب علمي حيادي وينبغي ان تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحه وملائمه لتحقيق الهدف وتتوفر فيها الدقة العلمية مع مراعاه المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدا عن الحشو تكرار السرد.

الجداول والاشكال ينبغي ترقيم كل جدول شكل مع ذكر عنوان يدل على فحواه والإشارة اليه في متن البحث على ان يدرج في الملاحق ويمكن وضع الجداول في متن البحث اذا دعت الضرورة الى ذلك.

خاتمة البحث تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث على ان تكون موجزه بشكل واضح ولا تأتي مكرره لما سبق ان تناوله الباحث في اجزاء سابقه من موضوع البحث .

**الهوامش**

يجب ادراج الهوامش بطريقة الكترونية في اسفل كل صفحة في شكل ارقام متسلسله لكل صفحة، ووفقا لدليل شيكاغو.

**حجم ونوع الحروف**

تعتمد المجلة الدولية للدراسات التاريخية حرف Sakkal Majalla حجم 20 غامض للعنوان الرئيسي وحجم 18غامض للعنوان الفرعي وحجم 16 غامض للمتن وحجم 14 عادي للهوامش.

عروض الكتب

- تنشر المجلة المراجعات التقييمية للكتب العربية والأجنبية حديثه النشر.
- يجب ان يعالج الكتاب احدى القضايا او المجالات التاريخية المتعدة ويشتمل على اضافه علميه جديده.
- يعرض الكتاب ملخصا وافيا لمحتويات الكتاب مع بيان اهم اوجه التميز واوجه القصور وابراز بيانات الكاتب كامله في اول عرض اسم المؤلف المحقق المترجم الطبعة الناشر مكان النشر سنه النشر السلسلة عدد الصفحات .
- الا تزيد عدد الصفحات العرض عن 8 صفحات.

**عروض الاطاريح الجامعية**

- تنشر الدورية عروض الاطاريح الجامعية رسائل الدكتوراه والماجستير التي تم اجازتها بالفعل ويراعي في الموضوعات المعروضة ان تكون حديثه وتمثل اضافة علمية جديدة في احدى حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة. وخاصة التي تعالج موضوعات فكرية تاريخية تسهم في وضع اطار نظري لمدرسة تاريخية جديدة.
- ابراز البينات كما وردت في اول العرض اسم الباحث اسم المشرف الكلية الجامعة الدولة سنه الإجازة.
- ان يشمل العرض على مقدمة لبيان اهمية موضوع البحث مع ملخص لمشكلة موضوع البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وادواته وخاتمة لاهم ما توصل اليه الباحث من نتائج.
- ولا تزيد عدد صفحات عرض الاطروحة او الرسالة عن 8 صفحات.

**تقارير اللقاءات التعليمية**

- ترحب المجلة بنشر التقارير العلمية عن الندوات والمؤتمرات والحلقات النقاشية سينمار الحديثة الانعقاد والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية والاجتماعية والانسانية.
- يشترط ان يغطي التقرير فعاليات اللقاء نوه مؤتمر ورشه عمل سينمار مركزا على الابحاث العلمية واوراق العمل المقدمة ونتائجها واهم التوصيات التي يتوصل اليها اللقاء.
- لا تزيد عد صفحات التقرير عن 6 صفحات.

**قواعد عامة**

ترسل كافه الاعمال المطلوبة للنشر بصيغه وورد, ولا يلتفت الى اي صيغ اخرى .

المساهمون للمرة الاولى من اعضاء هيئه التدريس بالجامعات يرسلون اعمالهم مصحوبة بسيرهم العلمية وفقا أحدث نموذج مع صورة شخصية واضحة.

ترتيب الابحاث عند نشرها في المجلة وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث او قيمة البحث.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئوليه كامله عما يقدمه للنشر بالمجلة وعن توفر الأمانة العلمية به سواء لموضوعه او لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الاشارة الى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والافكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن راي أحد غيره وليس للمجلة او هيئة التحرير ايه مسئوليه في ذلك.
- ترسل المجلة لكل صاحب بحث منشور نسخة الكترونية متكاملة للعدد الصادر.
- يحق للكاتب اعاده نشر البحث بصوره ورقيه او الكترونيه بعد نشره في المجلة دون الرجوع لهيئة التحرير ويحق للمجلة اعاده نشر المقالات والبحوث بصوره ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للمجلة اعاده نشر البحث المقبول منفصلا او ضمن مجموعه من المساهمات العلمية الاخرى بلغتها الأصلية او مترجمة الى ايه لغة اخرى وذلك بصوره الكترونيه او ورقية لغايات غير ربحيه.
- لا تدفع المجلة ايه مكافئات ماليه عما تقبله للنشر فيها ويعد ما ينشر فيها اسهاما معنويا من الكتاب في اثراء المحتوى الرقمي العربي.

**الاصدارات والتوزيع**

- تصدر المجلة الدولية للدراسات التاريخية بشكل دوري فصلي، ومن الممكن ان تصدر شهريا وفقا للابحاث المقدمة والملفات العلمية.
- المجلة متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الالكتروني على شبكه الانترنيت.
- ترسل الاعداد الجديدة الى كتاب المجلة على بريدهم الالكتروني الخاص.
- يتم الاعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة والمجموعات البريدية والشبكات الاجتماعية.

**رسوم النشر: 100 دولار**

**المراسلات**

ترسل الاعمال المطلوبة للنشر الى رئيس التحرير

historical.magazine2015@gmail.com

# القائد الرمز " الأمير خالد الجزائري ودوره النضالي في الحركة الوطنية الجزائرية"1919م – 1924م "

أستاذة التعليم العالي الدكتورة عالم مليكة
جامعة الجيلالي بونعامة /خميس مليانة

**الملخص:**

تهدف الدراسة الى التعريف بتاريخ النضال السياسي في الجزائر ضد الاحتلال الفرنسي بين أعوام 1830 م – 1962 م ، وردود أفعال الجزائريين ووسائلهم المختلفة في النضال من أجل نيل الحقوق ، والتركيز على أحد التيارات النضالية البارزة والتي كان لها حسب آراء الكثير من المؤرخين تأثير بالغ على ظهور الحركة الوطنية بالجزائر، وفي أصعب الظروف التي شهدها العالم وعايشتها شعوب المعمورة وعانت ويلاتها الشعوب المستعمرة خاصة على غرار الجزائر قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها ، والتي عرفت تحولا وتغيرا في طبيعة النضال مما أثر على مردود التيارات الوطنية وروادها ، كما كان لرمزية بعض زعمائها دور في نجاح مسيرة النضال مثل شخصية "الأمير خالد " بين 1919م - 1924م ، الذي اتفق حوله الكثير من المؤرخين على أنه بمثابة الأب الروحي للفكر الاستقلالي التحرري بالجزائر وهو ما أكسبه ثقة الجزائريين من العامة أو من مناضلي الأحزاب الوطنية المختلفة.

**الكلمات المفتاحية: النضال السياسي ، الحركة الوطنية ، الامير خالد ، الاتجاه الاصلاحي المحافظ .**

## مقدمة

شهدت الجزائر طيلة عقود من الاحتلال مزيجا من المقاومة التي جمعت بين العسكرية (المسلحة) و السياسية ، وقد عرفت المقاومة من خلالها مسارا متوازيا، يظهر من خلال تلك الأنشطة السياسية التي تخللت عمليات الغزو ومواقف الجزائريين الرافضة للاحتلال والتعبير عنها بوسائل سلمية وأخرى مسلحة. ومن هذا المنطلق فإن إشكالية الدراسة تتمحور حول : شخصية القائد النضالي " الأمير خالد الجزائري" [1] ودوره النضالي في الحركة الوطنية الجزائرية بين 1919 م و 1924 م ، و التعرف على بوادر النضال السياسي بالجزائر وجذوره التاريخية قبل ذلك ، و طبيعة النضال السياسي للاتجاه المحافظ الذي تزعمه الأمير خالد، ونتائج وانعكاسات وأبعاد نضاله ودوره في الحركة الوطنية وخاصة التيار الاستقلالي ؟

وللاجابة عن الإشكالية المطروحة وجب علينا التطرق الى الجذور التاريخية للحركة الوطنية في الجزائر أو النضال السياسي في الجزائر بصفة عامة والنضال الاصلاحي للمحافظين والأمير خالد بصفة خاصة ، اذ لا يفوتني التنويه بإحدى المحطات التاريخية الهامة من تاريخ النضال في الجزائر وهي مرحلة النشاط السياسي للجزائريين ابان الغزو مباشرة مع تزامن المقاومة العسكرية مع السياسية التي تعتبر جذور النضال والحركة الوطنية رغم

[1] الامير خالد : هو خالد بن م الهاشمي بن الحاج عبد القادر ، ولد بدمشق في 20- فيفري 1875 م ، درس في المدرسة الفرنسية ثم التحق بالمدرسة الحربية سان سير، توفي في 9 جانفي 1936 للمزيد عنه ، انظرحكيم بن الشيخ ، الامير خالد.....، مرجع سابق ، صص 57 – 58.

اختلاف آراء المؤرخين والدارسين والمهتمين بتاريخ الجزائر.

## 1/ الجذور التاريخية للنضال السياسي في الجزائر:

من خلال دراسة متأنية لتاريخ الحركة الوطنية في الجزائر ندرك أنها (الحركة الوطنية الجزائرية)، لم تكن وليدة القرن العشرين وانما ظهرت منذ الغزو الفرنسي للجزائر سنة 1830م ، ذلك اذا سلمنا أن المقصود أو المفهوم اللغوي والاصطلاحي للحركة الوطنية الذي يعتبر أي نشاط سياسي يهدف أصحابه الى التحرر من الهيمنة الأجنبية أو اصلاح ما أفسده الغزاة بدافع الروابط العرقية واللغوية والثقافية ، انطلاقا من ايديولوجية ترمي الى تمكين الأمة من حقها في ممارسة السياسة هو ذاته حركة وطنية أو نضال سياسي وطني.

الا أنه وحسب كتابات المؤرخين وخاصة من أبناء المدرسة الاستعمارية سواء الأجانب منهم أو الذين تخرجوا من المدارس الفرنسية من الجزائريين و غيرهم ، ممن يحرصون أو يؤكدون على أن بوادر النضال السياسي أو الحركة الوطنية الجزائرية لم يظهر الا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي أو بدايات القرن العشرين الميلادي مع ظهور الأحزاب السياسية الوطنية بعد الحرب العالمية الأولى في 1919 م ، و ذلك مما يتناقض تناقضا تاما مع تعريف وطبيعة النضال السياسي الذي بدأ في الجزائر منذ الغزو في 1830م وليس في 1919 م .

ولعل الدافع في ذلك هو تزييف للحقائق التاريخية وتشويه لصورة المقاومة و النضال السياسي للجزائريين ، والتشكيك في وطنيتهم أو تقصيرهم تجاه قضيتهم الوطنية الأساسية و في قدراتهم ووعيهم القومي والسياسي، وفي ذلك دعوة لإعادة النظر أو اعادة الاعتبار لتلك المرحلة الهامة من تاريخ الجزائر خاصة تاريخ النضال السياسي بالجزائر منذ 1830م .

وعليه فان تجربة النضال السياسي قد بدأت مع احتجاجات الجزائريين على سياسات الاحتلال ، ومن خلال العرائض والشكاوي التي شكلت وسيلة حديثة وحضارية استعملها الجزائريون للتعبير عن رفضهم التعدي السافر على حقوقهم السياسية والثقافية وعلى رأسها الدينية ، وهو ما يمثل خرقا للقوانين الدولية وقوانين حقوق الانسان التي طالما تغنى بها الفرنسيون .

ذلك النضال أو المقاومة الفكرية أو بالأحرى السياسية الذي برزت خلال ثلاثينيات القرن 19 م مع بدايات الاحتلال ، من طرف مجموعة من الشخصيات الجزائرية البارزة آنذاك من خلال تأسيسهم للجنة المغاربة على غرار " حمدان خوجة، وأحمد بوضربة واسطنبولي ..." وغيرهم ، و تجسد نضالهم السياسي من خلال كتابة العرائض ولوائح الاحتجاج تعبيرا عن رفضهم للوجود الاستعماري و المطالبة بتمكين الجزائريين من حريتهم العقائدية والسياسية، والذي اعتبره بعض المؤرخين نوعا من التعبير والحراك السياسي[1] برزت معالمه جليا أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، للدفاع عن حقوق الجزائريين المسلوبة والذي هو بمثابة امتداد واستمرارية لمسيرة النضال الذي بدأ مع الغزو ، فماهي اذن بوادر النضال السياسي في الجزائر في هذه المدة ومن هم أهم رواده؟

[1]- عبد الرحمان الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج4 ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1975 ، ص56.

**2/ بوادر النضال السياسي في الجزائر أواخر القرن 19م وبدايات القرن 20م:**

اعتبرت أواخر القرن 19م وبدايات القرن 20م مرحلة سياسية بامتياز وذلك لتكاثف مساعي النضال لدى الجزائريين واختلاف أساليبهم في مواجهة السياسات الاستعمارية ، وفي تلك الظروف التي شهدت محاولات من قبل سلطة الاحتلال وادارته تنظيم وتعديل أساليب تسيير شؤون الجزائريين المسلمين في الميادين الإدارية خاصة، نتيجة للانتقادات والاحتجاجات التي شهدتها مناطق الجزائر رفضا لسياسة فرنسا التعسفية ، والتي لم تدخل سلطات الاحتلال على إدارة شؤون المسلمين أي تغيير أو إصلاح الى سنة 1914م ، وذلك قصد تحديد أنماط التسيير التي كانت موكلة للمكاتب العربية ، حيث بقيت الأمور على حالها، اذ كان أي رفض أو انتقاد حيالها من قبل الجزائريين يعتبر بمثابة قلب للنظام.[1]

هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد تجسدت الهيمنة الاستعمارية في وضع الجزائريين من الناحية القانونية بصفتهم ليسوا فرنسيين حقيقيين ولا مواطنين جزائريين، حيث جعل قرار مجلس الشيوخ 1865م (senatus consult) و ما يعرف ب "السيناتوس كونسيلت" [2]

من الجزائري المسلم فرنسيا ولكن دون أن يستفيد من حق المواطنة وبالتالي من الحقوق والمزايا الممنوحة للمواطنين، إضافة إلى عدم وجود تمثيل له في البرلمان، ولا تمثيل متساو له في المجالس البلدية والمجالس العامة، كما لا دخل له في الحقوق والحرية والمساواة كما هو للمواطنين الفرنسيين، بل بالعكس يخضع للقوانين وتدابير استثنائية فيما عرف بقانون الأهالي [3] .بالنسبة

وفي الوقت الذي أصبح للجزائر ميزانية خاصة مستقلة يسيرها المجلس المالي الذي أنشئ سنة 1889 م

والذي خول للحاكم العام اتخاذ القرار النهائي لتنفيذ مقترحات المجلس مما زاد من قوة المعمرين في التحكم في مصير الشعب الجزائري والهيمنة على الميزانية التي تعد الركن الأساسي في تسيير نظام الدولة. [4]

وكرد فعل على سياسات فرنسا القمعية وقوانينها الوحشية ، ظهر ما يسمى بالشكاية أو الشكوى من

---

[1] Sylvie Thenault ; une drôle de justice ; les magistrats dans la guerre d'Algérie, préface de Jean Jacques Beckers, postface Pierre – Vidal- Naquet –la découverte poche, paris2001- p 21.

[2] قانون السيناتوس كونسيلت (senatus consult) /14 /07 1865 الذي يعرف كذلك بالقانون المشيخي ، وهو الذي اعترف بالصفة الفرنسية للانديجان حسبهم وهم (الجزائريين المسلمين من الأهالي ) ، مع حرمانهم من المواطنة الكاملة مادامو خاضعين لقوانين الأحوال الشخصية الدينية ، وبالتالي اصبح التجنيس حسبهم الاجراء الوحيد لدمجهم ليصبحو فرنسيين كاملي الحقوق المدنية والسياسية ...، للمزيد انظر : duvergier .j.b ;collection complete des lois ,decrets,ordonnances ,reglements ,et avis du conseil d'etat, tome soixante – cinquieme , 1865 .

[3] قانون الأهالي : الذي عرف ب (code de l'indegenat) الذي أسسه قانون جوان 1881 في عهد وزارة جول فيري .

[4] فرحات عباس، ليل الاستعمار، تعريب أبو بكر رحال، مطبعة المحمدية، المغرب، 2002 ص 95.

الظلم والتجاوزات كأول صيغة للتعبير من قبل الأعيان وذلك بطلب المساواة في الحقوق مقابل الواجبات، تلك التي تم التعبير عنها أكثر فأكثر في بداية القرن العشرين الميلادي ، بطلب ممن يسمون ب"الفتيان أو الشبان الجزائريين" كجزء من حقوق المواطنة مقابل قبولهم للتجنيد [1] ، إلى أن تحولت تلك الشكاوى إلى لوائح تذكر بالمطالب العامة ومن بينها طلبات رفض التجنيس وكل ما يهدد الإسلام والشريعة الإسلامية.[2]

وحسب بعض المؤرخين فإن عرائض المسلمين ضد محافظي البلديات ورغم أن عددها كان ضخما إلا أن معظمها قد اندثر عكس شكاوى الأوروبيين التي تم حفظها في الأرشيف وتبلغ أعدادا كثيرة ، اذ أصبح تدخل المحافظين في كل أمور المسلمين باعتبارهم ممثلين عن الإدارة الفرنسية الحاكمة.[3]

كما تمثلت ردود الفعل الوطنية تجاه سياسات فرنسا كذلك في الهجرة كرد فعل رافضة لسياسة التجنيد بين عامي 1910 م و 1911م ، خصوصا من مدينة تلمسان نحو دول المشرق، كما حاول بعض من سموا بالتقليديين( المحافظين ) حسب بعض المؤرخين التعبير عن رفضهم لتلك القوانين بواسطة الجرائد الا انهم لم ينجحوا بصفة كاملة، وكان من بينهم "مُحَمَّد بن رحال" الذي دعا إلى فكرة الوفاء للعقيدة والثقافة الإسلامية مع تبني العلوم والتقنيات العصرية للغرب.[4]

فأصبحت الهجرة اذن سبيلا من أجل الذود عن العقيدة، وأصبحت سلاحا سياسيا في يد الجزائريين المسلمين والحجة الأخيرة التي بقيت لدى شعب حرم من الوسائل المشروعة لإسماع صوته.[5]

**3 / مظاهر النضال السياسي في الجزائر بين 1900م – 1914 م :** أما مظاهر النضال فقد تجسد في أعقاب تلك الحقبة التاريخية التي عرفت الجزائر خلالها مرحلة الإدارة المدنية، من خلال تبني ادارة الاحتلال لاستراتيجية سعت من خلالها إلى تكريس سياسة الاندماج وربط كافة شؤون الجزائر بفرنسا ، وذلك بداية من عام 1873م وفقا لشعار أحد جنرالاتها "شانزي" القائل: **"الابتكار في الجزائر والتشريع في باريس، أو التنفيذ في الجزائر والمراقبة من باريس"**، شعارا تم تطبيقه فعليا من خلال إبعاد الجزائريين الكلي عن دواليب صنع القرار في الجزائر، إضافة إلى تكريس هيمنة المستوطنين على جميع الميادين سياسيا، اقتصاديا واجتماعيا على حساب السكان المسلمين الأصليين في الجزائر.[6]

وأمام الوضع المتردي الذي عرفته الجزائر طيلة عقود من الاحتلال في ظل السياسة الاستعمارية التعسفية والقوانين الوحشية ، اخترت فكرة النضال

---

[1] قانون التجنيد الاجباري : مرسوم 3 فيفري 1912 ، يقضي بتجنيد الشبان الجزائريين بين 19 و 20 سنة ، للمزيد أنظر بوحوش ، التاريخ السياسي للجزائر ص 210 .

[2] محفوظ قداش ، جزائر الجزائريين 1830- 1954 ترجمة : محمد المعراجي ، منشورات anep 2008 ، صص230 231 .

[3] شارل روبير آجرون ، الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871 – 1929 ، الجزء 2 ، دار الرائد للكتاب صص 14- 15 .

[4] محفوظ قداش ، مرجع سابق ، ص 231 .

[5]- عبد الوهاب بن خليف ، تاريخ الحركة الوطنية من الاحتلال الى الاستقلال ، دار طليطلة ، صص 102- 103.

[6]- عمار بوحوش ، مرجع سابق ، صص 120- 121.

السياسي وتبلورت معها خاصة بعد فشل المقاومات الشعبية في تحقيق آمال الجزائريين والقضاء على الوجود الاستعماري ، اضافة الى اشتداد ضربات العدو ، فكانت تلك من العوامل التي أدت الى تبلور الفكر الوطني القومي لدى الجزائريين وظهور مجموعة من المثقفين الجزائريين ممن عرفوا بجماعة النخبة ، كما تعد الحقبة التاريخية التي عقبت نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م منعرجا حاسما في تاريخ الحركة السياسية الجزائرية أو ما أصبح يسمى بالحركة الوطنية الجزائرية، وتغير مسار النضال السياسي إلى مرحلة الإعلان عن ميلاد تكتلات وطنية حسب قناعتها وأهدافها، حيث عرفت المرحلة الممتدة بين أعوام 1900م – 1914م غليانا شعبيا كما تم وصفه من قبل بعض المؤرخين ، فعلى المستوى الداخلي فقد شهدت الجزائر ظهور النخبة المثقفة بالفرنسية، وانتعاش الثقافة الوطنية عن طريق العلماء المسلمين ، وميلاد الصحافة الوطنية وتكوين التجمعات السياسية الى جانب المقاومة الشديدة الرافضة لفكرة التجنيس والخدمة العسكرية الإجبارية للجزائريين سنة 1912م [1].

أما على المستوى الخارجي فقد عرفت الساحة الدولية على إثر انهزام فرنسا أمام بروسيا 1870 م وزعزعة مكانتها الدولية وزوال هيبتها ، إضافة إلى تأثير الجامعة الإسلامية على الحركة الإصلاحية في الجزائر وزيارة "محمد عبده" للجزائر، وصراع الدول الكبرى وتنافسها على المغرب الأقصى والحركات الوطنية وثورة تركيا الفتاة والحرب في ليبيا 1912، وهكذا فإن الحركة الوطنية الجزائرية قد أصبحت عشية الحرب العالمية الأولى قوة كبيرة وضعت فرنسا في صف المدافع ، ومحاولة كسب الثقة من قبل الجزائريين ،غير أن بدأ الحرب وإعلان حالة الطوارئ وقيود الحرب الخاصة اضطرت الحركة الوطنية إلى سلوك طريق آخر كل حسب أهدافه وبرامجه على حد تعبير الأستاذ أبو القاسم سعد الله.[2]

ومن ثم فقد عرف العقد الأول من القرن العشرين الميلادي ، نشاطات حية قادها كل من المحافظين والنخبة [3] ، وذلك من خلال بعث النشاطات الاجتماعية والثقافية بظهور صحافة وطنية لأول مرة، ونوادي وجمعيات إصلاحية والدعوة إلى التحرر عن طريق التعليم مثلما كان الأمر بالنسبة للعلماء المسلمين، ومن أمثلة هذه الجمعيات، الجمعية الراشيدية التي ظهرت في 1902م، ونادي صالح باي 1908م، والتوفيقية ونادي الشباب الجزائري 1909م، وكل هذه عبارة عن بوادر وارهاصات لظهور حركة سياسية بالجزائر كان يهدف أصحابها الدفاع عن مصالح الجزائر الثقافية والعلمية والدينية.

أما الصحافة فقد عكست نشاط المثقفين من زعماء وأعضاء النوادي والجمعيات وأبرزت أفكارهم ونظرياتهم، وأسهمت عموما في تكريس الوعي السياسي، وكان لها الفضل في بلورة الوعي النضالي السياسي، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر صحيفة "الأخبار الأسبوعية" الصادرة باللغة الفرنسية في سنة 1909 م، ثم أدخلت إليها العربية والتي استمرت بالصدور إلى غاية سنة 1934م ، أما

[1] – أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، 1900- 1945 ، المجلد 2 ، 3-4 ، دار الغرب الاسلامي ، ص 130 .

[2] – أبو القاسم سعد الله ، نفس المرجع سابق ، ص 130 .

[3] نفسه، ص 133.

الصحيفة الحكومية الثانية فهي صحيفة "المبشر" التي أسست سنة 1847م مكان باللغة العربية والفرنسية واشتغل عليها عدد من شخصيات النخبة الجزائرية في إدارة تحريرها في أواخر القرن 19م وبداية القرن 20م.[1]

الا أن هذه الصحف وبالرغم من أنها صحف فرنسية الا أن النخبة الجزائرية فيها أصبحت عنصرا هاما وفاعلا ساعد على نشر الانبعاث الثقافي والسياسي في الجزائر، وذلك بظهور جماعة المحافظين الداعين إلى الإبقاء على مقومات الأمة الجزائرية والتعليم العربي والقيم العريقة للشعب الجزائري، وكذا قوانين الأحوال الشخصية ومعارضة الأفكار الغربية والتجنيس والتجنيد الإجباري في الجيش الفرنسي.....

و هؤلاء من المثقفين التقليديين أو العلماء المسلمين ، ومن المحاربين القدماء، ومن زعماء الدين والمرابطين، ومنهم المعلمين والمؤمنين بفكرة الجامعة الإسلامية.[2]

أما فئة النخبة وهو مصطلح أطلق على جماعة من خريجي المدارس الفرنسية من المثقفين المؤيدين والمدافعين عن المشروع الفرنسي الادماجي ، رغم وجود عناصر منهم من المحافظين و الداعمين للفكر التأصيلي المحافظ ، ذلك التيار الذي غلبت عليه تسمية النخبة عند أغلب المؤرخين والدارسين من هؤلاء الاندماجيين الداعين إلى التخلي عن المقومات الوطنية الإسلامية والعربية متجاهلين الانتماء الحضاري للعروبة والإسلام والمطالبة بالتجنيس[3]، والمطالبين بالمساواة بينهم وبين الفرنسيين، والارتقاء إلى الوظائف العمومية وتنمية المدارس والدعوة إلى الاستيقاظ الثقافي للأهالي والتمثيل البرلماني، وتجمع هؤلاء الشبان في جمعيات كا(الراشيدية في مدينة الجزائر ونادي صالح باي في قسنطينة) كما سبق الاشارة اليه، والذين كان ينظر اليهم بانهم المستقبل السياسي للجزائر.

فنشر بعضهم جرائد كـ "**المصباح**" في وهران "**والهلال**" في مدينة الجزائر بين سنتي 1906م-1907م و"**المسلم**" في قسنطينة و"**الإسلام**" في عنابة سنة 1909م ، و"**العلم الجزائري**" سنة 1910م في عنابة، و"**الراشدي**" في جيجل، وألحق معه عنوان فرعي "**المصري الصغير**" في وهران سنة 1911[4]، حيث ظهر النشاط السياسي لهذه الفئة من خلال تبنيها لأسلوب النضال الثقافي عن طريق الصحافة كوسيلة من وسائل النضال للتعبير عن اتجاهات وأفكار أصحابها، في ظل احتكار الفرنسيين للصحافة آخذين أسلوب المستوطنين في الدفاع والمطالبة بالحقوق.[5]

الا أن هذا الاحتكار قد انتهى بظهور بعض الصحف الوطنية من طرف بعض الشخصيات أمثال "العربي فخار" بانشائه لجريدة المصباح باللسان (العربي والفرنسي) ، و"الصادق دندان" بجريدة

[1] – زهير احددادن ، الصحافة الاسلامية الجزائرية من بداياتها الى سنة 1930 ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب 1986 ص 38 .

[2] – سعد الله ، مرجع سابق، ص144 .

[3] – عبد القادر حلوش ، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر ، دار الامة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر 1999، ص39 .

[4] محفوظ قداش ، مرجع سابق ، صص 237- 238 .

[5] محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، من 1847-1939، ش، و، ن، ت، الجزائر 1980 ص8.

"**الإسلام**" المؤثرة سنة م 1912 (عربي وفرنسي)، "عمر راسم" بتحريره لجريدة "**الجزائر**" الشهرية التي تصدر بالعربية فقط، والتي كان هدفها توعية وتثقيف وتعريف للجزائريين بالوضع العالمي.[1] ، غير أن بعض المؤرخين رأوا أن ظهور حركة الفتيان الجزائريين بوصفها تعبيرا عن تطور وعي النخبة الجزائرية لواقع الهوة التي تفصل تاريخ الأغلبية الأهلية المسلمة من الجزائريين عن تاريخ الأقلية الأوروبية المتسلطة[2]، ورغم محدودية جمهورهم المنحصر في بعض المسلمين العصريين من حملة الشهادات الفرنسية أساسا، إلا أنهم ساعدوا بنشاطهم الاجتماعي والسياسي والتنويري على رفع المستوى الثقافي للفئات الوسطى من الجزائريين المسلمين، بل إنهم على العموم أيقظوا اهتمامهم بتاريخهم الخاص وثقافتهم[3]، وبالرغم من اختلاف الآراء والاتجاهات حول مفهوم النضال السياسي والمطالبة بالحقوق، فقد مثل المجهود ثمرة الوعي السياسي في انتظار تحقيق الهدف، اذ كان للمحافظين دور بارز في التأكيد على الحقوق المشروعة للجزائريين دون قيد أو شرط، والذي تكلل بالتفاف الجزائريين حولها في الانتخابات المحلية سنة 1919 ، وأسهمت بقدر كبير في ايصال انشغالات وآمال السواد الأعظم من الجزائريين، الداعمين للفكر الاصلاحي المحافظ الذي يعبر عن حقيقة انتماء الشعب لقوميته العربية الاسلامية كما يلي .

[1]– سعد الله ،الحركة الوطنية ، ج1 ، مرجع سابق ، صص140– 141 .

[2] نيكولاي دياكوف ، حركة الفتيان الجزائريين في مطلع القرن العشرين ، ترجمة عبد العزيز بوباكير، امدوكال للنشر2015– ص 13 .

[3] نفسه ، صص 254– 256 .

وفي هذا الصدد يجدر بنا التعريف بأسس ومبادئ النضال السياسي للتيار المحافظ وأهم رواده .

## 4/ - طبيعة النضال السياسي للمحافظين ( الأسس والمبادئ ) :

قبل استعراض مسيرة المحافظين نقدم أولا تعريفا للمصطلح ، اذ يتمثل مفهوم " المحافظية "من الناحية اللغوية في ما معناه المحافظة على الحالة أو الوضعية الراهنة ، ومن الناحية الاصطلاحية فتعني ابقاء الجزائريين على حالتهم الاسلامية المعارضة للأفكار الغربية وقوانين فرنسا وسياساتها الرامية الى ادماج أو تدجين الشعب الجزائري المسلم ورفضه لسياسة التجنيس ، اضافة الى المحافظة على القيم العربية والتعليم العربي المرتبط أساسا بالدين الاسلامي اضافة الى تأثرها بفكرة الجامعة الاسلامية[4].

اذ يرى بعض المؤرخين ومن بينهم أبو القاسم سعد الله ، أن هؤلاء المحافظين لم يكن لهم برنامجا سياسيا واضحا ولم يكونوا ينتمون الى منظمة محددة ، وانما كانوا على اتفاق بأن الجزائريين لن يكونوا فرنسيين ، ويجب مقاومة ذلك بمواجهة خطط فرنسا لإذابة الجزائريين والتصدي لها عن طريق التكاثف والتضامن، وأن طريقة النضال السياسي حسبهم تبدأ من نظرتهم لفكرة الاصلاح السياسي والاجتماعي والثقافي ، من خلال تبني فكرة التغيير داخل الاطار العربي الاسلامي للجزائر، ومن ثم طالبوا سلطة الاحتلال بعدم المساس بهوية الجزائريين عن طريق قانون التجنيس وكذا التعليم الاجباري الفرنسي للجزائريين ،

[4]– سعد الله، الحركة الوطنية ج1، مرجع سابق، ص 153.

وتنظيم المدارس العربية واسترجاع العمل بالقضاء الاسلامي ، والمساواة في الحقوق السياسية وحرية المعتقد وعدم المساس بتقاليد وعادات الجزائريين ، فكان شعارهم هو" الاصلاح مع المحافظة على الشخصية الوطنية" [1] ، حيث تأسست فئة المحافظين في عام 1900 م و أصبح مؤسسوها فيما بعد أساتذة ومشايخ من الطراز الأول و كأعضاء لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين مثل حمدان لونيسي وعبد الحليم بن سماية والحفناوي...) وغيرهم [2] ، ومن بعض رجال الدين والمحافظين المثقفين من خريجي المدارس القرآنية والمدارس الفرنسية العربية وكذا جامعات من الشرق الأدنى والبلاد العربية ،

أمثال ( عبد القادر المجاوي ، سعيد بن زكري ، مولود بن موهوب...) ..... [3] ، وتجسدت مطالبهم في المطالبة بالمساواة في التمثيل النيابي بين الجزائريين والفرنسيين ، والمساواة في الضرائب ومعارضة التجنيس والتجنيد و المطالبة بالعمل بالقضاء الاسلامي والدعوة للجامعة الاسلامية واحترام العادات والتقاليد ، كما عرفت هذه الفئة بمعارضتها الشديدة للتيار الليبرالي ، كما وصفت هذه الفئة من قبل بعض المؤرخين ب"التقليدية "أو جماعة **"التقليديين"** كما سبق الاشارة اليه أو **"أصحاب العمائم "** ، أو" **المجموعة المسلمة** " التي كانت تبدي رأيها في مشاريع التجنس أو الدفاع عن القضاء الاسلامي أو (العدالة الإسلامية) المرتبطة بالشريعة الاسلامية ، بواسطة الشكاوي والعرائض [4] .

وربما يؤيد المؤرخ الفرنسي آجرون فكرة الأستاذ أبو القاسم سعد الله بأن هذه الفئة لم يكن لها برنامجا محددا كما سبق ذكره، وحسب ( آجرون ): " **فانه لم يكن لها باع في السياسة ، ولم يكن أعضاؤها متمرسين ، ولا يحسنون استعمال الصحافة أو بيانات الدعاية الانتخابية**" على حد تعبيره ، "**فكانت تظلماتهم يعبر عنها شفهيا على الخصوص اذ كانت تتكلف عدم التسيس**" ( عدم التدخل في السياسة ) ، والتركيز على بعض جوانب الحياة الاجتماعية الأخرى ، " حيث لم **يكن لها مشاريع مستقبلية الا الانشغال بالتنديد فيما بينهم بمساوئ الاحتلال الفرنسي و مضاره وتمجيد محاسن الحاضرة الاسلامية التقليدية وفضائلها**" [(5)] .

وعليه فانه بالنسبة لصحة هذا الطرح من عدمه ، ورغم ما فيه من لبس أو محاولة لانقاص أو تقزيم لدور المحافظين وتأثيرهم على الجزائريين ، إلا ان هذه الفئة قد نجحت بدرجة أو بأخرى في إحداث الهوة بين الشعب وسلطة الاحتلال من جهة وبينها وبين الداعمين لفكرة الادماج ، ومن ثم تبلورت أفكارها وتطورت مطالبها الى الدعوة إلى التحرر والانعتاق ن قيود الاحتلال ضمن الاطار العربي الإسلامي،

حيث تجلت ملامح نضال هذه الفئة ( المحافظين ) ، من خلال بعض رموزها الوطنية التي جمعت بين مبدأي الأصالة والعصرنة في النضال حسب عديد

---

[1] – نفسه ، ص 157 .

[2] – زهير احدادن ، مرجع سابق ، ص 27 .

[3] – سعد الله ، الحركة الوطنية ج2 ، ص 135 .

[4] – شارل روبير آجرون ، دار الامة ، من انتفاضة 1871 الى اندلاع حرب التحرير 1954 ، المجلد الثاني ، ط1 2008 ، ص 369 .

[5] – نفسه، ص 376..

الآراء، والتي برزت مع الدور الذي قام به الأمير خالد باعتباره رمزا من رموز المقاومة السياسية وامتداد لمقاومة جده الأمير عبد القادر.

**5/ رمزية الامير خالد ودوره في النضال السياسي بالجزائر في بدايات القرن العشرين الميلادي:** يعتبر الامير خالد باتفاق المؤرخين أهم شخصية نضالية في فئة المحافظين وذلك من خلال رفضه لفكرة التجنيس والادماج وهو في عمق الحضارة الغربية ورغم أنه أحد خريجي المدرسة الفرنسية [1]، كما تظهر أهميته كذلك من خلال ترديده دائما لعبارة :" **أنا عربي وسأبقى كذلك ، ولن أتخلى عن مبادئي ومعتقدي ، ولذلك أنا أرفض كل من يدعوني اليه** "[2].

كما تبنى الامير خالد فكرة المقاومة التي يرى المؤرخون أنها جاءت في ظروف صعبة جدا في مرحلة فراغ سياسي وقيادي لم تعرفه الجزائر من قبل، وكذلك في مرحلة تأزمت فيها الاحوال الاقتصادية والاجتماعية للجزائريين من الجمود والحاق اقتصادي بالمستعمر نتجت عنه مجاعة رهيبة هددت الوجود الجزائري في العمق ، اضافة الى معاناة اجتماعية افتقد فيها الجزائريون أدنى شروط الحياة (المجاعات ، القوانين التعسفية والزجرية ، كقانون الاهالي والتجنيد الاجباري ...وغيرها، وأنه الى جانب ذلك استطاع أن يجمع بين الاصالة والمعاصرة ، حيث اعتمد منهج المطالبة بالمساواة كاستراتيجية في التعامل مع ادارة الاحتلال حتى يجنب الجزائريين أعباء الاجراءات الاستثنائية ومشاقها [3].

الى جانب ذلك فقد تمثل نضال الامير خالد من خلال نشاطه السياسي خاصة مع نهاية سنة 1913 م في القاء المحاضرات في ظل الظروف السياسية والاجتماعية التي كان يعيشها المسلمون في الجزائر ، و من خلال محاضراته طرح برنامج " **الجزائر الفتاة** " ودافع عنها بدبلوماسية فائقة [4] حسب رأي معاصريه.

ومن خلال احدى محاضراته التي ألقاها في نفس السنة على جمهور باريس عرض الأمير أفكاره السياسية الأولى عن المسألة الجزائرية في الوقت الذي كثر فيه الحديث عن الاصلاحات التي تمنح للمسلمين [5]، و في المدة التي عرفت فيها جبهات القتال(1914م – 1915م ) فرار العديد من المجندين وتمرد بعضهم ، طلب الامير خالد حينها من السلطات الفرنسية أن تمنح للجزائريين بعض الحقوق ومعاملتهم كمواطنين كاملي الصفة والغاء قانون الاهالي[6] مما اعتبر تحريضا للمجندين في جبهات القتال.

كما امتد نشاطه السياسي أو نضاله السياسي ان صح التعبير في محاولاته لإيصال صوت الجزائريين المضطهدين في عقر دار فرنسا وذلك بمشاركته في سنة 1917م في مؤتمر رابطة حقوق الانسان

---

[1]– حكيم بن الشيخ ، الأمير خالد ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية ما بين 1912– 1936 ، دار العلم والمعرفة ، 2013 صص 10–11 .

[2] l'ikdam,24 sep 1919

[3] حكيم بن الشيخ ، مرجع سابق ، ص 11

[4] سعد الله ، مرجع سابق ، ص186–

[5]محفوظ قداش ، مرجع سابق ، ص 245 .

[6] l'ikdam ,22 décembre 1922 , cite par l'émir l'émir Khaled.

بباريس ، من خلال مقالاته حول انشاء لجنة تحقيق لدول شمال افريقيا ومن بينها الجزائر ، تونس والمغرب حول قانون التجنيد الاجباري وتبعاته[1].

وأسهم الامير خالد في تنوير الرأي العام الجزائري باصداره لجريدة "الاقدام " سنة 1919م ، والتي تعد من أهم الصحف التي عرفها الجزائريون في تلك الفترة والتي دافعت عن مطالبهم وحقوقهم السياسية ، والدفاع عن الهوية الجزائرية ومناهضة القوانين الفرنسية ورفض الجنسية الفرنسية وهي نفس المبادئ والأسس التي تبناها طيلة مساره النضالي خلال الفترة الممتدة من 1913م- 1919م وتكثيف نشاطه وجهوده التي استمرت حتى بعد نفيه في 1923 م[2].

أما نتائج مساره النضالي فقد امتد مع ظهور بعض الأحزاب السياسية والتيارات النضالية الوطنية الداعمة للفكر الاصلاحي القومي العربي والاسلامي ، الذي تبنته كل من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ثلاثينيات القرن العشرين خصوصا سنة ( 1931 تاريخ ميلادها ) ، وكذا التيار الاستقلالي مع ظهور حزب نجم شمال افريقيا بزعامة مصالي الحاج ( 1926م ) ، وكذا تأثيره على مسار الحركة الوطنية الجزائرية عموما رغم المعارضين لبرنامجه وتوجهاته ، وهو ما دفع سلطة الاحتلال الى نفيه وابعاده .

**6 / نتائج وانعكاسات وأبعاد نضال الأمير خالد على مسار الحركة الوطنية الجزائرية:**

- استطاع الأمير من خلال برنامج حركته الاصلاحية القائمة على فكرة المساواة بين الجزائريين والفرنسيين أن يستقطب مختلف الطبقات الجزائرية ، حيث أنه وبعد سنة 1919م بقي الاتجاه الوطني المحافظ بدون زعامة بخلاف كتلة النخبة ، مما يؤكد أنها لم تكن حركة دينية بل كانت حركة سياسية وطنية، وهي إحدى الحالات التي يختلط فيها الدين والوطنية حسب أبو القاسم سعد الله ، وهذا مايفند نظرة أو مزاعم آجرون حول مشروع أو حركة الامير التي سبق الاشارة اليها .

- أرضى الأمير أغلبية جماعة النخبة لاعتماده على فكرة المساواة، وأرضى المحافظين بنغمته المعادية للاندماج، وجذب الفلاحين بتركيزه على وقف القوى العقابية ، مما انتهى إلى فوز حزبه أو حركته إن استطعنا تسميته كذلك حسب ما ورد عن أبو القاسم سعد الله في انتخابات 1919 التي تم إلغاؤها من قبل السلطات الفرنسية لعدم كفاءة أصحابها حسب زعم إدارة الاحتلال[3].

كما تميز نشاطه السياسي من خلال علاقاته الشخصية التي استغلها من أجل الدفاع عن حقوق الجزائريين، فاغتنم فرصة انعقاد مؤتمر فرساي 28 جوان( حزيران – يونيو ) 1918 ووجه لائحة إلى الرئيس الأمريكي ويلسون الذي تبنى من خلال مبادئه 14 بمنح الشعوب المستعمرة حق تقرير مصيرها، نوه من خلالها الأمير بالدور الذي لعبه الجنود الجزائريين من خلال مشاركتهم في الحرب إلى

[1] محفوظ قداش ، مرجع سابق ، ص 245 .

[2] – يمينة بوجليدة ، الحركة الوطنية (1950– 1954 ) مسار وتصور، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر ص8 .

[3] – سعد الله ، مرجع سابق ، صص 361 – 362 .

جانب فرنسا وحلفائها ودورهم في النصر، كما عرض وضع الجزائر المأساوي في ظل الاحتلال وكان هدفه من خلال ذلك على الأقل انتزاع اعتراف دولي بأحقية دراسة القضية الجزائرية بهدف تحقيق الاستقلال.[1]

ولما أحيل على التقاعد في شهر نوفمبر تقدم للمشاركة في الانتخابات كمرشح مسلم عن جماعة المحافظين وذلك من خلال الانتخابات البلدية التي جرت سنة 1919، ثم العامة سنة 1920م و1921م ، وكان الهدف من خلال ذلك النشاط في إطار النضال السياسي يعمل من خلاله على تحسين أوضاع الجزائريين المتردية وتفعيل العمل والتمثيل البرلماني للجزائر.[2]

ويرى الكثير من المؤرخين أن الأمير خالد قاد مشروعا إصلاحيا متكاملا وأول سلوك حضاري منذ مطلع القرن العشرين بالجزائر تمثل في تجربة الانتخابات والعرائض والخطب السياسية والصحافة....[3] .

كما كان له الفضل في نشأة أول تيار استقلالي بالجزائر وتمثل في ما أصبح يسمي بنجم شمال إفريقيا الذي ترجع الكثير من المصادر دوره البارز في تأسيسه وكذا تبني أفكاره ومبادئه ، بينما يرى بعض منتقديه خاصة من الغربيين ومن دعاة الفكر الغربي أن دوره كان ثانويا مقارنة بينه وبين نظرائه في جماعة النخبة ويقصد بذلك جماعة الليبيراليين أو من يسمون بالإدماجيين[4].

الا أنه ومن خلال نظرة متفحصة لمسيرة الامير خالد النضالية كمؤسس للحركة الوطنية ان صح التعبير أو بالأحرى أحد رواد النضال السياسي في الجزائر، وحسب آراء العديد من المؤرخين ممن يعتبرون جرأته السياسية وتقديمه لمطالب تعكس في حقيقتها الهدف الاساسي له من النضال وهو الاستقلال وان لم يسمه صراحة ، كما أن ترأسه الشرفي لحزب نجم شمال افريقيا هو تبني الفكر التحرري الاستقلالي ليس فقط بالنسبة للجزائريين ، وانما تعداه الى كافة أقطار شمال افريقيا ، ومن بينهم تونس والمغرب على وجه الخصوص ، ومن خلال المطالبة بإلغاء القوانين الزجرية ومحاربة التجنيس باعتباره محاولة للادماج واذابة المسلمين في الكيان الفرنسي الدخيل والذي يعد مساسا بالعقيدة والشريعة الاسلامية.

---

[1]– حكيم بن الشيخ ، مرجع سابق ، ص61 ،( مقتطفات من لائحة الامير خالد التي وجهها الى الرئيس ولسن 1919 ).

[2]– نفسه، ص61.

[3]– محمد قنانش ، نجم شمال افريقيا ، وثائق وشهادات ،دراسة في تاريخ الحركة الوطنية 1926 – 1937 ، د، ط ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1984 ، ص40 .

[4]– حكيم بن الشيخ، مرجع سابق ص61

**الخلاصة** : أصبح النضال السياسي أو المقاومة السياسية كما ترد تسميتها في بعض الكتابات او الدراسات التاريخية جزءا من حركات الكفاح التحرري الى جانب المقاومة المسلحة ( العسكرية ) و امتدادا لها ، حيث كانتا تسيران بالتوازي كرد فعل على سياسات وقوانين القمع والإجرام والترهيب المنتهجة من قبل العسكريين والساسة الاستعماريين الفرنسيين في الجزائر المحتلة .

- أضحت مطالب السياسيين خاصة المحافظين بمثابة أرضية للنضال والكفاح من أجل التحرر في الجزائر، بالنسبة للأحزاب الوطنية خاصة ذات الاتجاه الاستقلالي من حزب نجم شمال افريقيا( 1926 م) الى حزب الشعب ( 1939 م) ثم حركة الانتصار للحريات الديمقراطية ( 1946 م) وصولا الى جبهة التحرير الوطني ( 1954م ) و التي استطاعت تجسيد أفكار الأمير عبد القادر كمؤسس للدولة الجزائرية المسلوبة السيادة ، والأمير خالد المناضل من أجل استعادتها ومن ثم تحقيق آمال الجزائريين في الاستقلال واسترجاع السيادة الوطنية التي تحققت في جويلية ( تمور – يوليو ) (1962 )

.

# محمود بن سبكتكين الغزنوي ودوره في نهضة الدولة الغزنوية والفتوحات في شبه القارة الهندية (360 -421هـ / 971-1030م)

د . أبوبكر صالح السنوسي .
كلية السياحة والآثار جامعة عمر المختار البيضاء ليبيا .

**ملخص البحث**

موضوع البحث هو (السلطان محمود بن سُبُكتكين أبو القاسم الملقب بيمين الدولة وأمين الملة ، صاحب بلاد غزنة بالهند ، ولد سنة ( 360هـ-971م) وتولى حكم غزنه بعد وفاة والده سبكتكين .

ارتقت الدولة الغزنوية في فترة حكمه إلى أوج عظمتها وفي فترة زمنية قليلة ، فقد كان محباً للأدب والفنون وعاش في عهده عدد كبير من العلماء والأدباء والشعراء ، وخاض الكثير من المعارك ضد الهنود واتسعت حدود دولته حتى وصلت إلى بخارى وسمرقند والكراجات وقانوج وافغانستان وكشمير وبلاد ما وراء النهر ، واستطاع السلطان محمود بفضل حنكته السياسية وقابليته التي كان يتمتع بها وشجاعته الفائقة من إرساء أسس الحكم للإمارة الغزنوية فربط عمله السياسي والعسكري مع الفكر الجهادي فقام بحملات متعددة للهند بلغت سبع عشرة حملة على مدى سبعة وعشرين عاماً انتصر فيها جميعها وكان الهدف الرئيسي من الفتوحات في شبه القارة الهندية هو نشر الدين الاسلامي في مناطق جديدة لم يصلها الإسلام بعد .

**Summary**

The subject of the research is (Sultan Mahmud bin Subuktakin Abu al-Qasim, nicknamed the Right Hand of the State and the Secretary of the Milla, the owner of the country of Ghazni in India, he was born in the year (360 AH - 971 AD) and took over the rule of Ghazni after the death of his father Subuktakin.

The Ghaznavid state rose during his rule to the height of its greatness and in a short period of time. He was a lover of literature and the arts, and a large number of scholars, writers and poets lived during his reign. He fought many battles against the Indians and expanded the borders of his state until it reached Bukhara, Samarkand, the garages, Qanouj, Afghanistan, Kashmir and the countries beyond. The river, and Sultan Mahmud, thanks to his political acumen, his ability, and his superior courage, was able to lay the foundations of rule for the Ghaznavid emirate, linking his political and military work with jihadist thought, so he launched multiple campaigns to

India amounting to seventeen campaigns over a period of twenty-seven years, in which he won all of them, and he was the main goal of the conquests in The Indian subcontinent is the spread of the Islamic religion in new areas that Islam has not yet reached.

**المقدمة:**

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا مُحَمَّد و آله وصحبه التابعين ، ومن اهتدى بهديهم أجمعين ؛ وبعد :إن من بين أسلافنا المسلمين من هم جديرون بالبحث والدراسة لإبراز جهودهم في نشر الرسالة المحمدية ، والجهاد في سبيل الله ، فكان من بين تلك الشخصيات السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي فهو من أشهر حكام الدولة الغزنوية ، ومن أبرز من قاد جيوشها ، فقد فرض سيادتها ، وقارع السامانيين ، وتمكن من إ زالتهم وقام بحملات متعددة لفتح بلاد الهند بلغت سبع عشرة حملة، وأسر ملكهم ، وهدم صنمهم وأسلم على يديه الآلاف من مشركي شبه القارة الهندية ، واستطاع أن يكوّن إمارة كبيرة شملت أفغانستان وبلوجستان والغور وسجستان وخراسان ووصلت إلى جنوب بلاد الهند .

**مشكلة البحث :-**

ترتكز مشكلة البحث في انقسامات الدولة الإسلامية في ذلك الوقت في نهاية القرن الثالث الهجري وبداية القرن الرابع الهجري وخاصة أن الخلافة العباسية لم تعد تسيطر على كل أجزاء الدولة الإسلامية، وسيطر الفاطميون على رقعة كبيرة من أراضي الدولة الإسلامية وإرسالهم الرسائل والهدايا إلى السلطان محمود الغزنوي ولكنه بقى على موقفه ومساندة الخلافة العباسية السُنية في بغداد .

**أهمية البحث:-**

تكمن أهمية البحث في اظهار دور هذا القائد البطل والإنجازات التي حققها في اتساع رقعة الدولة الإسلامية ونشر الإسلام في مناطق جديدة لم يصل اليها من قبل كما تكمن أهمية هذا البحث في معرفة كيف قام هذا البطل هو ورفاقه بأسر ملك الهند (جيبال ) وكيف وصل هؤلاء الأبطال إلى صنمهم المقدس(سومنات) وتدميره رغم كل العروض للحيلولة دون ذلك .

**أهداف البحث :-**

يهدف البحث إلى إبراز دور هذا القائد المحنك واستراتيجيته في قيادة المعارك ضد الهنود حيث قاد أكثر من سبع عشرة معركة لم يخسر في أي معركة بل كلها انتصارات كما يهدف البحث إلى إبراز الجوانب الحضارية التي أسهم فيها السلطان محمود .

**المبحث الأول :-**

- **سيرة محمود الغزنوي .**

**المبحث الثاني :-**

- **دوره في توطيد أركان الدولة الغزنوية .**

**المبحث الثالث :-**

- **دوره في الفتوحات في القارة الهندية .**

**المبحث الاول :**

**سيرة محمود الغزنوي .**

هو أبو القاسم محمود بن سبكتكين المشهور بالغزنوي و الملقب بيمين الدولة وأمين الملة وصاحب بلاد غزنة بالهند [1] وهو ثالث سلاطين الدولة الغزنوية وهي دولة إسلامية تركية سُنية حكمت بلاد ما وراء النهر وشمال الهند وخُراسان من سنة (351هـ) إلى سنة (582هـ) وكانت عاصمتها مدينة غزنة في افغانستان . ويرجع أصل سبكتكين إلى سلالة أفاق التركية وقد وقع في أسر المسلمين الترك وأصبح أحد موالي البكتين المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية و زوج ابنته [2] ويذكر أبن الأثير أن اسحاق بن البكتين لما توفي ولم يخلف من أهله وأقاربه من يصلح للحكم اجتمع عسكره ونظروا فيمن يلي أمرهم ويجمع كلمتهم ، فاختلفوا ثم اتفقوا على سبكتكين والد محمود والذي كان حاجباً لإسحاق ، لما رأوا منه رجاحة عقل وكمال دين فقدموه عليهم وولوه أمرهم وحلفوا لُهُ وقدموا لهُ الطاعة فأحسن السيرة فيهم وساس امورهم سياسة حسنه وذلك سنة (366هـ/976م) [3] وأصبح والياً على إقليم خُراسان كله سنة (366هـ) وقام سبكتكين بمحاربة الخارجين على الدولة السامانية وتصدى عدة مرات لمحاولات الدولة البويهية للقضاء على الدولة السامانية وظل طوال حياته في جهاد مستمر ضد الخارجين وكفار الهند الذين شعروا بخطورة مثل هذا الرجل على نفوذهم بأفغانستان و شمال الهند وفي هذا الجو الجهادي ولد بطلنا محمود بن سبكتكين الغزنوي [4] .

**مولده :** ولد في مدينة غزنة بأرض افغانستان الحالية ونشأ وتربى تربية القادة الابطال واشترك منذ حداثته في محاربة أعداء الإسلام [5] .

**لقبه :-** لقب السلطان محمود بعدة ألقاب منها الأمير والسيد والملك والمؤيد ويمين الدولة وأمين الملة وبطل الإسلام وفاتح الهند ومحطم الأصنام [6]

**أوصافه :-** لقد أسهب بعض المؤرخين في وصفه وصفاً دقيقاً فقد ذكر ابن الأثير إنه كان ربعة من الرجال فيه سُمن ذو وجه طويل أصفر السحنة [7]

(1) – ابن كثير، الفداء إسماعيل، البداية والنهاية حققه احمد حامد الطاهر،( القاهرة : دار الفجر2002 )، ط1،ج12، ص31. .

(2) – حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ( بيروت : دار الجبل ، 2001 )، ط5 ،ج ، ص92.

(3) – ابن الاثير، أبو الحسن عزالدين، الكامل في التاريخ، (بيروت: دار صادر) ،ج8، ص 685،686

(4) – ابن الاثير، الكامل في التاريخ ، ج9،ص398

(5) – ابن كثير: البداية والنهاية ،ج11، ص312.

(6) – البيهقي،ابو الفضل، تاريخ البيهقي ترجمة إلى العربية يحيى الخشاب وصادق نشأت، ( القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ) ، ج1، ص317.

(7) – ابن الاثير : المصدر السابق ج9،ص401 .

) وكان صغير العينين كبير الأنف طويل العنق [1] وكان السلطان محمود، فيه سُمن، تركي العين فيه شقرة ، مستدير اللحية أشقر الشعر خفيف العارضين ، غليظ الصوت [2]

**شخصيته وثقافته :-**

تعتبر شخصية محمود بن سبكتكين من الشخصيات البارزة التي شغلت حيزاً مهماً في أحد عصور الدولة الإسلامية ونال صيتاً واسعاً وشهرة كبيرة تخطت حدود الزمان والمكان، لقد تربى وترعرع في كنف والده الذي أوكل للقاضي أبو نصر الصيني مهمة تأديبه فقام بتعليمه القراءة والكتابة وتحفيظه القرآن الكريم ،وإلى جانب هذا فإن والده عمد إلى تعليمه مبادئ الفروسية والقتال لكي ينشأ نشأة تمكنه من القيام بمهام السياسة ومعرفة فنون القتال نظرا لظروف البيئة التي كان يحياها، فقد نشأ وتربى تربية القادة الأبطال واشترك منذ حداثته في محاربة أعداء الإسلام من الهنود والبويهيين وكان لهُ أثر كبير في معركة " نيسابور" التي انتصر فيها الغزنويون بقيادة والده سبكتكين [3] .

**شهادة بعض المؤرخين فيه:-**

لقد أنصف التاريخ ومؤرخو السُنة السلطان محمود الغزنوي الذي خلد بصمات في ذاكرة التاريخ بقيادته الراشدة وحكمه العادل الذي جمع بين دولتي السيف والقلم ويظهر هذا الانصاف جليا في أراء بعض الكُتاب والمؤرخين الذين تناولوا سيرته .

فقد أفرد تاج الدين السبكي صفحات طويلة تناولت حياة السلطان يقول فيها: "أحد أئمة العدل ومن دانت لهُ البلاد والعباد وظهرت محاسن آثاره وكان إماماً عادلاً شجاعاً مفرطاً فقيهاً فهماً سمحاً جواد سعيداً مؤيداً " [4]

ويقول السبكي: أيضاً "اعتبرت فوجدت أربعة لا خامس لهم في العدل بعد عمر ابن عبدالعزيز إلا أن يكون أناس لم تطل لهم مدة ولم تظهر عنهم آثار ممتدة وهم سلطانان وملك في بلادنا وهما السلطان صلاح الدين ويوسف بن ايوب فاتح بيت المقدس وقبله الملك نور الدين محمود زنكي الشهيد [5].

كما حضي السلطان محمود بمدح ابن خلدون والثناء عليه فيقول: كان ملكاً عظيماً استولى على كثير من الممالك الإسلامية وكان يعظم العلماء ويكرمهم ، وقصدوه من أقطار البلاد ، وكان عادلاً في رعيته ، رفيقاً بهم محسناً إليهم وكان كثير الغزو والجهاد وفتوحاته مشهورة [6]

ويصفه الإمام الحافظ بن كثير عند ذكره لحوادث (سنة421هـ) فيقول : توفي الملك العادل الكبير الثاغر المرابط المؤيد المنصور ، يمين الدولة ، صاحب بلاد غزنة ومالك تلك الممالك الكبار فاتح بلاد الهند قهراً، وكاسر أصنامهم

(1) – الذهبي :سير اعلام النبلاء ج17،ص493.

(2) – الذهبي : المصدر نفسه ج17 ص ،49 .

(3) – ابو نصر محمد عبدالجبار العتيبي : تاريخ اليميني على هامش الفتح الوهبي للشيخ احمد المنيني ،( القاهرة : جمعية المعارف 1285هـ ) ، ج 1 ، ص33.

(4) – السبكي :، تاج الدين أبي نصر ، طبقات الشافعية، حققه محمود محمد الطناحي وعبدالفتاح محمد الحلو ، ( دار احياء الكتب العربية ) ،ج5ص314

(5) – السبكي : طبقات الشافعية ، ج5،، ص 327.

(6) – ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، تاريخ ابن خلدون ، ( بيت الافكار الدولية ) ، ص1146.

وندودهم وأوثانهم ، وهنودهم وسلطانهم الأعظم قهراً ، وقد مرض نحو من سنتين لم يضطجع فيهما على فراش ولا توسد وساداً بل كان يتكئ جالساً حتى مات وهو كذلك لشهامته وصرامته وقوة عزمه [1]

أما الذهبي فقد وصفه قائلاً: كان محمود صادق النية في إعلاء الدين ، مظفر كثير الغزو، وكان ذكياً بعيد الغور ، صائب الرأي ، وكان مجلسه مورد العلماء ، وقبره بغزنة يزار [2] أما أبن الأثير فقد وصفه بقوله : كان محمود يمين الدولة عاقلاً ديِّناً خيراً ، عنده علم ومعرفة ، وصنف لهُ كثير من الكتب في فنون العلوم وقصده العلماء من أقطار البلاد وكان يكرمهم ويُقبل عليهم ويعظهم ويحسن إليهم، وكان عادلاً كثير الإحسان إلى الرعية والرفق بهم ، كثير الغزوات ملازماً للجهاد ، فتوحاته مشهورة مذكورة ويقول : قد بذل نفسه لله تعالى واهتمامه بالجهاد [3] ووصفه أبن خلكان بيمين الدولة ، فاتح الهند، سيد الأُمراء و بأنه كثير المناقب ووصف سيرته بالسيرة الحسنة [4] كما وصفت أيام محمود وأحواله لحظة بلحظة وكان في الخير ومصالح الرعية يسر لهُ الإسار والجنود والهيبة والحشمة مما لم يره أحد [5] وقد أطنب العتيبي في سجايا محمود محمود الغزنوي وأشاد باتساع رقعة مملكته فقال :

"إن راية الإسلام لم تظل على سلطان أحسن ديناً ، وأصدق يقيناً ، وأحسن علماً ، وأوقع حلماً ،أسد سير ة ، وأخلص سريرة ، وأتم وفاء وأعم سخاء وأوفر حباء ، وأغنى غناء ، وأعظم قدراً ، وأفخم ذكراً ، وأمد باعاً ، وأشد امتناعا ً ، وأجل جلالة ، وأكمل عدة وآله ، وأرفع ملكاً وسلطاناً ، وأطوع أنصاراً وأعواناً ، وأردع سيفاً وسناناً، وأحمى للإسلام وذويه وأنقى للشرك ومنتحليه ، وأعدى للباطل من يليه، اكتسابا ووراثة وطباعاً واستفادة ، من الأمير السيد ، الملك المؤيد ، يمين الدولة ، وأمين الملة ، أبي القاسم محمود بن ناصر الدين بن أبي منصور سبكتكين : ملك الشرق بجنبيه ، والصدر من العالم ويديه ، لانتظام الإقليم الرابع وما يليه من ثالث الأقاليم وخامسها في حوزة ملكه ، وحصون انتظام ممالكه الفسيحة ، وولاياتها العريضة في قبضة ملكه ، ومصير أمرائها وذوي الألقاب الملوكية من عظمائها تحت حمايته وجبايته ، واسدرائهم من آفات الزمان بظل ولايته ورعايته ، وإذعان ملوك الأرض على بعدهم لعزته ، وارتياعهم من فائض هيبته ، واحترامهم على تقاذف الديار ، وتحاجز الأنجاد والأغوار ، من فاجئ ركضته ، واستخفاء الهند والروم تحت جيوبها عند ذكره ، واقشعرارهم لهب الرياح من أرضه . وقد كان آدم الله دولته منذ لفظه المهد وجفاه الرضاع ، وانحلت عن لسانه عقدة الكلام ،وأستغنى عن الإشارة بالإفهام ، مشغول اللسان بالذكر والقرآن ، مشغول النفس بالسيف والسنان ، ممدود الهمة إلى معالي الأمور ، معقود الأمنية بسياسة الجمهور لعبه مع الأتراب جد ، وجده مستكد ، يألم لما لا يعلمه حتى

(1) – ابن كثير : البداية والنهاية ، ج12، ص31

(2) – ال الذهبي ، سير اعلام النبلاء حققه بشار عواد معروف ، (، بيروت : مؤسسة الرسالة 1996 ) ط11،ج17،ص487.

(3) – ابن الاثير :الكامل ، في التاريخ ،ج9، ص400.

(4) – ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين ، :وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ت ، حققه إحسان عباس ، ( بيروت، دار صادر 1977 ) ، ج5، ص181.

(5)– ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج 487.

يقتله خبراً ، ويحزن لما يحزن حتى يدمثه قسراً وقهراً [1].

وقد نظم بديع الزمان الهمداني أبيات من الشعر في مدحه وفي وصف الدولة الغزنوية في عهده :-

تعالى الله ما شاء
وزاد الله إيماني
أأفريدون في التاج
أم الإسكندر الثاني
أمالرجعة قد عادت
إلينا بسُليمان
أظلت شمس محمود
على أنجم سامان
وأمسى آلُ بهرام
عبيداً لابن خاقان
فمن واسطة الهند
إلى ساحة جُرجان
ومن قاصية السند
إلى أقصى خُراسان
فيوماً رُسُل الشاة
ويوماً رُسُل الخان [2]

وتوفي محمود الغزنوي بغزنة في جمادى الأولى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة هجري عن سن واحد وستون سنة ، وتسلطن بعده ابنه مُحَمَّد مديدة. [3]

- **دور محمود الغزنوي في نهضة الدولة الغزنوية :**

برز محمود في الأحداث السياسية منذ وقت مبكر فبعد أن سيطر والده سبكتكين على كلاً من "قصدار "القريبة من غزنة و"بست" الواقعة بسجستان وهراه وقد أتاحت هذه الانتصارات لوالد محمود الاستلاء على جزء كبير من بلاد الهند فاستولى على بعض المواقع الجبلية وعاد إلى بلاده سالماً ظافراً [4]

وقد مد سبكتكين سلطانه في الشرق ،حيث أسس دولة حاضرتها "بشاور" في فارس باستلائه على خراسان التي ولى عليها نوح بن منصور الساماني في سنة (384) [5].

وقد مات سبكتكين في سنة 387هـ بعد أن حكم عشرين عام وضع فيها أساس إمبراطورية الغزنويين بفضل ما أحرزه من نصر مؤزر في فتوحه في الشرق والغرب ، وما أشتهر عنه من الصلابة وقوة الإرادة ومتانة الخلق تلك الإمبراطورية التي اتسعت رقعتها وامتدت حدودها في عهد ابنه محمود [6].

عهد سبكتكين قبل موته إلى ابنه اسماعيل ؛ وكان ضعيف الرأي والتدبير حتى كانت تنفذ خزائنه ، فأرسل إليه أخوه محمود وكان أكبر منه سناً يبين لهُ أحقيته في السلطنة بعد أبيه، واتصل بمحمود قواد إسماعيل سراً، والتقت جيوشهما بظاهر غزنة ،وبانتصار محمود أستقر لهُ مُلك الغزنويين ، وقُبض على إسماعيل بعد أن حكم سبعة شهور. ، وهو فاضل ، حسن المعرفة ، ولهُ نظم ونثر ، وخُطب في بعض الجماعات [7]

لما فرغ محمود من أمر أخيه وملك غزنة ، ووضع يده على مملكته الصغيرة التي ورثها عن أبيه

(1) – العتيبي :، تاريخ اليمني ،ج1، ص33-34.
(2) – الذهبي : سير اعلام النبلاء ، ج17 ، ص488.
(2)– الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج7 ، ص 488 .
(4) – ابن الاثير : الكامل في التاريخ ،ج9، ص248.
(5)– حسن ابرهيم ، تاريخ الإسلام ، ج3،ص92.
(6) – ابن الاثير : الكامل في التاريخ ،ج9،ص48 .
(7) – ابن الاثير، الكامل في التاريخ ، ج9، ص132.

سبكتكين سار إلى "نيسابور" وبها بكتوزون ، فلما بلغه خبر مسيره نحوه رحل عنها ، فدخلها محمود وملكها [1] ، ثم ضم إلى مملكته بلاد البنجاب وأخضع بلاد الغور ، وبلاد ما وراء النهر وولى لبني بويه ضرباته التي انتهت بالإستلاء على أصبهان وزالت الدولة السامانية من خراسان ومن بلاد ما وراء النهر .

في سنة (393هـ) ملك محمود سجستان وانتزعها من يد خلف بن أحمد ، واستخلف عليها أميراً من أصحابه ، يعرف بقنجي الحاجب ، فأحسن السيرة في أهلها [2] وفي سنة(401هـ) حارب محمود الغور، وكانوا لا يدينون بالإسلام ، وتقع بلادهم الجبلية الوعرة المسالك بين هراة وغزنة ، وقد أوقع محمود بهم وأخضعهم لسلطانه ، ونشر الإسلام بينهم ، وأرسل إليهم جماعة من المسلمين يعلمونهم أصول الدين [3]

وأزال محمود سلطان البويهيين في الري وبلاد الجبل ، فقد انتهز فرصة استنجاد مجد الدولة بن فخر الدولة الذي استبدت أمه بالأمر دونه وانصرف إلى النساء واشتغل بقراءة الكتب . فاختلت دولته بعد موت أمه وأرسل إليه جيشاً قبض عليه وعلى ابنه أبي دلف وسار محمود بنفسه إلى الري ودخلها ثم ملك قزوين وصلب عدد كبيراً من الباطنية ونفى المعتزلة وأحرق كتب الفلسفة والمعتزلة والنجوم وأخذ عدا ذلك مائة حمل من الكُتب . كذلك حارب محمود الغزنوي الأتراك الغزية أصحاب أرسلان بن سلجوق وكانوا يقطنون صحاري بخارى وقبض على زعيمهم وقتل كثيراً منهم وهرب جمعاً كثير من أصحابهم [4]

واكتسب محمود مكانته في التاريخ بجهوده الحضارية التي لم يشغله عنها فتوحاته وغزواته ، وكان مولعاً بعلم الحديث ، يستمع إلى علمائه كما كان فقيهاً لهُ مؤلفات ، ولا يكاد يسمع بعالم لهُ مكانة حتى يستدعيه إلى دولته ، فأستقدم "أبو الريحان "مُحَمَّد بن أحمد الباروني ، الذي نبغ في علوم كثيرة في مقدمتها الرياضيات والفلك ، كما عنى السلطان بالشعر وكان لهُ به شغف ، ومن أشهر الشعراء الذين ازدانت بهم دولته الشاعر الفارسي "عنصري" و" المسجدي " و" الفرخي " وهو شاعر فارسي كبير ،وقيل في الفرخي لدى الفرس بمثابة المتنبي لدى العرب . ومن أبرز الشعراء في هذا العصر الشاعر "الفردوسي " صاحب الشاهنامة والتي نظمها في خمسة وعشرون سنة من الجهد والابداع وتشمل أخبار الفرس القدامى وهي من عيون الأدب العالمي وأصبحت غزنة في عهد السلطان محمود منارة للعلم ومقصد للعلماء وغدت عامرة بالمساجد والقصور والأبنية واشتهرت بدقة التصميم وجمال العمارة .

**فتوحات محمود الغزنوي في بلاد الهند:**

يمكن حصر فتوحات محمود في الهند بين سنتي (392-415هـ/1000-1024م) وقد اصطبغ هذا الجهاد بالطابع الديني ، فكان الغرض من هذه الفتوحات هو نشر الدين الإسلامي في هذه البلاد ، فقد فرض على نفسه أن يغزو بلاد الهند كل عام ،بالإضافة إلى أن محمود كان يرى أن احتفاظ جيبال ملك البنجاب بقوة كبيرة لا يستهان بها تشكل خطراً على دولته ، فقد خاض ضده حروباً طاحنة برفقة أبيه سبكتكين وكذلك قرب غزنة من بلاد الهند كل هذا شجع محمود

(1) –حسن ابراهيم حسن التاريخ الاسلامي ج3،ص95

(2) – ابن الاثير الكامل في التاريخ ج9،ص193.

(3) – حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، ج9،ص95.

(4) – ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج9،ص374.

وساعده على غزو بلاد الهند في سنة( 392ه ) غزا محمود شمال الهند والتقى بملكها جيبال في جيش عظيم فاقتتلوا قتالًا شديداً ، ففتح الله على المسلمين ، وانهزمت جموع الهنود وأسر ملكهم جيبال وأخذوا من عنقه قلادة قيمتها ثمانون ألف دينار وغنم المسلمون منهم أموالاً عظيمه وفتحوا بلاداً كثيرة ثم أن محمود أطلق سراح ملك الهند جيبال احتقاراً لهُ واستهانه به [1] ، وكان من عادة الهنود من وقع منهم أسيراً في أيدي المسلمين لا تعقد لهُ رئاسة لذلك حلق رأسه ثم ألقى نفسه في النار فأحترق وترك مملكته لابنه "أنندبال" [2] ثم صار محمود نحو ويهند وانتصر على أهلها . ثم قصد إقليم الملتان وهو مركز مشهور للحجاج من الهند جنوب بلاد البنجاب ، فاستولى على مدينة "بطاهية" وانتصر على صاحبها بجيرا ونشر الإسلام فيها [3] و في سنة (396ه) قصد محمود مدينة "الملتان" وانتصر وهو في طريقه إليها على "أنندبال" بن "جيبال " لأنه لم يسمح لهُ بالمرور من بلاده ، ولما سمع أبو الفتوح داوود صاحب الملتان وكان يدين أهلها بمذهب القرامطة بقدوم محمود إلى بلاده فر إلى "سرنديب" فقضى محمود على مقاومة أهلها وافتتحها عنوة وفرض عليهم الجزية وأغرامهم ألف ألف درهم عقوبة لهم على عصيانهم . [4]

و في سنة( 397ه) أعلن محمود الحرب على ولد أنندبال الذي اعتنق الإسلام على يد محمود وتلقب بلقب "نواسه شاه" وحكم بلاده نيابة عنه ، ولكنه ارتد عن هذا الدين وشق عصا الطاعة فسار إليه محمود وانتصر عليه وضم بلاده إلى املاكه [5] .

وفي سنة 398ه عبر محمود نهر السند والتقى في ويهند الواقعة في البنجاب بجيش جرار يتألف من قوات أبرهمن بال بن أنندبال وتبعهم محمود حتى بلغ قلعة بهيم نغر في البنجاب وهي على جبل عال بجيش جرار وكان الهنود قد جعلوها خزانة لصنمهم الأعظم ، فينقلون إليها الذخائر والجواهر قرناً بعد قرن وهم يعتقدون ذلك ديناً وعبادة ، فاجتمع فيها على طول الأزمان ما لم يُسمع بمثله فنازلهم يمين الدولة وحاصرهم وقاتلهم وأرغمهم على طلب الأمان ولما رأى الهنود كثرة جمعه وحرصهم على القتال ففتحوا لهم باب الحصن وملك المسلمون القلعة وأخذ يمين الدولة منها الجواهر مالا يُحد ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم شاهيه ومن الأواني الذهبيات والفضيات سبعمائة ألف وأربعمائة وكان فيها بيت مملوء من الفضة طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه خمسة عشر ذراعاً إلى غير ذلك من الأمتعة [6] . وكان من أثر هذا الانتصار أن انتشر عقد هذا الحلف وزالت الثقة من نفوس هؤلاء ودفع انندبال إلى المسلمين غرامة كبيرة وتعهد بأن يدفع إليهم جزية سنوية ، كما تعهد بأن لا يقف في طريقه إذا ما أراد المرور من بلاد البنجاب ،وفي سنة (400ه) استولى محمود على حاضرة الملتان وقتل كثيراً من أهلها ثم استولى على" ناردين " وكان للهنود بها صنماً كبيرا يسمونه (سومنات ) [7] وهو أعظم أصنامهم وكان الصنم في حصن عظيم على ساحل البحر وكان في بيت ممتلئ بالنفائس وكان هذا البيت

(1) – ابن كثير : البداية والنهاية ، ج11،ص359

(2) – ابن الاثير : الكامل في التاريخ، ج9،ص 64.

(3) – حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ،ج3، ص97

(4) – ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ،ص 1138.

(5) – حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ،ج3، ص97.

(6) – ابن الاثير : الكامل في التاريخ ،ج9،ص203.

(7) – حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام ،ج3،ص98.

يضاء بمصابيح من الجوهر الفائق وكان عنده سلسلة بجرس وزنها مائة طن من الذهب ، وكان الهنود يحجون إلى هذا الصنم في ليلة خسوف القمر وكانوا يقربون إليه ذخائرهم ونفائسهم فكان كلما غزا محمود جزءاً من الهند أو كسر صنم لهم قالوا إن سومنات غاضب عليهم ولو رضي عنهم لأهلك محمود بن سبكتكين [1]

اعتزم محمود غزو سومنات حتى يُظهر لهم كذب دعوتهم الباطلة في شأن هذا الصنم فسار في ثلاثين ألف فارس سوى المتطوعة وقطع القفر إلى الملتان وتزود لهُ من القوت والماء قدر الكفاية ، وزيادة عشرون ألف حمل وخرج من المفازة إلى حصون مشحونة بالرجال وقد غوروا آبارهم مخافة الحصار فقذف الله الرعب في قلوبهم وفتحها وقتل سكانها وكسر أصنامها واستقى منها الماء [2]

لقد أقسم محمود أن يغزو بلاد الهند كل سنة ولكنه انشغل في سنة (407هـ) بضم بلاد خوارزم على أثر مقتل خوارزم شاه مأمون فكان قتله على يد أحد قواده وأجلسوا ابنه مكانه فقصد محمود هذه البلاد وأنزل العقاب بالثوار ؛ وولى عليهم نائباً من قبله [3]

ولما فرغ السلطان من أمر خوارزم اعتزم تسيير حملة إلى بلاد الهند سنة تسع وأربعمائة ،وكانت كشمير هي وجهته وسار تسعين يوماً متصلة وعبر نهر جيحون وحليم وخيالا واخضع ملوك هذه الجهات التي مر بها إلى ان وصل وجهته كشمير ، فيخضع لهُ صاحبها ويُسلم على يديه ، ثم سار السلطان إلى قلعة "كلنجد" وعليها راجا مهبان فقاتله محمود قتالاً شديداً [4] وغنم المسلمون أمواله وغنموا منها مائة فيل وغير ذلك مما جل عن الوصف وملكوا حصونه ثم سار نحو معبد لهم في مدينة "مثوار" وفيها كثيراً من الاصنام : منها خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجواهر وكان فيها من الذهب ستمائة ألف وتسعون ألف وثلاثمائة مثقال ، ومن الأصنام المصوغة من النقرة نحو مائتي صنم ،وزادت شخوص الفضة على شخوص الذهب في الوزن فهدمت تلك الأصنام كلها [5] ثم عبر محمود نهر الجنح نحو "كنوج "وكان يحميها سبعة حصون واستولى على قلاعها وأعمالها وفيها نحو عشرة الآف بيت من بيوت الأصنام ثم سار إلى قلعة البراهمة فقاتلوه قتالاً شديداً ثم تساقطوا من أعاليها على سنا الرماح ، وضياء الصفاح ثم سار إلى قلعة "أسا "وملكها جندبال فهرب وتركها ثم عطف على قلعة "آسي" وملكها جندراي من أكابر الهنود ولما اقترب منها نقل صاحبها جندراي ماله وفيوله نحو جبال منيعة ولكن محمود افتتحها ولاحقهم في الجبال وأسر كثيراً من جنده وغنم ما معهم من مال وفيلة. [6]

[6]

وبعد هذه الانتصارات رجع محمود إلى غزنة فوجد أن السلاجقة الذين أستقروا في خراسان بموافقته وسمح لهم بالعبور حيث وجد أن أهل نسا وباورد وفراوة يشتكون من عبث السلاجقة وإحداثهم للاضطرابات في ديارهم فأرسل السلطان إلى أمير طوس أرسلان الجاذب يأمره بتأديب السلاجقة فامتثل لأمره وجهز جيشه وداهمهم فاحتشد السلاجقة وتوحدوا ضده فوقعت معركة ضارية

(1) – ابن كثير ،البداية والنهاية، ج12، ص10.

(2) – ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ص1144.

(3) – ابن الاثير ، الكامل في التاريخ: ، ج9،ص267.

(4) – ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ص 1142.

(5) – ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ،ص 1142 .

(6) –ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، 1143.

استطاع السلاجقة الوقوف في وجه جيش أرسلان والانتصار عليه [1].

وما أن سمع السلطان محمود الخبر حتى أرسل إليه يلومه ونسب إليه العجز ، فكتب أرسلان لهُ يخبره عن قوة السلاجقة وبأسهم وإنه لا يمكن الانتصار عليهم إلا بحضوره فلما وصلت الرسالة إلى محمود حشد جيشه وسار إلى غزنة سنة (419هـ) ووجه جيشه إلى بست ثم إلى طوس والتحق جيش أرسلان الجاذب بجيش السلطان محمود وهجموا على السلاجقة وانتصروا عليهم انتصار عظيم سنة (420هـ).[2]

لم يكن السلطان محمود الغزنوي مدفوعاً في فتوحاته برغبة جامحة في كسب الغنائم أو تحقيق مجد يذكره لهُ التاريخ ، ولكن قاده حماسه لنشر الإسلام ، وإبلاغ كلمة التوحيد في مجتمع وثني ، وكانت تلك الحملات بطلب الدخول في الإسلام . وكانت حصيلة جهود محمود أن أتم فتح شمال شبه القارة الهندية ، ففتح إقليم كابلستان ، وملتان ، وكشمير و أخضع البنجاب ونشر الإسلام في ربوع الهند وفتح طريق سلكه من جاء بعده . وقد نظر المؤرخون المسلمون إلى أعماله نظرة إعجاب وتقدير ، فقد بلغ بفتوحاته إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية وأقام بدل بيوت الأصنام مساجد الإسلام .

## الخلاصة

يخلص البحث إلى أن لمحمود بن سبكتكين دور مهم في إعادة الوحدة للدولة الغزنوية مما أدى إلى اطلاق عملية الفتوح والتي أسهمت في تعزيز قوة ومكانة إمبراطوريته التي خلفها بعده حيث يمكن تحديد إنجازاته في :

1- بناء إمبراطورية قوية موحدة عقائديا وسياسيا .
2- نشر الإسلام وتعزيزه في شبه القارة الهندية .
3- عزز القيم الحضارية في دولته بتشجيعه للعلماء واهتمامه بالعلوم .
4- -أصبحت الدولة الغزنوية في زمانه قوة يحسب لها حساب في نطاقها الإقليمي .
5- أقام بدل بيوت الأصنام مساجد يذكر فيها اسم الله .

(1) – ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ص1144.

(2) – ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ص1145.

## قائمة المصادر والمراجع


1- ابن الاثير، عزالدين أبي الحسن على بن ابي الكرم مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني (ت630ه/1232م) الكامل في التاريخ اعتنى به وصححه أبو صهيب الكرمي ،بيت الافكار الدولية .

2- حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ،الجزء الثالث مكتبة نهضة مصر الطبعة الخامسة عشر ، (1422ه/2001م)

3- ابن خلدون ، ابو زيد عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن خلدون الحضرمي المغربي (ت808ه/1405م) تاريخ ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ في أيام الغرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر اعتنى به وصححه أبو صهيب الكرمي ، بيت الافكار الدولية .

4- ابن خلكان ، ابو العباس شمس الدين احمد بن مُحَمَّد بن ابي بكر (681ه/1282م) وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر بيروت (1398ه/1978م).

5- الذهبي : شمس الدين مُحَمَّد بن احمد بن عثمان الذهبي : سير اعلام النبلاء (ت748ه/1374م) تقديم بشار عواد معروف ،مؤسسة الرسالة ،بيروت ،الطبعة الحادية عشر (1417ه/1996م).

6- السبكي : تاج الدين ابي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي (ت 771ه) ، تحقيق محمود مُحَمَّد الطناحي وعبدالفتاح مُحَمَّد الحلو، دار احياء الكتاب العربية الطبعة الاولى

7- البيهقي : ابو الفضل مُحَمَّد بن حسين (470ه/1077م) تاريخ البيهقي المسعودي ، ترجمة يحي الخشاب وصادق نشأت ، دار الطباعة الحديثة مصر (1956م)

8- بن كثير :الإمام الحافظ ابي الفداء إسماعيل ان كثير القُرشي الدمشقي (ت774ه) تحقيق حامد احمد الطاهر ، دار الفجر للتراث ، القاهرة ، الطبعة الاولى ،(1424ه/2003م)

9- العتيبي: أبو نصر عبدالجبار بن مُحَمَّد العتيبي (ت 427ه/1035م) ، تاريخ اليميني على هامش الفتح الوهبي للشيخ احمد المنيني (جمعية المعارف ،القاهرة 1286ه).

## دور المصادر الشفوية في كتابة التاريخ.

د. محمّد الذويب

لطالما اعتبرت الوثائق الأرشيفية مرادفا للوثائق المكتوبة وهي التي نعتمدها كمصادر لكتابة التاريخ إلا أن هذه المعادلة لم تعد اليوم موفقة تماما، من المؤكد أن تبقى الوثيقة المكتوبة ركيزة البحث التاريخي إلا أن الباحث في تاريخ الفترة المعاصرة والزمن الراهن سوف يعتمد أكثر فأكثر على مصادر أخرى غير المكتوبة على غرار الوثائق السمعية البصرية أو ما ينعت بأرشيف الصدور.

يعد الرجوع إلى مثل هذه الوثائق من المقاربات الهامة والضرورية خاصة وأنها تساعد على سد الثغرات والنقائص في الأرشيفات "المعهودة"، هذه الأرشيفات التي كثيرا ما تغافلت وتناست أدوار العديد من الفاعلين وشاهدي العيان، عمدا أو سهوا، وخاصة أولئك الذين كانوا عاجزين عن ترك أي أثر مكتوب لجهلهم القراءة والكتابة أو لأنهم منعوا من القيام بذلك أو نتيجة خيارات وتحت ضغط رقابة ذاتية. فكانت النتيجة إن اختفوا واختفت وقبرت معهم العديد من المعلومات كانت ربما قادرة على إنارة بعض الجوانب من الفترات التاريخية المهمة من تاريخ الشعوب التي لا أثر ولا صدى لها في المصادر المكتوبة.

ظهر التاريخ الشفوي في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر في البلدان الاسكندنافية ليتوسع أكثر فأكثر بقية الدول الأوروبية وأمريكا أما في تونس يعود الاهتمام بالأرشيف السمعي البصري الى نهاية السبعينات عندما بدأ التفكير في مراجعة كتابة تاريخ الحركة الوطنية في إطار ما عرف وقتها "بالبرنامج الوطني للبحث" في كتابة تاريخ الحركة الوطنية (PNR)وعهد الى لجنة خاصة للقيام بهذه المهمة سنة 1979.

ومن بين المهام التي كلفت بها هذه اللجنة هي مسألة التوثيق لإثراء البحث في هذا المجال وخاصة السعي لجلب الوثائق المتعلقة بتاريخ تونس المعاصر والمودعة في مراكز البحث الفرنسية. وبتطور هذا البرنامج وتزامنا مع عقد المؤتمرات والندوات العلمية اتضح بصفة جلية ما للشهادات الشفوية من أهمية في مجال كتابة تاريخ الحركة الوطنية وذلك من خلال ما أدلى به العديد من الحاضرين في هذه الندوات وأغلبهم من الفاعلين والمشاركين في هذا الطور من تاريخ تونس.

عموما شكّل اعتماد المصادر الشفوي إضافة هامة للكتابة التاريخية ولكن وجب على من يعتمد هذه المصادر توخي الحيطة والحذر في التعاطي معها لتفادي بعض المنزلقات التي قد تنجر هن هذه المصادر كمسألة الذاكرة.

### الفصل الاوّل: الذّاكرة والتاريخ:

الذّاكرة هي القدرة على حفظ الخبرات السابقة واسترجاعها والذاكرة تمثّل مصدرا ضروريا للفعل التاريخي خاصّة بالنسبة للمؤرّخ المهتم بالمصادر الشفوية حيث أنّ هذا النّوع من المصادر يمرّ حتما عبر عمليّة استرجاع الشّاهد لأحداث عاشها، فعل فيها أو شاهدها. هذا الاسترجاع والتذكّر يجرّنا إلى الحديث عن دور الذاكرة في العملية التاريخية وما تشهده من تطوّرات وتغيّرات جديدة تطرأ فجأة فالذاكرة تشهد عملية انتعاش فجئيّة تتأثر خاصّة بالزمن، فالمزج بين الماضي والحاضر يمثّل عنصرا أساسيّا في مفهوم التاريخ

وفي الفعل التاريخي[1] فالزمن يفرض نفسه على الشخص ويساهم في إضعاف ذاكرته مما يسفر عن نسيان عديد الأحداث، فالذاكرة إذا تقتضي النسيان وبما أن التاريخ يهدف إلى استرجاع المنسي فهي عبارة عن ماض في الحاضر.

فالذاكرة التي تستحضر الأحداث في حينها أو بصفة مباشرة إثر حصول الحدث تمثّل مرجعا تاريخيا من المستوى الأوّل فكلّما ابتعد تسجيل الشهادة زمنيا عن الحدث موضوع التسجيل إلا وتقلّصت فاعلية الشهادة. فالشاهد الذي يدلي بشهادته سنه 1994 ويكون موضوع الشهادة مثلا الصراع اليوسفي البورقيبي تكون أقل جدوى في النّاحية التاريخيّة وذلك بفعل تأثير مدة زمنية طويلة (40 سنة) في ذاكرة الشاهد وهذا ما نلمسه من خلال مجموعة التسجيلات التي نشتغل عليها حيث أعرب عديد المستجوبين عن نسيانهم للحدث واستعان بعضهم الأخر بأشخاص لمساعدتهم على التذكّر أو ببعض الأوراق التي يدوّنون عليها الأحداث والتواريخ وأسماء الشخصيات.

الذاكرة كالقطار تسير وتشهد بروز عناصر جديدة تطفو على السطح كما تشهد غياب أو نسيان عناصر أخرى[2]. والذاكرة حسب بيار نورا هي "الحياة تحملها مجموعات حيّة وهي صلة للحاضر مع الماضي"[3]. تلعب عملية النسيان إذا دورا كبيرا في الفعل التاريخي فكلما ابتعدت المدة زمنيا عن الحدث موضوع الحديث إلا ونقصت فاعلية وجدوى الشهادة فالمدة الزمنية الفاصلة بين الماضي المتحدث عنه والحاضر المعاش هي أيضا في حاجة للدراسة[4].

من بين العوامل الأخرى التي تؤثر في ذاكرة الشاهد وفي جدوى شهادته يمكن أن نذكر ظروف عيشه ومحيطه القريب وحتى البعيد ووضعه العام السياسي الاجتماعي والثقافي وحتى النفسي الذي يعيشه هو أثناء عملية التسجيل بالذات. فالمحيط السّياسي إذا يؤثر بدرجة كبيرة في عملية التسجيل وذلك حسب درجة حرية التعبير المسموح بها داخل المجتمع الذي يعيش فيه الشاهد والتطوّرات التي شهدتها القضية موضوع التسجيل[5] فلا يمكن مثلا مقارنة شهادة مناضل تونسي كان على اختلاف في الرأي مع بورقيبة أدلى بشهادته خلال فترة حكم هذا الأخير بنفس الشهادة بعد 1987 فمثلا الطاهر لسود الذي قال عن بورقيبة سنة 1993: "ظهر ساقط وكلب " لا نتصوّر أنه كان سيقول ذات الكلام ويستعمل نفس العبارات لو وقع إجراء التسجيل معه قبل 1987 أي خلال فترة حكم بورقيبة وهي شهادات تترجم عن ذاكرة "مريضة " لا ترى في استعادة صحتها إلا بالثأر ممن قمعها أو تعتقد أنه طردها من التاريخ وهذا النوع من الشهادات لا يكون دائما سليما لأنه يمثل جملة تاريخ فردي وجمعي غير سليم

[1] Le Goff (Jacques), Histoire et mémoires, Folio histoire, impression le 06 octobre 1988, p31.

[2] - الشاطر (خليفة)، محاضرة بالمعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر يوم 14 أكتوبر 2009 بعنوان " **الذاكرة والتاريخ**".

[3] - Nora (Pierre), **les lieux du mémoire**, Paris, Gallimard 1985.

[4] - Frank (Robert), **La bouche de la vérité, la recherche historique et les sources orales, la mémoire de l'histoire,** cahier de l'IHTP № 21.

[5] - الصغير (عميرة علية) ، " **مكانة الشهادة الشفوية وإسهامها في هستوغرافيا الحركة الوطنية التونسية** "، مجلة روافد عدد 13 ، 2008، المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر، ص 09- ص 25.

مبني على طابع ثوري ثأري موجّه ضد من أقصاه وهمّشه وهذا ما يمكن أن نصفه "بالشهادة الثأرية[1] ".

فالاعتداء بطريقة أو بأخرى على الذاكرة الوطنية وتشويه صورتها قد أثّر عليها وأصبح المكبوت فيها أكثر من الظاهر أو المعلن نظرا لخوف الشاهد من الردع والعقاب وتأثير المناخ السياسيّ والأيديولوجي على الذاكرة والحديث والشهادة خاصة اذا كان خصم الشاهد أو المختلف عنه هو من يتولى السلطة كل هذا أفرز ما يسمى" بالشهادة المكيفة " (Mémoire conditionnée)"والذاكرة المعطوبة (Mémoire traumatisée)".

ومن المظاهر الأخرى الدّالة على ضرورة توفر مناخ ديمقراطي سليم لمزيد جدوى وفاعلية الشهادات التاريخية أو الذاكرة تزايد الاقبال وبصفة ملحوظة على التسجيل من قبل الفاعلين في تلك الفترة أو المعاصرين لها مما يؤدي ضرورة الى ارتفاع عدد التسجيلات بعد أي تغيير سياسي كما جرى في تونس مثلا حيث ساهم التغيير على رأس السلطة الذي حدث سنة 1987 في ارتفاع عدد التسجيلات والشهادات وتسارع عديد الفاعلين للتعبير عن رغبتهم في تسجيل شهاداتهم ويتجلّى ذلك خاصّة من خلال ارتفاع عدد التسجيلات بالمعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية وذلك بسبب رفع درجة الحرج والرقابة والخوف على عديد المناضلين خاصّة منهم الذين كانت لهم اختلافات ايديولوجية أو سياسية مع بورقيبة (اليوسفيون مثلا) وكل هذا من شأنه أن يوفّر مادة دسمة وهامّة يمكن الاشتغال عليها واستغلالها لإعادة كتابة تاريخ الحركة الوطنية بطريقة صحيحة وعادلة بعيدا عن منطق الرأي الواحد والحزب الواحد والزعيم الأوحد وهو ما يمكننا من إعادة الاعتبار للمنسيين داخل هذا التاريخ وداخل هذا البلد طبعا.

الذاكرة إذا تلعب دورا أساسيا في كتابة التاريخ ولكن لابدّ من مراعاة عدة ظروف أخرى تدخل في عملية التسجيل وتفرض نفسها بشدة في عملية استرجاع مسيرة الأحداث أو في طريقة سردها وتسجيلها وروايتها تماما كما تتداخل فيها طبيعة الوضع الديمقراطي والسياسي الذي تعيش فيه الشخصية المسجّل معها مع ضرورة مراعاة ميولات هذه الشخصية السياسية والحزبية والإيديولوجية وهي كلّها أمور تتداخل في الوثيقة الشفوية المشتغل عليها وتمثّل عقبة كأداء أمام الباحث على المصادر الشفوية قد تخفي عنه بعض الحقيقة أو كلّها.

## الفصل الثاني: بداية اعتماد التاريخ الشفوي في العالم :

إن التاريخ باعتباره عملية علمية تهدف إلى معرفة ودراسة الماضي قد أهمل لمدة طويلة اعتماد المصادر الشفوية كأداة للتأريخ ذلك أنّ أوامر إقصاء هذه المصادر وتهميشها قد صدرت عن مؤسسي وأنصار المدرسة التاريخية الوضعية الذين يعتبرون أنّ: " التقاليد الشفاهية في كتابة التاريخ تمثّل بطبيعتها تشويها متواصلا ولذلك فلا ينبغي أن نعتمد في العلوم المنظّمة إلا النقل الكتابي"[2]. ويمكن تفسير هذا الموقف المتبنّى من طرف المدرسة التاريخيّة الوضعية

[1] - ذويب (محمّد)، **الفلاقة واليوسفية من خلال المصادر الشفوية**، تقديم الدكتور بشير اليازيدي، منشورات سوتيميديا للنشر والتوزيع، تونس، الطبعة الأولى ديسمبر 2017، ص ص 186، ص 23.

[2] - Langlois et Seignobos, **Introduction aux études historiques**, Paris 1998, p 155.

تجاه المصادر الشفوية بالظروف التي شهدت بروز ونشأة تلك النزعة التاريخية أي الفترة التي كانت فيها المدرسة مع ما تقوم به من نشر التعليم تعتبر أقوم المسالك وأفضلها لبلوغ التقدم والحضارة كما يمكن أن نظيف إلى ذلك أن المدرسة النظامية كانت متجهة خصوصا نحو الاهتمام بالأحداث السّياسيّة والدبلوماسية الكبرى أو بالشخصيات الفاعلة في الأحداث وهي ميادين يمكن أن يكون فيها التوثيق الكتابي كافيّا لإجراء البحوث التاريخية[1] على حساب الشخصيات التي تعتبر حتى تلك الفترة شخصيات هامشية وثانوية التي لا يمكن رد الاعتبار لها الاّ من خلال المصادر الشفوية.

لذلك كان اللجوء إلى المصادر الشفوية أولا وبالذات من قبل الباحثين في العلوم الإنسانية الأخرى مثل باحثي الفولكلور والباحثين في أصول الجنس البشري والسلالات البشرية ثم في مرحلة ثانية المهتمين بتاريخ النساء والمهمّشين والحركات العماليّة التي تبنّاها خاصّة مفكرو اليسار الذين وللأمانة التاريخية كان لهم الفضل في بداية اعتماد هذه المصادر لكتابة التاريخ.

وفي هذا الإطار كانت المبادرات الأولى في مجال البحوث الشفوية منذ القرن 19 في البلدان الإسكندنافيّة[2] ففي السويد مثلا اهتمّ طلبة جامعة "ايسالا" منذ 1870 بثراء اللهجات المحلية حيث قام رائد ومؤسس هذه الجمعية "لوندال" سنة 1878 بإحداث نظام نسخ أو نقل صوتي لتنتشر العملية وتتوسع أكثر فأكثر مع بداية القرن العشرين حيث شهدت جامعة "ايسالا" سنة 1914 تأسيس "معهد البحوث حول اللّهجات والفلكلور المحلي" وذلك اعتمادا على الدعم المالي المقدّم من طرف البرلمان السويدي الذي رصد منحة مالية سنوية تقدّر بسبع آلاف كورونا سويديّة.

ولكن المقاربة في البحوث بقيّت دائما ذات أولوية لغوية لسانيّة لذلك حاول مدير "معهد البحوث حول اللهجات والفلكلور المحلّي" "هرمان جيجار" التوسّع أكثر في البحث وإعداد بحوث شاملة حول عادات وتقاليد السويد بصفة عامّة فمنذ سنة 1935 أصبح هذا المعهد يستعمل التسجيلات اعتمادا على الأقراص لتتطوّر العملية إثر الحرب العالمية الثانية إلى اعتماد تقنيات التسجيل على الأشرطة خاصة بتطور آلات التسجيل وحفظ الأرشيفات في تلك الفترة مما مكّن معهد البحوث حول اللهجات والفلكلور المحلّي من جمع مجموعة تسجيلات هي الأقدم والأكثر ثراء في العالم قبل أن تتوسّع عملية التسجيل اثر ذلك لتشمل تقريبا كل المدن السويدية مع الاهتمام أكثر بتسجيل كبار السّن نظرا لأنهم الأكثر قدرة على كشف حيثيات أحداث قديمة نوعا ما هم الأقدر على تذكّرها أو خوفا من أن تباغتهم المنيّة وتذهب معهم المعلومات والأحداث.

بعد الحرب العالمية الأولى أدّى كل من الباحث السويدي "كارل فان سيداو" من جامعة "لوند "وباحث نرويجي من جامعة أوسلو وهو "ريدار كريستيانسن "زيارة عمل وتعاون إلى ايرلندا بغاية الحصول على معرفة أكثر شمولية للفلكلور الأوروبي بصفة عامّة والأيرلندي بصفة خاصّة مما دفع

[1] - الكزدغلي (حبيب)، " **ما يمكن أن تقدمه الذاكرة للتاريخ**"، مجلة روافد عدد 01 الجزء الأول، سنة 1995 ص 214، المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر.

[2] - Joutard (Philippe), **Ces voix qui nous viennent du passé**, Hachette 1983, p91.

باحثي ايرلندا إلى مزيد الاهتمام بالموضوع وإنشاء مؤسسة لجمع الفلكلور الأيرلندي وكان ذلك في سنة 1926.[1]

بعد ذلك مباشرة أنشأ أعضاء وروّاد هذه المؤسسة جريدة تعتمد على التاريخ الشفوي أطلقوا عليها اسم "بلواد‌ياس "وهي جريدة مازالت تصدر في ايرلندا إلى اليوم وتحظى بشعبيّة واسعة ولها قرّاءها من قطاعات واسعة من الأيرلنديين وفي سنة 1930 اهتمّ البرلمان الأيرلندي بالمشروع ورصد له اعتمادات ماليّة معتبرة مما شجّع المهتمّين بموضوع التاريخ الشفوي على تأسيس ما يسمّى بـ "لجنة الفلكلور الأيرلندي" وكان ذلك سنة 1935.

شجّعت هذه النتائج المحقّقة قسم التربية بجامعة دبلن في جويلية 1937 على القيام بحملة لجمع الروايات الشفوية وتسجيلها مما أسفر عن الحصول على 10 آلاف تسجيل في مجموعة من الأقراص والأشرطة وهي مادة تاريخيّة مهمّة جدا. وفي سنة 1951 تم إحداث "معهد دراسات إيكوس" والذي قام سنة 1971 ببعث مجلّة أطلق عليها اسم "توتشر "والتي تقوم بنشر الندوات والروايات والأغاني والعادات والتقاليد والفلكلور والأمثلة الأيرلندية المجمّعة انطلاقا من روايات وشهادات شفوية يقع تسجيلها من قبل الباحثين والمختصّين.

أما في أنقلترا فإنّ أولى التجارب في مجال التاريخ الشفوي كانت بمبادرة من جامعة "ليدز"[2] وكان ذلك سنة 1952 حين قامت هذه الجامعة بنشر بحث حول اللهجة الإنكليزية على مستوى وطني تقريبا حيث شملت البحوث ما لا يقل عن 313 مدينة أو بلدة أو قرية على شاكلة تسجيلات حرة.

كان أغلب المتحدّثين أو المسجّلين من السكان المحليين خاصّة كبار السن الذين يعيشون في هذه الأماكن منذ مدّة طويلة وتجاوزت أعمارهم 65 سنة وكان موضوع الاستجواب الطفولة والشباب لهؤلاء المسنّين.جرّاء الحرب العالمية الثانية شهدت بداية أربعينات القرن العشرين حالة ركود ليستعيد إثرها التاريخ الشفوي ألقه من خلال بعث الجمعيّات النسائية وجمعيّات كبار السن، ففي سنة 1956 كتب "جورج إيوارت إيفانس " كتابا حول الصحافيين الإنجليز بعنوان "اسأل الأصدقاء الذين يشاركونك الإيمان" والذي هو عبارة عن مجموعة استجوابات يقوم "إيفانس" بتسجيلها بمعية بعض أصدقائه الصحافيين ثم تحوّل فيما بعد إلى كتب ونشريات.

دائما في أنقلترا وفي أواخر ستينات القرن الماضي أحدث كتابا لصحفي يدعي "رونالد بلوث" ضجّة ولقي نجاحا كبيرا في أوروبا وهي بعنوان "أكنفيلد: صورة مدينة إنجليزية "ووقعت ترجمته في سنة 1972 إلى الفرنسية بعنوان (Mémoire d'un village Anglais) ثم وقعت طباعة هذا الكتاب أربع مرّات ووقع اعتباره كتاب السنة في الولايات المتحدة الأمريكية وتم تحويله إلى فيلم متلفز سنة 1978.[3]

إذا عرفت العشرية الفاصلة بين 1960 و1970 اهتماما كبيرا بالبحوث الشفوية في أنقلترا حيث شهدت سنة 1970 وتحديدا خلال شهر

[1] - Joutard (Philippe), **Ces voix qui nous viennent du passé... op.** Cit p 93.

[2] - **Ibid**, p 95.

[3] - Joutard (Philippe), **Ces voix qui nous viennent du passé... op. Cit**, p 97.

ديسمبر انعقاد أول لقاء رسمي ضم أكثر من عشرين باحث أو مؤرخ يعتمدون في دراساتهم المصادر الشفوية وتمخّض عن هذا الاجتماع ظهور لائحة اتّفاق على تكثيف هذه الاجتماعات وجعلها دورية.

وبداية من 1971 أخذت إذاعة "بـ بـ س " ( BBC )البريطانية زمام المبادرة وآلت على نفسها تنظيم يوم تكويني خلال كل نهاية أسبوع للذين يريدون الاختصاص في مجال التسجيل الشفوي كما كانت تقوم بتنظيم حلقات نقاش بين مجموعة من الباحثين في مجال التاريخ الشفوي. في سنة 1972 نظّم مركز البحوث الاجتماعية في بريطانيا مؤتمرا حول تدارس طرق البحث في التاريخ الشفوي وشهدت سنة 1978 إنشاء "مؤسسة التاريخ الشفوي"التي أصبحت منذ 1980 تنظّم ست لقاءات سنوية تعنى بالتاريخ الشفوي اعتمادا على الفلكلور واللهجات المحلية والأمثال الشعبية على كامل التراب الإنكليزي.

إضافة إلى الباحثين المهتمّين بعلم التاريخ حظي موضوع التاريخ الشفوي باهتمام البيداغوجيين المعنيين بتعليم الكبار والذين يمثل النموذج الشفوي فرصة لهم لردّ الاعتبار والثقة لأولئك الذين لا يستطيعون كتابة تاريخهم الخاص أو حتى تاريخهم الشعبي العام.

في سنة 1974 أنشأ اتحاد عمّال المناجم في بريطانيا مكتبة لجمع الشهادات المسجّلة وذلك بالتعاون مع جامعة "سوانسيا "بغاية حفظ وحماية ماضي عمّال القطاع وتم جمع ما لا يقلّ عن خمس وعشرين ألف شريط وقرص مسجّل لتاريخ العمال في هذه المنطقة.

أمّا في إيطاليا فإن المبادرات الأولى في مجال التاريخ الشفوي كانت عبارة عن مبادرات خاصّة وأعمال فرديّة والتي أفضت إلى تكوين أرشيف خاص لمجموعة من الباحثين الذين كان من أشهرهم "دانيالو مونتالدي "و"جياني بودزيو" اللذان كانا وراء إحداث "معهد إرناستو دي مارتينو "في 1950 والذي يهتم بالتاريخ الشفوي واحتوت مكتبته مادة ارشيفية مهمة عبارة عن جملة من الشهادات والتسجيلات[1].

في إيطاليا دائما وتحديدا في مقاطعة اللومباردي بدأ الاهتمام بالتاريخ الشفوي منذ 1974 بغاية دراسة الأوضاع في الريف الإيطالي. في طورينو وخلال شهر جانفي 1981 نظّمت الباحثة "لويزا باسيريني "وهي أستاذة في مجال التاريخ الشفوي بالتعاون مع "معهد قرانسكي "أوّل إجتماع وطني يعنى بالتاريخ الشفوي والذي كان منطلقا لجملة من الاجتماعات الأخرى التي شهدتها الجامعات الايطالية[2].

أما في ألمانيا فإن الاهتمام بموضوع التاريخ الشفوي كان بصفة مبكّرة نسبيا حيث تعود أولى المبادرات إلى الفترة المتراوحة بين 1910 و1930 وقد كان وراء هذه المبادرة جامعة "إيسان" بقيادة "لوتز نياتهامنز"الذي اهتمّ خاصّة بدراسة الحياة اليوميّة للعمّال والطبقات الشغيلة في منطقة الروهر على الحدود الفرنسية ليتم في فترة لاحقة تدارس الأوضاع العمّالية في هذه المنطقة خلال الفترة النّازية من خلال عمليات استجواب العمّال الذين عاشوا خلال تلك الفترة من أجل التأريخ لنضالاتهم وخصوصيات وطبيعة عملهم .

---

[1] - Joutard (Philippe), **Ces voix qui nous viennent du passé... op. Cit**, p 106

[2] - Passerini (Luisa), **« travaux récents sur l'histoire orale en Italie »,** bulletin de l'institut de l'histoire du temps présents n 02, décembre 1980, p 17.

كما اهتمّت جامعتا برلين وميونيخ بالموضوع ذاته أي أوضاع البروليتاريا في عهد أدولف هتلر والفترة التي سبقتها وهي فترة مهمة تكشف عن حيثيات الدور الذي قام به الكادحون في بناء ألمانيا مباشرة بعد الحرب العالمية الأولى ونضالهم النقابي ضد نظام الفهرر[1].

أمّا في بولونيا فإن أولى المبادرات تعود إلى الحرب العالمية الأولى والتي تزعمها خاصّة "زنامسكي " و"شالازنسكي "اللذان إهتمّا بمواضيع متعددة مثل الفلكلور والأغاني الشعبية والحياة اليومية في المجتمع البولوني خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين[2].

أما في فرنسا فقد كانت البدايات الأولى مع تحويل مركز الأرشيفات الكلامية إلى متحف الكلام والحركات منذ 1928 والذي أدّى إلى تأسيس المعهد الوطني للتسجيلات في 1938[3]. في فيفري 1966 ألّف "آلان بريفوست "كتابه "مدينتي"اعتمادا على الاستجوابات والمعلومات الشفاهية المسجّلة وذلك للبحث في موضوع الحياة اليوميّة للمزارعين الفرنسيين وشهد هذا المؤلف نجاحا منقطع النظير وتمت طباعته وتحويله إلى سلسلة روائية أسبوعية تنشرها صحيفة فرنسية تعنى بالقطاع الفلاحي.

تمثّل سنة 1975 سنة الإقلاع في مستوى الاهتمام بالتاريخ الشفوي في فرنسا حيث ركّز مركز الأرشيف والبحوث حول الحماية الاجتماعية بباريس وجامعة إيكس أون بروفونس على التاريخ الشفوي في إجراء عدّة بحوث[4] . في سنة 1978 نظّمت حلقة نقاش في فرنسا تعنى بالتاريخ الشفوي وكانت المبادرة في إلتآمها لمؤسسة البحث حول الإثنيات في فرنسا وحملت عنوان: "ذاكرة فرنسا" أمّا في سنة 1980 فقد وقع تنظيم أوّل لقاء جمع عديد الباحثين والمؤرخين الفرنسيين الذين يعتمدون المصادر الشفوية في مؤلّفاتهم وكان ذلك تحت رعاية معهد تاريخ الزمن الحاضر تلتها جملة من الاجتماعات والايام الدراسية التي تعنى بهذا المبحث.

وكما ذكرنا آنفا فقد مثّلت سنة 1975 بداية إقلاع الإصدارات التاريخية والبحوث المعتمدة على التاريخ الشفوي في فرنسا حيث شهدت هذه الفترة سيلا جارفا من الإصدارات وبرزت "موجة ذكرية إحيائية " كتعبير على خصوصيّات تاريخ فرنسا وتركيبة مجتمعها الأصولية وحيويّة قوى الضغط فيها مما ساهم في صدور قوانين تحاول وضع سياسة ذاكرية وتصدّى رجال الفكر والجامعة باختلاف اختصاصاتهم لتدارس قضيّة الذاكرة وإحياء الذاكرات وواجب الذكرى والحقّ فيها والتأكيد على ضرورة اعتماد التاريخ الشفوي كمصدر أساسي وأساس في كتابة التاريخ مما يفتح الباب على مصرعيه أمام المغيبين ليكونوا فاعلين فيه[5].

أما في الولايات المتحدة الأمريكية فإن التاريخ الشفوي قد برز منذ عشرينات القرن الماضي مع "مدرسة شيكاغو" وباحثي علم الاجتماع لكنّه لم

---

[1] - Laquer (w), **« histoire orale en Allemagne »**, Stuttgart D.U.A, 1983, P 83.

[2] - Pollak (Michel), « **l'expérience concentrationnaire : Essai sur le maintien de l'identité social** », Paris 1990.

[3] - Joutard (Philippe), **Ces voix qui nous viennent du passé... op. Cit**, p 115.

[4] - **Ibid**, p 127.

[5] - الصغير (عميرة علية)، " **مكانة الشهادة الشفوية ..." مرجع ذكر سابقا**، ص 09.

يشهد الشيوع إلا مع إنشاء أوّل مركز يعنى بالبحث حول الشهادات الشفوية في جامعة "كولومبيا"[1] مباشرة إثر الحرب العالمية الثانية وكذلك مع مدرسة شيكاغو التي اعتمدت نظام التسجيلات في بحوثها الاجتماعية حيث قام "سول بيلاو " و"رالف إليس " باستجواب السود في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية حول ذكريات الميز العنصري والعبودية والصعوبات التي عايشوها بين 1935 و 1943 وتم تحويل الاستجوابات إلى كتاب بعنوان:

Voici notre vie- This are Our Lives.

كما ألّف جورج راويتش في سنة 1966 كتابا حول السود في الولايات المتحدة الأمريكية وبالتحديد في واشنطن والذي صدر سنة 1972 وكان يضمّ 19 جزءا بعنوان "(De coucher au lever du soleil: la construction de la communauté noire) وشهد رواجا كبيرا في الولايات المتحدة الأمريكية ثم في العالم[2].

بصفة عامّة فإن الاهتمام بالمصادر الشفوية قد انطلق في البلدان الأنجلوسكسونية بعد الحرب العالمية الثانية واعتمد خاصة في المنهج البيوغرافي والتاريخ الشفوي حيث أنّ هذه البحوث أصبحت تشكل "حركة تصورية تجديدية " متعددة الأقطاب يقدّمها اليوم ما يعرف باليسار الجديد (New left) الذي كان له الدور الأكبر في انطلاق الاعتماد على التاريخ الشفوي كمادة مصدرية أساسية في التأريخ مهتما أيضا بالعمال والكادحين والفقراء والمهمشين والسود وكبار السن الذين تنكرت لهم الأنظمة وتجاهلتهم مدارس التاريخ الكلاسيكية.

أمّا في تونس فان الاهتمام بهذا النوع من المصادر لم ينطلق إلا بصفة متأخرة نسبيّا وذلك عائد أساسا لجملة من الأسباب منها السياسية والأكاديمية والاجتماعية لكن مع حدوث أول تغيير سياسي في البلد اي 07 نوفمبر 1987 وجد هذا التاريخ حظه بفضل جملة من الأساتذة والباحثين.

## الفصل الثالث: بداية اعتماد التاريخ الشفوي في تونس :

يعتبر تاريخ إنشاء المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر (المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية سابقا) في أفريل 1990 تحولا هاما في مسار البحث وكتابة تاريخ الحركة الوطنية. وهو يتكون من أربع وحدات بحث ومن بينها وحدة التاريخ الشفوي والوثائق السمعية البصرية التي سعت منذ نشأتها إلى جمع شهادات كل الفاعلين ومن عاشوا أحداث مقاومة الاستعمار دون اعتبار لانتماءاتهم السياسية والإيديولوجية همها في ذلك الحصول على رصيد متنوع وثري يمكن اعتماده للوصول إلى كتابة تقترب أكثر ما يمكن من الموضوعية كما سعى الباحثون في هذه الوحدة إلى بناء الماضي بالاعتماد على هذا الصنف الجديد من الوثائق. فإلى جانب تاريخ "رسمي" للحركة الوطنية كانت توجد روايات "تحت أرضية" سعى الباحثون إلى النبش والحفر قصد الوصول إليها في نسق سريع وفي سباق مع عجلة الموت إذ أن منابع

[1] - Dominique Aron Schnapper, Danielle hanette, Sophie Deswarte et Dominique Pasquier, **histoire orale ou archive orale, comité de l'histoire de la sécurité sociale**, Paris 1980, p 111.

[2] - Joutard (Philippe), **Ces voix qui nous viennent du passé... op. Cit**, p 77/78/79.

هذه الروايات وصلت إلى فترة من العمر ومن الحالات الصحية التي تجعلها مهددة بالاندثار وخاصة أولئك الذين حملوا السلاح في وجه المستعمر واحتموا بالجبال لمواصلة النضال ضده، أولئك الذين عرفوا "بالفلاقة".

بحكم استئثار بورقيبة بالمشهد الزعاماتي في تونس منذ 1956 أو حتّى قبل ذلك إلى حدود سنة 1987 ونظرا لطغيان صورته على المشهد الإعلامي من كل النواحي، فقد ظلّ هو الفاعل الوحيد تقريبا في تاريخ الحركة الوطنية وتونس بصفة عامة وهو المرجع الأساسي لها كما مثّلت خطاباته المرجعية الأساسية للتاريخ الرسمي للبلاد التونسية تروّجها الدعاية الحزبية والجمعيات والإعلام المسموع والمرئي والمقروء والتعليم الذي مثّل بوق دعاية للحزب الاشتراكي الدستوري ولزعيمه بورقيبة فحوّل هذا الإعلام الموجّه خطب " الزعيم " وشهاداته إلى نصوص مكتوبة ومرجع أساسي للتاريخ الرسمي للحزب والحركة الوطنيّة فكان بورقيبة الشجرة التي تخفي الغابة من باقية الفاعلين في المشهد السياسي وحتى النقابي والجمعياتي والثقافي في تونس.

يتجلّى استئثار بورقيبة بالشهادات التي اعتبرت المرجع الرسمي لتاريخ الحركة الوطنية في تونس والتي قدّمته على أساس أنّه "الزعيم الأوحد" و "المجاهد الأكبر" و"الرئيس الخالد " فيما أنتجه الحزب ونشرته دار العمل تحت إشراف مُحَمَّد الصياح الذي استعمل خطابات بورقيبة لتوثيق تاريخ الحركة الوطنية خاصّة في سلسلة الحركة الوطنيّة وذلك في عشرين جزء. كل ذلك يمكن تفسيره بأن التاريخ يكتبه دائما المنتصرون الذين يغيّبون ويهمّشون بقيّة الفاعلين بغاية إعطاء المشروعية لحكمهم لذلك فقد تحوّل بورقيبة من خلال كتاباته أو خطاباته إلى مؤرّخ يروي تاريخ الحركة الوطنية من منظاره الخاص ووفق وجهة نظره الشخصيّة وحسب ما يرضيه ويرضي كاريزماه وحزبه وتوجّهاته وحتّى عائلته وبطانته وتمشيّه الخاص في البلاد[1].

لذلك ظلّت شهاداته المكتوبة تمثّل المصدر المعتمد أساسا في كتابة تاريخ الحركة الوطنيّة من قبل الباحثين إلى حدود أخذ مبادرة من قبل الأديب والشاعر مُحَمَّد المرزوقي الذي اعتمد الشهادات الشفوية في كتابة بعض مؤلّفاته وانزاح بذلك عن التاريخ التمجيدي الفخري لبورقيبة من خلال بعض أعماله التي يمكن أن نذكر منها : الدغباجي حياته وأعماله (1969)، الشعر الشعبي والانتفاضات التحريرية (1971)، صراع مع الحماية (1973)، دماء على الحدود (1975) وثورة المرازيق (1979) بمعيّة علي المرزوقي وهي في الحقيقة مؤلفات كانت رائدة في اعتماد الشهادات الشفوية في كتابة تاريخ الحركة الوطنية وصفحات من نضالات المنسيين والمغيبين في تاريخ المقاومة التونسيّة للاستعمار[2] رغم أنها لم تكن من قبل رجل مختص في التاريخ.

ما يمكن أن نلاحظه هو أن المبادرة الأولى في مجال التأريخ الشفوي لم تكن للمؤرخين باعتبار أن المرزوقي كان شاعرا وأديبا حيث جاءت أوّل إثارة لموضوع الشهادات الشفويّة في تونس من خلال ما يسمّى "البرنامج الوطني للبحث" سنة 1978 الذي

[1] - بورقيبة (الحبيب)، **حياتي، آرائي، جهادي**، سلسلة المحاضرات التي ألقاها بورقيبة أمام معهد الصحافة وعلوم الإخبار حول تاريخ الحركة الوطنية، ص 246.

[2] - الصغير (عميرة علية)، " مكانة الشهادة الشفوية ..." مرجع ذكر سابقا، ص 95.

تمّت الإشارة فيه إلى ضرورة كتابة تاريخ الحركة الوطنيّة التونسية من خلال اعتماد وثائق جديدة من بينها الوثائق الشفوية[1] لكن خلال الندوتين الأولى والثانية لتاريخ الحركة الوطنية لم يقع الإجماع على أهمية الشهادة الشفوية أو ضرورتها في تدارس جوانب من تاريخ الكفاح الوطني أو على الأقل الخروج بمذكّرة تعطي أهمية للشهادات الشفوية[2].

كيف نفسّر هذا "الاهمال" من قبل المؤرّخين والأكاديميين في تونس لمكانة الشهادة الشفوية؟

ربّما ذلك عائد إلى أن التاريخ الرسمي وإلى حدود تلك الفترة 1983 لازال تاريخ زعامات أو زعامة واحدة ربّما أيضا لأن البحوث التاريخية في تلك الفترة مازالت لم تقتحم مجال النضالات والحركات الاجتماعية والشعبية (التجمّعات، المظاهرات، صدامات الشوارع، المقاومة السرّية والشعبيّة، الإضرابات ...) والتي تفترض بالذات شهادة الفاعلين فيها ولعلّها ردّة فعل لفئة من المؤرخين التي يمكن أن نضعها ضمن شريحة البرجوازية الوسطى التي لا تتماهى ولا تستسيغ غير الخطاب المكتوب وتهمّش شهادة الفاعلين الأقل أهمية في الأحداث وربما أيضا لتبعية مؤرخي تلك الفترة للمدرسة الوضعية الفرنسية وولائهم المنهجي المرتكز على طغيان الوثيقة المكتوبة وتهميش المصدر الشفوي[3].

لكن خلال أواخر ثمانينات القرن الماضي وبداية التسعينات سجلنا تغييرا في توجّه المؤرخين والباحثين الأكاديميين في تونس نحو إدماج أكثر للوثيقة الشفوية في البحوث والكتابات التاريخية وذلك ربما عائد لأمور سياسيّة خاصة مع التغيير السياسي الذي شهدته تونس بعد 07/نوفمبر/1987 مما خلّص بعض المؤرخين من الرقابة الذاتية أو من الضّغط المسلّط عليهم فتعددت بذلك المذكّرات من قبل الفاعلين في تاريخ الحركة الوطنية الذين رفع عليهم الحرج والضّغط المسلّط نتيجة تراجع دور بورقيبة في البلاد والذي كان يمنعهم من الحفر في التاريخ الرسمي الذي يؤدي بالضرورة إلى التشكيك في هذا التاريخ، أو ربّما أيضا لأمور علمية تمثّلت خاصّة في تغيير إيجابي لنظرة المؤرخين تجاه الشهادات الشفوّية لعدّة اعتبارات منها اقتراب مجالات البحث الجديدة من الواقع ورغبة بعض الأطراف في حفظ الذاكرة والمصالحة الوطنية وتفادي الإقصاء أو التهميش والتغييب عند كتابة تاريخ الحركة الوطنية كما هو الأمر في العالم دون أن ننسى خاصّة بعث المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية وإرساء "وحدة التاريخ الشفوي والتوثيق السمعي البصري" داخل هياكل هذا المعهد والذي يترجم هذا التوجّه بالإضافة لتأثيرات المدرسة التاريخية الفرنسية التي أضحى التاريخ الشفوي والشهادة الشفوية فيها موضوعا للنقاش العام ولا تخفى التبعية النفسية لبعض المؤرخين التونسيين ذوي التكوين الأكاديمي الفرنسي خاصّة لما يحدث في فرنسا والذي أفرز عدّة

---

[1] - Programme national du recherche (PNR), **histoire du mouvement national : réaction à l' occupation française de la Tunisie en 1881**, Actes du 1ére séminaire du l'histoire du mouvement national ; 29/ 30/ 31 mai 1981.

[2] - ذويب (مُحَمَّد)، **الفلاقة واليوسفية من خلال المصادر الشفوية... نفس المرجع**، ص 32.

[3] - الصغير (عميرة علية)، **" مكانة الشهادة الشفوية ..." مرجع ذكر سابقا**، ص 05/ 19.

ندوات مشتركة بين جامعات تونسية وأخرى فرنسيّة [1].

شهدت فترة نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي جملة من الإصدارات المنجزة اعتمادا على الشهادات الشفوية والتي تناولت بالبحث مواضيع متنوّعة طرقت جوانب جديدة في التاريخ مثل: موضوع المرأة الذي شهد مجموعة من المؤلفات التي يمكن أن نذكر منها خاصّة:

- عبد الكريم المنّاعي : التونسيون وقضية التعليم الابتدائي للبنت المسلمة 1881-1956 المنجز سنة 1999.
- لطيفة المصباحي : النضال النسائي بالبلاد التونسية 1945-1956 المنجز سنة 2003.

اضافة الى بعض المواضيع الأخرى مثل موضوع المقاومة المسلحة والحركة اليوسفية نذكر مثلا مؤلفات كل من :

- عروسيّة التركي : المقاومة المسلحة بجهة الأعراض (1952-1954) المنجز سنة 1989.
- عروسية التركي : الحركة اليوسفية بالجنوب التونسي (1955-1956) المنجز سنة 1996.
- عبد الحميد الهلالي : تاريخ جهة جندوبة (1881-1956) علاقة الحركة الوطنية بالأرياف المنجز سنة 2000.
- مُحَمَّد المختار النّاصري : المقاومة المسلحة وإشكالياتها (1952-1956) المنجز سنة 2000.
- محسن الخميري : الحركة اليوسفية مجالها وحدودها (1955-1961) المنجز سنة 2004.
- عميرة علية الصغّير : اليوسفيون وتحرر المغرب العربي المنجز سنة 2007.
- مُحَمَّد ذويب، الفلاقة واليوسفية من خلال المصادر الشفوية سنة 2017.

وموضوع التاريخ الاجتماعي :

- كمال جرفال : الجاليات الأوروبية في ظلّ الاستعمار الفرنسي في مدينة تونس 1881-1939 المنجز سنة 2000.

هذه المواضيع وغيرها لم تبرز إلا أواخر الثمانينات وذلك عائد ربّما إلى أنها كانت تمثّل نوعا من المحرّمات لم يقع الخوض فيها في عهد بورقيبة مثل خاصّة موضوع اليوسفية وهذا يدعّم ما قلناه سابقا من أنّ الباحثين في تاريخ الحركة الوطنية رفعوا الاحتراز عن الشهادة الشفوية رغم ما يصدّرون به بحوثهم من الدعوة إلى ضرورة ملازمة "الحذر" و"التوقي" والاحتياط" عند التعامل مع هذا النوع من المصادر وكأنّ المصادر الأخرى لا تستوجب اليقظة من الباحث[2].

من الدلائل الأخرى على بداية اقتناع المؤرخين والأكاديميين التونسيين بجدوى استعمال الشهادات الشفوية في كتابة التاريخ انعقاد عدّة ندوات ومحاضرات خاصّة تلك التي ينظّمها المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية[3] وتقديم بعض الكتب المؤلّفة

[1] - الندوة التي انعقدت بتونس يومي 10 و11 ماي 1996 بين جامعة تونس وجامعة ريمس الفرنسية.

[2] - الصغير (عميرة علية) ، " **مكانة الشهادة الشفوية ..." مرجع ذكر سابقا**، ص 15- 25.

[3] - يوم دراسي موضوعه: **دور الشهادات الشفوية في الكتابة التاريخية**، 11 جانفي 2008، المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر.

اعتمادا على الشهادات الشفوية[1] دون أن نغفل أيضا عمليات تسجيل مجموعة من المناضلين والفاعلين في تاريخ تونس والتي يقوم بها منذ مدّة مجموعة من الأساتذة والباحثين بالمعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية مثل الأستاذ حبيب الكزدغلي ثم الأستاذ بشير اليازيدي والأستاذ فتحي ليسير كل هذا المجهود المبذول من هؤلاء الأساتذة وغيرهم ساهم في ارتفاع عدد التسجيلات بالمعهد ووفّر مادّة دسمة للبحث.

رغم فتح بعض الثغرات هنا وهناك فإنّ التاريخ الشفوي مازال يمثّل مجال بحث متنازع فيه ومثيرا للجدل الأمر الذي يستوجب مقارنة التجارب وإنجاز المشاريع المشتركة من ذلك أنّ أعضاء وحدة البحث في التاريخ الشفوي بالمعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية قد أشرفوا خلال السنة الدراسية 1992-1993 على تنظيم ندوة حول منهجية التاريخ الشفوي وأثناء الجلسات السبع الملتئمة خلال هذه الندوة تناول الكلمة العديد من الباحثين الذين ركزوا أشغالهم على الطريقة الشفاهية المعتمدة في تمشيهم وطرق عملهم كما أكدوا على ضرورة ايلاء هذا النوع من المصادر الأهمية التي يستحق.

تخللت هذه الندوة مجموعة من المحاضرات مثل محاضرة " لوسات فلنزي " الباحثة في المدرسة العليا للدّراسات الاجتماعية بباريس ومحاضرة الأستاذة "لاكوست دي جوردان" من المعهد القومي الفرنسي للبحث العلمي ومداخلة الباحثات: "ليليا لعبيدي"، "جميلة بينوس"، "دلندة لرقش" وكذلك "قمر بن دانة كشير" وأسفرت هذه الندوة عن الاتفاق على دراسة هذه التجارب الفردية المختلفة وتطوير مجالات البحث عبر برمجة جملة من الندوات واللقاءات والأيام الدراسية.

إثر ذلك انتظم لقاء بتونس العاصمة يوم 3 و4 مارس 1995 ووقع خلاله تدارس موضوع مضبوط وهو "التاريخ الشفوي وتاريخ النساء في المغرب العربي" وقد ساهم مجموعة من الباحثين المغاربة والفرنسيين في هذه المائدة المستديرة التي انعقدت بالمعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية ومركز البحوث والدراسات والتوثيق حول المرأة وكلية الآداب والفنون والانسانيات بمنوبة والمدرسة العليا للدراسات الاجتماعية بباريس وتمّ الإتفاق على إنجاز مشروع بحث مشترك بعنوان "نساء وذاكرة: تونسيات في الحياة العامّة 1920-1960" وذلك بمقتضى اتفاقية مبرمة بين المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية والكريديف وقد نتج عن هذه التجربة التي جمعت عددا كبيرا من الباحثين من اختصاصات مختلفة والمهتمين خاصّة بموضوع النساء نشر كتاب باللغتين العربية والفرنسية[2] وقد شجّع نجاح هذه المبادرة وما حظيت به من صدى طيّب سوى في وسائل الإعلام أو لدى مجموعة الباحثين على مواصلة المشروع مع نساء تونسيات من داخل البلاد مما نتج عنه صدور الجزء الثاني من الكتاب سنة 1996.

على صعيد آخر اقترح المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية ومركز "البحوث حول السلم والحرب" التابع لجامعة ريمس الفرنسية إعداد برنامج بحث بعنوان "التاريخ الشفوي والعلاقات التونسية

[1]- محاضرة الأستاذ فتحي العايدي بعنوان: " **معركة جبل برقو من خلال المصادر الشفوية**" العهد العالي لتاريخ تونس المعاصر، 18 نوفمبر 2009.

[2]- كتاب: " **نساء وذاكرة: تونسيات في الحياة العامة 1920-1960**" جاء في 300 صفحة تضم 13 قصة حياة نساء تونسيات برزن في مجالات مختلفة من الحياة العامة.

الفرنسية بين 1945-1962 الكلمة للشهود" ويرأس هذا المشروع كل من الأستاذين عمّار المحجوبي من المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية وموريس فايس من جامعة ريمس ومدير مركز "البحث حول السلم والحرب" والذي انعقد فيما بعد وتمّ نشر أعمال هذا البرنامج.

كما تواصل وحدة التاريخ الشفوي بالمعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية منذ تأسيسها ربط علاقات جديدة مع مجموعة من المؤسسات الأجنبية لمزيد تبادل التجارب والخبرات اضافة الى قيام أساتذة المعهد بدور كبير في جمع الشهادات التي تتزايد يومنا بعد يوم وتعطي الفرصة لمن همشهم المؤرخون لإعطاء رأيهم كما تعطي الفرصة للباحثين للحصول على مادة مصدرية مهمّة تساعدهم في أعمالهم وبحوثهم ودراساتهم.

## الفصل الرابع: التاريخ الشفوي: مزاياه وحدوده:

يولي المؤرخون اليوم وخاصّة مؤرّخو التاريخ المعاصر اهتماما مطّردا بموضوع المصادر الشفوية وطرق توظيفها في كتاباتهم لأنّ الشهادات الشفوية تمنح الباحث عناصر قيمة وتسمح له بإثراء بحثه وتصحيحه الذي قد يشكو من ندرة المصادر وعدم تنوّعها مما يعرّض المؤرخ لعدة ثغرات لا يستطيع غير التاريخ الشفوي سدّها[1].

فهل أنّ الشهادات الشفوية تمثل بديلا عن المصادر المكتوبة؟ أم أنّها ليست إلا مصدرا مكملا لغيرها من المصادر؟

تعتبر الشهادات الشفوية مادّة ضرورية في مجتمعات يحتل فيها الشفوي القسط الأكبر في حفظ الذاكرة الخاصّة والعامّة[2] ويمثّل الأميون الأغلبية الساحقة، وأن كان بعض هؤلاء الأميين من الفاعلين المباشرين في التاريخ وذلك شأن المجتمع التونسي زمن الاستعمار أو حتّى في بدايات ما سمّي ببناء الدولة الوطنية بعد 1956 كما هو الشأن أيضا في مجتمعات العالم الثالث في تلك الفترة التي لم تشهد تعميم التعليم الذي لم يكن في متناول الجميع وأقتصر على بعض الأفراد.

يمثّل التاريخ الشفوي إذا فرصة مهمة لعديد الشاهدين لكي يبدو آرائهم فيما يخصّ التاريخ الذي عاشوه من جهة أخرى فهو يعطي المهمشين فرصة لدخول التاريخ والتعبير عن آرائهم في عديد المسائل فالمصادر الشفوية تعدّ منجما حقيقيا وأصيلا يهمّ عديد المباحث نادرة الوجود لا يمكن الحصول عليها إلا بالمشافهة ومع هذا التاريخ يمكن للجميع إبداء آرائهم مما يمكّن من إعطاء إضافات أخرى وهو يمثّل تاريخ من لا تاريخ لهم أولئك الذين غيّبهم التاريخ الرسمي الذين لم يأخذوا حظا يليق بما قدّموه للتاريخ في المصادر الأرشيفية.

فالتاريخ الشفوي إذا يمنح فرصة لمن لا قدرة له على البروز في صيرورة التاريخ العام كما يمثّل تاريخ القاعدة الذي همشه تاريخ القادة الذين سطو على التاريخ وحوّلوه إلى تاريخ مصادر ووظّفوه وفق ما يخدم أجنداتهم السياسية الأيدولوجية والحزبية الفئوية الضيقة. فهذا التاريخ المجهري هو تاريخ ثوري اعتمدته خاصة جامعة "كولومبيا" بالولايات المتحدة الأمريكية

[1] - منصر (عدنان)، " **اليوسفية من خلال المصادر الشفوية**" دراسة في الخطاب، مجلة روافد عدد 02/ 1996، المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر، ص 99- 114.

[2] - الصغير (عميرة علية)، " **مكانة الشهادة الشفوية ..." مرجع ذكر سابقا**، ص 09- 15.

والمدرسة الجرمانية التي تعتمد كتابة التاريخ من الأسفل[1].

فمن بين الخصائص الأخرى التي تميز التاريخ الشفوي عن بقية المصادر التاريخية أنه يعطي الفرصة للجميع لدخول التاريخ وهذا يدخل في إطار دمقرطة التاريخ كما أنه يساهم في إخراج المؤرخ من استبداد الوثيقة ويمثّل ثورة حقيقية في مجالي التاريخ والتأريخ وفي هذا السيّاق يقول "رفاييل صموئيل": "التاريخ الشفوي هو نزوع إلى شكل جديد من التطبيق الديمقراطي للتاريخ وهو مفتوح للجميع حيث أنه يخرج الباحث من الانعزال داخل المكتبات والبحوث ويشجّعه على الاحتكاك بالشارع ويخلّصه من التنافس الشديد مع المصادر الأرشيفية ويمنحه فرصة للتواصل مع عمله ومعايشة موضوع بحثه ... كما أنّه يخلّص الباحث من سجنه المنعزل ويجعله الناطق الرسمي باسم الشعب وصوت تجاربه الماضية"[2] .

من جهة أخرى فإنّ التاريخ الشفوي هو تاريخ من عاشوا الأحداث والتجارب وبالتالي فإنّ شهادتهم تمثّل مادّة خام يندر وجودها في المصادر الأخرى بما أنّ المتحدث يكون مباشرا للأحداث ومعايشا لها وهو بالتالي يمثّل مادّة هامّة يشتغل عليها المؤرخ وفي ذلك يقول "جاك لوقوف" :" إنّ شهادة من عايشوا الأحداث لهي أجمل مادّة يشتغل عليها المؤرخ"[3]، فالتاريخ الشفوي هو وسيلة وطريقة لكتابة التاريخ من الأسفل تاريخ الناس الذين عايشوا التجربة وحرموا من التعبير عنها وحفظها وهو التاريخ الذي يمكّن المؤرخ من التواصل مع محيطه[4].

إذا مع التاريخ الشفوي بات ممكنا للعديد من الشاهدين أن يتكلّموا ويدلوا بدلوهم وهو مصدر ضروري لكتابة التاريخ لأن الشهادة التاريخية هي المرآة العاكسة لتجربة الشاهد ولدوره في الفعل التاريخي بحكم موقعه من الحدث كفاعل رئيسي أو ثانوي أو حتى استثنائي فمثلا في تاريخ تونس المعاصر هناك عدة بديهيات تلزم اللجوء لهذا النوع من المصادر وهي أساسا[5]:

- إنّ تاريخ المقاومة في تونس وفي المغرب العربي بصفة عامة كان تاريخ مقاومين أميين بالأساس لم يتركوا وثائق مكتوبة أو مدوّنة والتي وإن وجدت فهي نادرة.
- إنّ حركات المقاومة كانت مجبرة على اعتماد المشافهة لصدور الأوامر مثلا أو لتنظيم العمليات أو التزوّد بالمؤن والأسلحة والربط والتنسيق مع القوى السياسية والقادة وذلك نتيجة لظروف التتبّع والرقابة التي كانت مفروضة عليها من أعدائها.

---

[1] - مداخلة الأستاذ خالد عبيد خلال اليوم الدراسي المنعقد بالمعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر بعنوان" **دور الشهادات الشفوية في كتابة تاريخ الحركة الوطنية"**، 11 جانفي 2008.

[2] - Samuel (Raphael), **l'histoire orale en grande Bretagne**, bulletin du centre de recherche sur la civilisation de l'écomusée du Creusot, octobre-novembre 1977, p 26.

[3] - Le Goff (Jacques), **Histoire et mémoires... Ibid**, p 409

[4] - **Oral history expièrent**, volume 5 et 6, p1.

[5] - الصغير (عميرة علية) ، " **مكانة الشهادة الشفوية ..." مرجع ذكر سابقا**، ص9 - 25.

- إنّ المقاومة هي شأن أولئك الأميين أساسا ولا أرشيف يؤرّخ لكفاحهم إلاّ ما تختزنه ذاكرتهم وذاكرة من عاصرهم.

- إنّ المصادر في تونس هي أساسا مصادر "الأعداء أو الخصوم " لأولئك المقاومين مثل الجيش الفرنسي أو الإدارة الفرنسية وأعوانها من فرنسيين وحتى تونسيين وإن كانت ضرورية فهي بداهة غير كافية وفاقدة للجانب الحيادي الموضوعي ومنحازة لفرنسا وأعوانها.

- إنّ الشهادة الشفوية هيّ وحدها القادرة على اطلاعنا على جوانب هامة من حياة الفاعلين في التاريخ ولا يمكن أن نجدها في نصّ مكتوب وذلك شأن التجربة المعاشة والواقع النفسي للشاهد مثل حالات الخوف والتردد والإقدام ودوافع الانخراط والشعور بالخيبة والإحباط والنصر وكذلك خفايا العلاقات بين المقاومين.

ما يمكن ملاحظته إذا هو أنّ التاريخ الشفوي منجم هام يمنحنا معطيات ومعلومات جديدة لا يمكن أن تعطينا إيّاها المصادر الأخرى لكن هل أنّ التاريخ الشفوي وحده كافيا للحسم في جميع الأمور والمسائل؟

هناك بعض المواقف التي ترى أنّ الاقتصار على التاريخ الشفوي فقط لا يمكّن من الحسم في جميع المسائل بل أنه يخلق عدّة ثغرات ويؤدّي إلى عدّة منزلقات كما أنّ بعض المواقف الأخرى ترى أنّ اعتماد المصادر الشفوية ممكن مع ضرورة توخي الحذر لأنّ التعامل مع هذه المصادر " غير العادية " قد يسبب عدّة مغالطات[1].

بصفة عامة يمكن التأكيد على أنّ الشهادة الشفوية مهمّة في كتابة التاريخ وقد تساعدنا على حسم عدّة أمور ولكن لا يمكن الاقتصار عليها فقط لأنّ ذلك قد يجرّنا إلى عدّة أخطاء خطيرة قد تؤدي إلى التزوير فهي قد تكون حاسمة في عديد المسائل لكن شريطة توفّر ظروف عمل معيّنة يجب على الباحث الالتزام بها وذلك بتطبيق تقنيات تعامل معيّنة مع هذا النوع من المصادر شأنها في ذلك شأن التعامل مع أيّ وثيقة أخرى كالقيام بمقارنتها بالشهادات والمصادر الأخرى وإعادتها إلى إطارها المكاني والزماني والحدثي والنفسي مع ضرورة التزام الحياد المطلق تجاه الشاهد وتجاه الوقائع وأطراف الصراع[2] لذلك فعلى الباحث توخي الحذر عند التعامل مع المصادر الشفوية وضرورة التحرّي عند تحويل الشفوي إلى مكتوب واعتماد الأمانة في نقل العبارات واللغة التي يستعملها الشاهد وعدم إهمال الانفعالات التي تطرأ على وجوه المتحدثين كالبكاء والشهيق والتنهّد والتي لا يمكن تحويلها إلى مكتوب مع ضرورة الإلمام إلماما تامّا بموضوع محاورة الشاهد واتخاذ موقف محايد عند صياغة وتوجيه الأسئلة مع الأخذ بعين الاعتبار التعابير المستعملة ونبرة الصوت وتقاسيم الوجه وترك حرية التعبير للمتحدث وعدم مقاطعته ومحاولة التأثير عليه وتجنّب الأسئلة الموجّهة.

بالإضافة إلى كل هذا يجب توفر جملة من الشروط الفنية والمادية واللوجستية : كحضور آلة التسجيل وعدم ترهيب الشاهد والتحرّي عند تحويل

---

[1] - بن حميدة (عبد السلام)، " **بعض المشاكل التي يطرحها تاريخ العلاقات بين الحركة النقابية والحركة الوطنية (1944- 1956)**"، أعمال ندوة البرنامج القومي للبحث في تاريخ الحركة الوطنية" أيام 27-28-29 ماي 1983، بتونس، ص 189- 208.

[2] - الصغير (عميرة علية)، " **مكانة الشهادة الشفوية ..." مرجع ذكر سابقا**، ص 9- 25.

الشفوي إلى مكتوب واعتماد الأمانة عند نقل نفس العبارات واللغة المستعملة للشاهد واحترام نسق الصوت كفواصل التوقف والصمت والتردد لأنّ عملية تسجيل ونقل الشهادة الشفوية من العاميّة إلى الفصحى المكتوبة تطرح عدّة إشكالات لأنّ عديد المصطلحات المستعملة في اللغة العامية لها من الشحنة والمعنى الذي قد لا نجد ما يرادفه بالفصحى ثمّ أن ما يتخلّل الشهادة من الصمت أو التردد وعلوّ الصوت وانخفاضه أو الآهات والضحك وتلوّنات وقسمات الوجه وعملية البكاء الملازمة للحديث يصعب تحويلها إلى نص مكتوب لذا يجب الاحتراز عند نقل الشهادة الشفوية إلى نص مكتوب لذلك فإنّ استغلالها والاشتغال عليها كما سجلت أوفى لروح الشهادة وأصدق في التعامل مع الشاهد وأكثر مردودية للباحث.

كما يجب على المستجوب أن يحدّد أولا أهداف بحثه والغايات من مسائلة الشاهد وأن يكون ملمّا إلماما كاملا بموضوع المحاورة وأن يلتزم باتخاذ موقف محايد ليس فقط عند صياغة الأسئلة بل حتّى في تعابير وجهه ونبرة صوته وكل هذا يمكن من إنتاج مادة مصدرية مهمّة مع الوعي بنسبيّة وذاتية صاحبها[1].

ممّا نخلص إليه هو أنّ هذا التاريخ قد يمثل لوحده تاريخا مستقلّا متى وقع التزام النزاهة والحياد والحرفية التصرف معه بنوع من الحذر والحيطة وضرورة النظر إلى هذا النوع من المصادر بعين فاحصة لأنّ التغافل قد يؤدي بنا إلى عدة منزلقات تزوّر التاريخ.

الشهادات الشفوية ركيزة أساسية في كتابة التاريخ تساهم في مزيد تثبيت الحقيقة وكشفها شريطة توخي الحيطة والحذر والالتزام والحياد وحسن التعامل مع هذه المصادر الهامة التي استفادت من الثورة التكنولوجية التي يشهدها العالم مما سيسمح لها مستقبلا بتبوؤ المكانة التي تستحق وسط بقية المصادر.

[1] - الصغير (عميرة علية)، " **مكانة الشهادة الشفوية ..." مرجع ذكر سابقا**، ص 9- 25.

# تنوع معاهدات الصلح في الفتوح الإسلامية

أ. إدريس عبد النبي الجوير
كلية السياحة والآثار / جامعة عمر المختار ليبيا

**ملخص البحث:**

يهدف هذا البحث في تاريخ الفتوح الإسلامية، الى تحديد أنواع معاهدات الصلح المبرمة مع غير المسلمين، وكيفية تخطيطها أثناء إدارة الفتوحات لنشر الدين الإسلامي حيث ركز الباحث من خلال القيام بهذه الورقة العلمية ،على ما إذا كانت طبيعة تلك المعاهدات مرتبطة بعوامل نفعية كبديل عن المواجهات المسلحة.

ومن الجدير بالذكر مرور الإمبراطورية الإسلامية بمراحل تاريخية، أنتجت معاهدات سلام مختلفة، ومن هذا المنطلق اعتمد الباحث على المصادر والمراجع التاريخية في جمع البيانات ، واعتمد كذلك على المنهج الوصفي التحليلي، حيث خلص في النهاية إلى أن العوامل الاقتصادية والسياسية كانت تمثل المؤثر الأساس في اختيار نوع معاهدة الصلح في كل بلد، ما يعطي تلك المعاهدات صفة العمل المنهجي والاداري المنظم، كما ويوصي الباحث بمزيد من الدراسات لاكتشاف المزيد حول هذا الموضوع.

**الكلمات الدالة :** الفتوحات الاسلامية. أنواع معاهدات الصلح الاسلامي. عقد الذمة. إدارة المعاهدات الاسلامية. الجزية على غير المسلمين.

**Abstract**

The aim of this research about Islamic conquests is to specify the types of Islamic peace treaties with non-Muslims to spread Islam worldwide, and how they were planned while managing conquests as an alternative for taking a military action. It must be said that the Islamic Empire went through different eras producing different types of peace charters. The author focused on the nature of selecting a certain peace treaty and if beneficial motives had a direct impact on each non-Muslim country. Islamic books and references were the main source for collecting the required data with using analytical and disruptive research methodology. The author finally concluded that economic and political factors gave the Islamic peace treaties the characteristic of systematic and organized work and the author finally believe that more studies are still needed to discover more about this topic.

**Keywords**: Islamic conquests, types of Islamic reconciliations, pledge of allegiance, managing Islamic treaties, Islamic tax for non-Muslims.

**المقدمة**

تنوعت معاهدات الصلح الإسلامية باختلاف رقعة الفتوح ، كما تعدد النوع فيها بتعدد الاستحقاقات الناتجة عن كل حالة صلح .

لم يلتزم الفاتحون بنوع واحد من المعاهدات ، فعقدوا الذمة لشعوب ، وهادنوا أخرى كما فرضوا في مواطن حالات من الصلح المشروط ، سواء على قيم مالية ، أو على أشياء محددة ، وحقيقة هذا التنوع يستشف منها أن ثمة استراتيجية ثابتة تحدد الخيارات في نوع المعاهدات ،لا إرجاعها فقط إلى الخيارات الميدانية في الفتح .

**ترتكز مشكلة البحث** حول تلك التعددية في أنواع المعاهدات ، وحول العوامل المتحكمة في تحديد نوع كل منها ، فهل كان تنوع المعاهدات يرجع للتخطيط المسبق في الفتوح وفق استراتيجية تجعل من تلك العوامل الأساس في اختيار نوع المعاهدة بصرف النظر عن السياق العسكري في الفتوح ؟

**تكمن أهمية الدراسة** في إظهار أن الفتوح الإسلامية لم تكن مجرد حالة تحددها المعطيات العسكرية ، وإنما هي عملية تنظيمية ممنهجة قائمة على التخطيط المسبق ، وتخضع لاستراتيجيات ثابتة ، كما أن ربط النوع في معاهدات الصلح بعوامل محددة يبرز أن تحديد نوع المعاهدة في كل منطقة ، هو تحديد مسبق حتى قبل التفكير في فتح تلك المنطقة ، ما يعني أن عملية الفتوح في المجمل هي عملية قائمة على التخطيط ، وليست مجرد عملية عشوائية .

**تتبع هذه الدراسة المنهج التحليلي والمقارن** وذلك من خلال سرد أحداث الفتوح وتحليل النصوص من ناحية ، ومن ناحية أخرى مقارنة حالات الصلح وتحديد المشتركات فيها من خلال ربط النوع بالجغرافيا السياسية والاقتصادية .

**يتوزع البحث في ثلاثة محاور وذلك على النحو الآتي:**

أولا: تحديد في أنواع المعاهدات

ثانيا: أثر العوامل الاقتصادية في أنواع المعاهدات .

ثالثا: أثر العوامل السياسية في أنواع المعاهدات.

**تحديد في أنواع المعاهدات** :

واكبت عملية الفتوح الإسلامية إبرام العديد من معاهدات الصلح، فلم تكن الفتوح بالمجمل عملية عسكرية، وإنما فتحت العديد من البلاد صلحا، وقد تنوعت حالات الصلح تلك ما بين عقد الذمة، وبين حالات الصلح المشروط ، وفي مواضع أخرى عقد المسلمون حالات هدنة ، وفي المجمل تندرج كل تلك الحالات تحت مفهوم المعاهدة .

**المعاهدة لغة واصطلاحا:** العهد هو كل ما عوهد الله عليه ، وهو كل ما بين العباد من مواثيق ، وقد سمي اليهود والنصارى أهل العهد للذمة التي أعطوها والعهدة المشترطة عليهم ولهم [1] ، والمعاهدات هي الاتفاقات التي تعقد بين الجماعات والتي تفرض بموجبها التزامات محددة بوقت معين ، كما تذكر فيها القواعد والشروط ، والمعاهدات هي أصل عام مشروع في الإسلام حتى مع المشركين ، تنظيما للعلاقة بينهم وبين المسلمين [2] .

---

[1] ابن منظور : أبي الفضل جمال الدين ، لسان العرب ( بيروت : دار صادر ، د-ت ) مج 3 ، ص 311 .

[2] -كريم : بهجة علي محمد ، صياغة معاهدات الصلح بين المسلمين وسكان المدن المفتوحة في بلاد فارس ، أطروحة دكتوراه ، كلية التربية للبنات ، جامعة بغداد ، 2009 ، ص 77 .

وقد استمدت المعاهدات الإسلامية مشروعيتها من القرآن الكريم ، فقد أنزلت العديد من الآيات التي تؤكد ذلك ، منها قول الله تعالى " ***وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ثم لا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها*** " [1] وقوله تعالى " ***وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا*** " [2] كما حددت المواثيق في قوله " ***وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير*** " [3] ، كما حذر الله تعالى من نقض العهود في قوله : " ***الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون*** " [4] .

تعددت حالات المعاهدات التي أبرمها المسلمون أثناء الفتوحات ، واختلف النوع فيها باختلاف الأهداف والغايات عند المسلمين ، ويمكن إدراج النوع في المعاهدات وفق الآتي :

**1 – العهد والهدنة :**

وهي حالة صلح قد تكون مؤقتة يعقدها المسلمون مع المشركين ، وقد فعل الرسول ذلك مع المشركين في صلح الحديبية : " ***هادنت قريش رسول الله وصالحته على سنين اربع*** " [5] ، وحالة العهد المقترن بتحديد زمني هي حالة ملزمة من حيث الوفاء في إطار الزمن المتفق عليه بموجب ذلك العهد ، كما جاء عن النبي الكريم : " ***من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحل عقده حتى ينبذ إليهم على سواء*** " [6] وقد تأتي الهدنة في دلالة منفصلة عن العهد ، وذلك كما حدث في صلح النوبة ، ويستدل على ذلك من قول البلاذري : " ***ليس بيننا وبين الاساود عهد ولا ميثاق إنما هي هدنة بيننا وبينهم*** "[7] كما أن العهد في أحيان لا يفرض التزامات العقد في الذمة ، ويستدل على ذلك من قول : " ***لا يباع أرض دون الجبل إلا أرض بني صلوبا وأرض الحيرة فإن لهم عهد ... كنا نسمع أن مادون الجبل فيئ وما وراءه صلح*** " [8]

**2 – الصلح على شيء :**

وقد يأتي منفردا على شيء معين يقدم للمسلمين ، كما حدث في صلح بصرى قبل فرض الجزية عليهم ،عندما صولحوا على طعام وخل وشئ يتبع المسلمون لمشتاهم [9] وحالة الصلح على شيء محدد لها مثل في فتح إفريقية ، فبعد هزيمة الروم في معركة سبيطلة لجأ عدد منهم إلى الحصون والمعاقل ثم طلبوا الصلح من عبد الله بن أبي السرح على أن يخرج من بلادهم مقابل ثلاثمائة قنطار من الذهب ، وكان في شرط

---

[1] الآية 91 -92 من سورة النحل

[2] الآية 34 من سورة الإسراء

[3] - الآية 73 من سورة الأنفال

[4] - الآية 27 من سورة البقرة .

[5] - أبو عبيد : القاسم بن سلام ، الأموال ، حققه محمد خليل هراس ( بيروت : دار الفكر ، 1988 ) ، ص 207 .

[6] أبو عبيد ، الأموال ، ص 212 .

[7] - البلاذري : أحمد بن يحى ، فتوح البلدان ( بيروت : دار الكتب العلمية ، 2000 ) ، ص 145 .

[8] - القرشي : يحى بن آدم ، الخراج ، حققه حسين مؤنس ( بيروت : دار الشروق ، د- ت ) ، ص 88 .

[9] - البلاذري ، فتوح البلدان ، ص 96 .

صلحهم أن يأخذ المسلمون ما كان قبل الصلح وأن يرد ما كان بعده [1] .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن حالة الصلح المشروط تكون التزاماتها مقترنة بأداء الشيء الذي اشترطه المسلمون على من صالحوهم ، وهذا ما يستدل عليه من قول : " ***ولعلكم تقاتلون قوما فتظهرون عليهم فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وأبنائهم وتصالحونهم على ذلك فلا تصيبوا منهم بعد ذلك شيئا*** " [2] ، ومن قول : " ***إلا أهل الصلح لهم ما صولحوا عليه*** " [3] .

وفي بعض حالات الصلح المشروط لا تتوقف الشروط فقط على المسلمين ، حيث يضع أهل الصلح شروطا خاصة بهم مقابل ما يشترطه المسلمون ، فمثلا صالح الحجاج رتبيل على أن لايغزوه سبع سنين مقابل أن يؤدي بعد ذلك كل سنة تسعمائة ألف درهم [4] وكذلك فعل وزير المأمون الفضل بن سهل في حملة كابل ، عندما صالح كاوس على مال يؤديه مقابل أن لا يغزو المسلمون بلاده [5] .

والصلح على شيء قد لا يرتبط بأداء المال وقد يكون من شروطه مواقف معينه كما فعل المسلمون مع أهل قبرس ،عندما اشترط عليهم المسلمون مقابل الصلح أن لا ينصروا عليهم وأن ينذروهم في حال تحركات الروم [6] .

### 3 – العقد والذمة :

وهي الحالة المثلى في حال رفض المشركون الدخول في الإسلام ، وحالة عقد الذمة هي حالة شرعية لها سياق ثابت ومحدد ، ولا تخضع للاختيارية حيث وضعت لها بنود ثابتة أشبه ما تكون بالمواد القانونية ، وكانت تلك البنود تمثل مرجعية ما بين المسلمين وأهل الذمة فيما لو وقع بينهم خلاف .

أطلق على تلك البنود اسم الشروط العمرية تلقاها الائمة بالقبول ، واحتجوا بها وذكروها بألسنتهم وفي كتبهم وقد أنفذها الخلفاء وعملوا بموجبها [7] ، وقد وقد أجمل ابن القيم الشروط العمرية وأحكامها في ستة فصول :

– أحكام البيع والكنائس والصوامع – أحكام ضيافتهم للمارة – فيما يتعلق بضرر المسلمين – فيما يتعلق بتغيير لباسهم وتمييزهم عن المسلمين في المركب والملبس وغيره - فيما يتعلق بإظهار المنكر من أقوالهم وأفعالهم مما نهوا عنه – في أمر معاملتهم للمسلمين بالشركة ونحوها [8] .

---

[1] - ابن عذارى : المراكشي ، البيان المغرب ( بيروت : دار صادر 1958 ) ، ص 8 .

[2] - القرشي ، الخراج ، ص 110 .

[3] - الحنبلي : أبو فرج بن رجب ، الاستخراج لأحكام الخراج ( بيروت : دار الكتب العلمية ، 1985 ) ، ص 115 .

[4] - البلاذري ، فتوح البلدان ، ص 239 ..

[5] - المصدر نفسه ، ص 256 .

[6] البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ص 96 ، 97 .

7 - ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، حققه يوسف أحمد البدري و شاكر توفيق (الدمام : رمادى للنشر ، 1997 ) ، مج 1، ص1164 .

[8] - أحكام أهل الذمة ، ص 1167 .

ويظهر أن هذه الحالات حتى وإن اشتركت كلها تحت مفهوم الصلح ، إلا أن لكل منها استحقاقات وواجبات محددة ، تختلف فيما بينها وينظمها فقه المعاهدات في أحكام محددة سواء ما يتعلق منها بمجتمع المصالحين ، أو بالمسلمين ، إذ يفرض نوع المعاهدة في الأغلب ضوابط سواء فيما يختص بالتعامل مع البشر ،أو الأرض ، فالمسلمين حتى بحكم سيطرتهم على تلك الشعوب تفرض عليهم المعاهدات أنماط للتعامل محددة في وثائق المعاهدات لا يتجاوزونها .

والنوع في معاهدات الصلح لا يتم تحديده وفق ظروف الفتح العسكرية ، وإنما يحدد نوع المعاهدة بعوامل اقتصادية وسياسية هي ما تفرض في الأغلب نوع المعاهدة ، سواء كانت عقدا للذمة ، أو هدنة ، أو صلح مشروط .

**أثر العوامل الاقتصادية في أنواع المعاهدات :**

فرضت العوامل الاقتصادية نفسها على حالات الصلح ، وكثيرا ما كانت تلك العوامل محددة لنوع المعاهدة ، فلا يخفى أن عملية الفتوح الإسلامية انطلقت بالموازاة مع تأسيس الدولة العربية الإسلامية ، وعملية التوسع الإسلامي كانت تستوجب إجراءات تنظيمية لم تكن عملية الفتوح بمنأى عنها ، وعندما كان التوسع زمن الخليفة عمر بن الخطاب يأخذ شكله التنظيمي ، كانت تلك الإجراءات حاضرة في طبيعة معاهدات الصلح التي واكبت عملية الفتوح .

كان للخليفة عمر نظرة فيما يتعلق بالأراضي الزراعية ، والتي تمثل المورد الأساس لخزينة الدولة ، سيما وأن عملية الفتوح وما يصحبها من غنائم لم تكن لتستمر إلى ما لا نهاية ، فكان الخيار أن يتم تفعيل موارد دخل ثابتة تستجيب لحالة الدولة ولنفقاتها ما بعد التكوين .

كانت الأراضي الواقعة تحت سلطة الفرس في سواد العراق أولى الأهداف خاصة ولما تتوافر عليه تلك الأراضي من موارد هائلة ، حيث يذكر أن سواد العراق قد بلغ انتاجه زمن الخليفة عمر 36.000.000 جريب وبلغ خراجه 18.000.000 درهم [1]، وإبقاء تلك الأراضي بيد الفاتحين وفق حقهم في الغنيمة ، كان سيحرم الدولة من مورد دخل مهم . ما جعل الخليفة عمر يلجأ إلى تحويل تلك الأراضي من أراضي غنيمة إلى أراضي فيئ [2].

واجه إجراء الخليفة عمر معارضة من قبل بعض الفاتحين ، خاصة المستفيدين من تلك الغنيمة ، والذين كانت قبيلة بجيلة وحدها تمثل ربع عددهم [3]ما يعني أن ربع تلك الأراضي لو أبقيت بيد الفاتحين سيذهب إلى البجليين ، وقد برر الخليفة عمر ذلك الإجراء بأن إبقاء الأراضي بيد الفاتحين سيحرم من يأتي بعدهم [4] ، وهذا ربما ما جعل الكثير من الصحابة يوافقون الخليفة عمر في قراره ، من باب المصلحة العامة ، فتحويل أراضي الغنيمة إلى أراض فيئ ، لم يكن يعني بأي حال حرمان الفاتحين من تلك

---

[1] - حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ( ط15 ، بيروت : دار الجيل ، 2001 ) ، ج1 ، ص 377 .

[2] - الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد ، الأحكام السلطانية (بيروت : دار الفكر ، 2002 ) ، ص 174 .

[3] - المصدر نفسه ، ص 162 .

[4] - أبو عبيد ، الأموال ، ص 74 .

الأراضي سيما وأن مردود تلك الأراضي سيبقى محليا ، ولا يذهب منه لصالح المركز إلا الخمس [1] .

كان لهذا الإجراء أثر بارز في تحديد طبيعة معاهدة الصلح في العراق ، فلو بقي توصيف فتح العراق على اعتبارها أراضي غنيمة ، فإن أهالي تلك البلاد سيتحولون إلى رقيق ، وهذا ما لم يحدث تبعا للتغيير الذي أجراه الخليفة عمر ، ما يعني أن حرية أهل الصلح مقترنة بتوصيف الفتح وذلك على قاعدة : "***وكلما كان عنوة فإنهم أرقاء*** " [2] .

حول هذا الاجراء أهل السواد إلى منتفعين وذلك بأبقاء تلك الأراضي بيد أهلها في مقابل خراج يؤدى سنويا عنها [3] والحقيقة بهذا التوصيف تحول أهل العراق إلى أهل ذمة ولهذا قيل عنهم : " ***وإن كانوا قد سبوا وأبقوا لعمل الأرض كما ذكر عن عمر فقول أكثر العلماء أنهم ونسائهم وذراريهم أحرار*** "[4] .

ويبدو أن العامل الاقتصادي قد فرض نفسه أيضا في مصر، والتي قد تتشابه أراضيها مع أراضي العراق من حيث القيمة الاقتصادية ، والطبيعة الزراعية ، فارض مصر والتي كان يزرع فيها قرابة( 6 مليون) فدان ، يزرع ثلثيها من القمح والشعير ، مثلت موردا مهما للدولة بلغ ( 2 مليون) دينار زمن عمرو بن العاص ، و( 4 مليون ) في ولاية عبدالله بن سعد [5] ، وهذه الإمكانات الاقتصادية ربما هي ما فرضت نفسها لإعادة النظر في توصيف فتح مصر ، والتي حولت أيضا من أرض عنوة كما قال عنها عمرو بن العاص : "***لقد قعدت مقعدي هذا وما لأحد من قبط مصر علي عهد ولا عقد ، إن شئت قتلت ، وإن شئت خمست وإن شئت بعت*** " [6] ، إلى أرض أرض فيئ بموجب قرار من الخليفة عمر وذلك بعدما طلب بعض الفاتحين من عمرو بن العاص أن يقتسم مصر بينهم بموجب حقهم في الغنيمة ، فراسل عمرو بن العاص الخليفة عمر في هذا الشأن فأمره بأن لا يفعل قائلا : "***أقرها حتى يغزو منها حبل الحبلة*** " [7] وقال وقال أيضا : "***لا تقسمها وذرهم يكون خراجهم فيئا للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم*** " [8] .

والحقيقة قد ينظر إلى إجراءات الخليفة عمر فيما يتعلق بالأراضي الزراعية ، بأنها إجراءات إصلاحية تترتب عليها أمور في غاية الأهمية ، فتحويل الأرض من أرض غنيمة إلى أرض فيئ ، يعني بأن تلك الأراضي قد أصبحت ملكية عامة وبقاء أهلها فيها هو بقاء في سبيل الانتفاع ، خاصة وأن هذا الاجراء يحصن الأراضي من البيع والتصرف ما يعني بقاء تلك

---

[1] - الجوير : إدريس عبدالنبي ، السياسة الأمنية في العهد الأموي ( بنغازي : دار الجابر ، 2022 ) ، ص 58 .

[2] - الحنبلي ، الاستخراج لأحكام الخراج ، ص 56

[3] - أبويوسف : يعقوب بن إبراهيم ، الخراج ، حققه طه عبدالرؤوف سعد ( القاهرة : المكتبة الأزهرية ، 2016 )، ص 39.

[4] - الداودي :أبوجعفر أحمد بن نصر ، الأموال ، حققه رضا شحاته (بيروت : دار الكتب العلمية ، 2008) ، ص 143 .

[5] - الجوير ، السياسة الأمنية في العهد الأموي ، ص ص 62 ، 63 .

[6] - ابن عبد الحكم :أبو عبد الرحمن بن عبدالله ، فتوح مصر وأخبارها ( فرنسا : مجلس المعارف ، 1913 ) ، ص80.

[7] - البلاذري ، فتوح البلدان ، ص131

[8] - ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص 74 .

الأراضي سواء من حيث المساحات أو الاثقال ثابته " ***لو كان السواد ملكا لمن هو في يده من الكفار لجاز الشراء منهم*** " [1] ووفق هذا التوصيف لا تباع تلك الأراضي ونوع الصلح هو ما يحدد ذلك ، لذلك جاء الحكم الشرعي في أرض العراق " ***لا يباع أرض دون الجبل إلا أرض بني صلوبا وأرض الحيرة فإن لهم عهد ... كنا نسمع ما دون الجبل فيئ وما وراءه صلح*** " [2] ، وهذا النص يستدل منه بشكل واضح أن الأرضي الفيئية لا تباع ، بينما تباع أرض الصلح والتي لا يفرض على أهلها إلا ما صولحوا عليه على قاعدة : " ***وارض فتحت صلحا على خراج معلوم فهم على ما صولحوا عليه لا يلزمهم أكثر منه*** " [3] .

لا غرو أن هذه الاجراءات الاستثنائية في تغيير توصيف فتح المناطق التي تحوي أراض زراعية ، من أراضي غنيمة إلى أراضي فيئ ، قد حول أيضا سكان تلك البلاد من سبي بموجب أحكام ( الغنيمة ) ، إلى أهل ذمة ، لا يجوز سبيهم ، سيما وأن أهل الذمة قد دخلوا في ذمة المسلمين على ما في تلك الذمة من استحقاقات " **يجوز شراء أولاد أهل الذمة ولا يجوز سبيهم** " [4] ، والذمة في الأساس تعطى صيانة عن النفس والمال ، وعلى هذا الأساس يمكن فهم تحويل سكان المناطق الزراعية من أهل غنيمة ، إلى أهل فيئ حفاظا على تلك الأراضي أولا ، والإبقاء على موارد مستدامة تغذي خزينة الدولة ، لهذا ارتبطت حالات عقد الذمة بالخراج والجزية ، ولذلك كان الخليفة عمر واضحا في هذا المعنى في استراتيجته البنائية عندما قال : " ***فإن قسمت أرض العراق بعلوجها ، وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور ، وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق*** " [5] .

على هذا الأساس نرى أن حالات عقد الذمة ارتبطت بالمناطق الزراعية ، بصرف النظر عن نوع الفتح في تلك البلاد ، وعلى غرار العراق طبق هذا الاجراء في مصر وفي المناطق الزراعية من بلاد الشام ، والتي اصبح أهلها أهل ذمة سواء كان فتحهم عنوة أو سلما ، وهذا التغيير في توصيف الفتح ، لم يذكر في غير البلاد الزراعية والتي كانت معاهداتها تتم بأحكام لم تحصن تلك الأراضي ، وإن كان النوع فيها أيضا يتحكم فيه العامل الاقتصادي في شكل متوازن مع الصالح العام للمسلمين ، فأغلب البلاد التي كانت معاهدات صلحها لاتقيد بيع وملكيات الأرض ، لم تكن بلاد زراعية ، وبالتالي كانت مصلحة المسلمين تتجه إلى نوع آخر من الواردات أشبه ما يكون بالضرائب ، وفي تلك البلاد نلاحظ أن أغلب المعاهدات فيها كانت معاهدات صلحية ،لا تقترن بعقد الذمة ،وإنما بشروط متقابله ، وموقف المسلمين من سكان تلك البلاد يكون رهنا بما اشترط عليهم ، ويكون صلحهم ساريا طالما التزموا بتلك الشروط ،والتي يقابلها حريتهم في أنفسهم ،وفي أموالهم بما فيها

---

[1] - الحنبلي ، الاستخراج لأحكام الخراج ، ص 43 .

[2] - القرشي ، الخراج ، ص88.

[3] - ابن زنجويه: حميد ، الأموال ، حققه شاكر ذيب فياض ( الرياض : مركز فيصل ، 1986 ) ، ص187 .

[4] - أبو يعلي : محمد بن الحسن الفراء ، الأحكام السلطانية ، حققه محمد حامد الفقي ( بيروت : دار الكتب العلمية ، 2000) ، ص 163 ؛ الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص 174 .

[5] أبو يوسف ، الخراج ، ص 35 .

الأراضي طبقا لمبدأ يقول : " ***إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا*** " [1] ، وهذا في الحقيقة لم يبتعد عن تعليمات النبي الكريم ، فيما يتعلق بأهل الصلح عندما قال : " ***لعلكم تقاتلون قوما فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وأبنائهم ويصالحونكم على صلح فلا تأخذوا منهم فوق ذلك*** " [2] .

إن هذه التعليمات تشير بشكل واضح إلى أن المسلمين مطالبين بالالتزام بأن لا يتعدوا مع أهل الصلح فوق ما أشترطوا عليهم في صلحهم ، وحالات الصلح المشروط هذه تكفل لأهل الصلح الحرية الكاملة في أنفسهم وفي أملاكهم ، طالما التزموا ما اشترط عليهم وهذا ما يستدل عليه من قول لعمرو بن العاص عندما صالح أهل برقة على جزية مقدارها ثلاثة عشر ألف دينار فقال عنهم " ***إن لهم عهدا يوفى لهم به*** "[3] .

ولعل الملاحظ أن أغلب حالات الصلح المشروط ، ترتبط بقيم مالية عامة ، وذلك على خلاف حالات عقد الذمة ، والتي ترتبط بجزية الرؤوس ، وثمة ملاحظة تخص المصطلح وهي إطلاق لفظ الجزية على القيم المالية العامة ، ما يجعل الأمر يختلط ما بينها وبين الإتاوة أو الضريبة ، كما أن الجزية قد تؤخذ على أنها مدلول يتعلق بما يفرض على الأرض من خراج [4] وقد تطلق أيضا على القيم المالية المجملة التي يشترك في آدائها أهل قرية ما [5] ولهذا يقال : " ***الجزية جزيتان جزية على رؤوس الرجال ، وجزية جملة تكون على أهل القرية*** " [6] .

وللصلح على قيم مالية عامة أمثلة كثيرة ، وقد يتضح ذلك في فتوح المغرب عندما صالح المسلمون أهل برقة على ثلاثة عشر ألف دينار [7] ، وكذلك تم الصلح في أجدابية على خمسة آلاف دينار [8] وفي إفريقية وعقب انتصار المسلمين في معركة سبيطلة صالح عبد الله بن ابي السرح أهل إفريقية على ثلاثمائة قنطار من الذهب جزية [9] .

كما تكررت حالات الصلح على قيم مالية عامة في غير موضع ، فقد صالح معاوية بن أبي سفيان أهل قبرس على سبعة آلاف دينار [10] ، وقبل ذلك صولح أهل الأنبار على أربعمائة الف [11] ، وكذلك صولح أهل الحيرة على ما يقتسمونه بينهم [12] .

---

[1] - ابن قدامة : الحنبلي ، المغني ، حققه عبدالله بن عبدالمحسن ( الرياض : دار عالم الكتب ، 1997 ) ، ص 250 .

[2] - أبو عبيد ، الأموال ، ص 189 .

[3] - ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص 113 .

[4] - الحنبلي ، الاستخراج لأحكام الخراج ، ص 72 .

[5] - دانيل : دانيت ، الجزية والإسلام ، ترجمة فوزي فهيم ( بيروت : دار مكتبة الحياة ، 1960 ) ص 145 .

[6] - ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص 181 .

[7] - البلاذري ، فتوح البلدان ، ص 137

[8] - الحموي : ياقوت ، معجم البلدان ، حققه فريد عبد العزيز ( بيروت : دار الكتب العلمية ، 1991 ) ، ج1 ، 126.

[9] - بوصوة : محمود أحمد ، مقدمة في تاريخ المغرب الاجتماعي والاقتصادي ( فاليتا: منشورات ايلجا ، 1997 ) ص101

[10] - البلاذري ، فتوح البلدان ، ص 97 .

[11] - المصدر نفسه ، ص 150 .

[12] - القرشي ، الخراج ، ص 90 .

والحقيقة أن حالات الصلح على قيم مالية ، لا تعني تحلل المسلمين من تلك البلاد ، وإنما تعني خضوع تلك البلاد لسيطرة الدولة الإسلامية ، وهذا الأمر يؤكده استمرار الأداء لتلك القيم وبشكل سنوي منتظم ، ما يعني أن الغاية ليست مجرد الحصول على الأموال أو الغنائم ، فالكثير من معاهدات الصلح يستدل منها على الاستمرارية وإن قبول تلك الأموال يذهب في اتجاه المرحلية في الفتح ، وهو ما يمكن أن يستدل منه مثلا في صلح إفريقية والذي يبين أن خروج المسلمين وفق الصلح لم يكن يقصد به الخروج الكامل [1] حيث ذكر في الصلح :" ***أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم ، وما أصابوه بعد الصلح ردوه عليهم*** " [2] .

ولا شك أن حالات الصلح على قيم مالية كانت تمثل المرحلية في الفتوح ، فاغلب تلك الحالات كانت تذهب في اتجاه المؤقت ، فحالة عقد الذمة في مصر قد سبقتها معاهدة صلحية فقد صالح عمرو بن العاص المقوقس بعد فتح الإسكندرية على ثلاثة عشر الف دينار [3] وحدث نفس الشي في برقة ، وكذلك في طرابلس عندما نقضوا صلحهم الأول فوجه إليهم معاوية عقبة بن نافع الذي رفض أن يصالحهم على نفس صلحهم الأول وأبى إلا أن يوفوه الذمة ، فإن شاء أقرهم وإن شاء باعهم [4] ، وقد تظهر الغايات الاستراتيجية من معاهدات الصلح ، وربطها بالعوامل الاقتصادية ، من رد الخليفة عمر بن الخطاب في رسالة لعمرو بن العاص ، عندما استشاره بخصوص عرض صاحب الإسكندرية ، والذي طرح فيه أن يدفع الجزية مقابل إرجاع السبايا ، فأجابه الخليفة عمر بالقول : " ***جاءني كتابك تذكر فيه أن صاحب الإسكندرية عرض أن يعطيك الجزية على أن ترد إليه ما أصيب من سبايا أرضه ولعمري لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب إلي من فيئ يقسم ثم كأنه لم يكن*** " [5] .

يوضح أمر عمر هذا ، أن الغاية من معاهدات الصلح ليس مجرد الحصول على الأموال والسبايا ، وفق قانون الغنيمة ، وإنما تذهب الغاية في اتجاه موارد للداخل ثابتة ومستمرة ، مع بقاء سيطرة الدولة الإسلامية ، ما يستجيب لحاجات بناء الدولة ، ولو اتجه في فتح العراق ومصر إلى تقسيم تلك الأراضي لأصبحت في أيادي الفاتحين ، دون أن تستفيد الدولة من مواردها ، لذلك جاءت معاهدات الصلح في تلك البلاد لتخدم أولا تلك الغايات الاقتصادية ، وتسهم ثانيا في أن يكون للدولة موارد دخل ثابتة ، وهذا ما كان السبب الرئيس في تغيير توصيف فتح تلك البلاد ، وتحويلها من أرض عنوة إلى أرض فيئ ، وهذا التحول خاصة في توصيف فتح مصر ربما هو

---

[1] - أبو صوة ، مقدمة في تاريخ المغرب الاجتماعي والاقتصادي ، ص 101 .

[2] - ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج1 ، ص 8 .

[3] - البلاذري ، فتوح البلدان ، ص 135 .

[4] - الكندي : أبو عمر محمد ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ( د-م : المكتب التجاري للنشر ، د-ت ) ، ج1 ، ص 32 ،

[5] - الطبري : محمد بن جرير ، تاريخ الطبري ، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم ( القاهرة : دار المعارف ، د-ت ) ج4 ، ص 106 .

ما كان السبب في الارتباك بين المؤرخين حول فتحها فيما كان صلحا أو عنوة .

**أثر العوامل السياسية في أنواع المعاهدات :**

لم تكن العوامل الاقتصادية وحدها حاضرة في إجراءات الصلح الإسلامية ، فالعوامل السياسية أيضا كانت تسقط بظلالها في صياغة تلك المعاهدات ، ولعل الدوافع السياسية وراء اختيار النوع في المعاهدات ، تتضح من خلال حالات عقد الذمة ، والتي تأتي في الأغلب (تصييرية) ، بمعنى أن حالة عقد الذمة لا تتم مباشرة ، وإنما يسبقها في الأغلب عقد معاهدة صلحية ، ولهذا النوع من الانتقال أمثلة فعمرو بن العاص قد صير جماعة من القبط أهل ذمة بعدما كان لهم عهد [1] ، كما يتضح هذا التصيير أيضا في برقة والتي حول أهلها من أهل صلح إلى أهل ذمة ، ويمكن أن يستشف ذلك من نصوص الفتح ، حيث أن النص الأول المنقول عن البلاذري يتحدث بشكل واضح عن دفع قيمة مالية ،هي أقرب الى الإتاوة منها إلى جزية الرؤوس : " ***صالح أهلها على جزية مقدارها ثلاثة عشر ألف دينار*** " [2] ، بينما يتحدث النص الثاني عن تفاصيل تختلف كليا عما جاء في النص الأول حينما بعث عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب قائلا : " ***أنه قد ولي عقبة بن نافع الفهري المغرب فبلغ زويلة وأن ما بين برقة وزويلة سلم كلهم حسنة طاعتهم قد أدى مسلمهم الصدقة ، وأقر معاهدهم بالجزية وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه ، وأمر عماله جميعا أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها في الفقراء ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل إليه بمصر ، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر ومن أهل الصلح صلحهم*** " [3] .

لا غرو أن هذا النص في غاية الأهمية ، فهو كما يشير إلى حالة عقد الذمة بشكل واضح ، يوكد أن حالة عقد الذمة تختلف عن حالة الصلح ، من حيث دقة التفاصيل ووضوح البنود ، فيجب على الإمام أن يحدد بشكل واضح ما يعطيهم وما يؤخذ منهم ،وأن تسمى الجزية ويحدد الشهر الذي تدفع فيه [4] ، كما يؤكد أن حالة عقد الذمة لا تستبق بأي حال المعاهدة الصلحية وإنما تأتي إما مكملا لها أو بديلا عنها ، وحالة التصيير هذه من الصلح إلى عقد الذمة تفرضه أسباب وغايات سياسية ، ولابد من الإشارة إلى أن عقد الذمة في مفهومه يخضع لاعتبارات سياسية يجاز القول عنها بأنها ( استراتيجية ) ، ترجع إلى إدارة عملية الفتوح بالمجمل ، لذلك نجد أن حالات عقد الذمة تخضع لمحددين مهمين هما :

**الأول /** محدد يرجع لمن يراد صلحهم ويتلخص ذلك في قبولهم النزول على حكم المسلمين

**الثاني /** يرجع للمسلمين ، حيث لا تعقد الذمة في بلاد محجوزة عن المسلمين ، وبمعنى آخر أن لا تكون البلاد التي تعقد فيها الذمة على اتصال مباشر مع بلاد المشركين .

والحقيقة إن كان المحدد الأول واضحا من حيث أنه يشترط على أهل الذمة أن يقبلوا بأحكام المسلمين

---

[1] - البلاذري ، فتوح البلدان ، ص 132 .

[2] - المصدر نفسه ، ص 137 .

[3] - المصدر نفسه ، ص 138 .

[4] - الإمام الشافعي ، الأم ، حققه رفعت فوزي عبد المطلب (المنصورة : دار الوفاء ، 2001 ) ج5 ، ص 493.

في بلادهم والتي حددت في ستة أحكام يمكن اختصارها في [1] :

1- أحكام البيع والكنائس والصوامع
2- أحكام ضيافة المارة
3- أحكام تتعلق بضرر المسلمين
4- أحكام تتعلق باللباس والمركب
5- أحكام تتعلق بالأقوال والأفعال
6- أحكام تتعلق بمعاملة المسلمين وشراكتهم

فإن المحدد الثاني تتضح فيه الغايات السياسية من وراء التوجه إلى عقد الذمة ، وكيف تأتي تلك الحالة في سياق مرحلي محدد في شرط أن لاتعقد الذمة في بلاد محجوزة عن المسلمين وهذا الاشتراط تحديدا يدلل على ذهنية المسلمين المتقدمة في التخطيط أثناء الفتوح فحالة عقد الذمة تختلف عن حالات الصلح الأخرى ، من حيث المرجعيات فهي محددة ببنود مسبقة ، تمثل الأساس المرجعي عند إبرام كل حالة عقد الذمة ، وهذه البنود ترجع للأحكام الستة التي سبق ذكرها ، والتي أطلق عليها الفقهاء اسم الشروط العمرية : " ***والتي تلقاها الأئمة بالقبول واحتجوا بها وذكروها بألسنتهم ، وفي كتبهم ، وقد أنفذها الخلفاء وعملوا بموجبها*** " [2] . وهذا ما يعني أن حالة عقد الذمة في بنودها لا تخضع للتقدير كما في حالات الصلح الأخرى ، وإنما تصاغ بنودها بمرجعية ثابتة ، أشبه ما تكون بالمواد القانونية أما من حيث الاختصاص المكاني والغايات الاستراتيجية التي تتحكم فيها الجغرافيا السياسية لحالة عقد الذمة ، يمكن أن نستدل على ذلك التحديد من قول : " ***وكل أهل عهد لا يقاتل المسلمون من ورائهم ويجرون عليهم أحكامهم في دارهم فليسوا بذمة ولكنهم أهل فدية يكف عنهم ما كفوا ويوفى لهم بعهدهم ما وفوا ورضوا ويقبل عفوهم ما أدوا*** " [3] .

وهذا النص يوضح بشكل ثابت الفرق بين أهل العهد وأهل الذمة والذي حدد في أمرين ، الأول هو النزول على أحكام المسلمين ، والثاني أن يقاتل المسلمون من ورائهم بمعنى أن عقد الذمة مرتبط بالنزول عند تلك الأحكام ، وأن يكون المسلمون قد تجاوزوا البلاد التي تعقد فيها الذمة ، وهذا ربما يفسر ما حدث من انتقال في مواضع كثيرة فمصر مثلا عقد فيها الصلح أولا ، ثم تم الانتقال من معاهدة الصلح إلى عقد الذمة ،وهذا ما يؤكده الاختلاف في نصوص فتحها ، والارتباك في أنها فتحت صلحا أو عنوة ، ونفس الشئ حدث في برقة مع اختلاف نصي الفتح ، والذي يشير الأول منها إلى معاهدة صلحية والثاني إلى عقد ذمة ، واعتقد أن النصان صحيحان في حال احتساب الفارق الزمني بينهما والذي يصل إلى زمن فتح طرابلس ، ما يعني تجاوز المسلمون لمنطقة برقة ما يسمح باستيفاء شرط عقد الذمة ( بأن لا تكون البلاد محجوزة عن المسلمين ) .

وقد يرجع السبب الأساس في أن المسلمين لا يعقدون الذمة في البلاد التي لم يتجاوزونها ، يكمن في الالتزام ، فكما لأهل الذمة حقوق أيضا على المسلمين واجبات لعل أبرزها حماية من يعقدون الذمة معهم ، وفي حال لم يتجاوز المسلمون بلاد أهل الذمة فشرط الالتزام عندها قد يكون أكثر كلفة للمسلمين ، إذ تكون تلك البلاد عرضة لغارات من يحدونها وهذا

[1] - ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ص 1167 .

[2] - نفس المصدر ، ص 1164 .

[3] - البلاذري ، فتوح البلدان ، ص 99 .

ربما التفسير المنطقي لمعنى أن لا تعقد الذمة في بلاد محجوزة عن المسلمين .

وإذا ما كانت حالات عقد الذمة تخضع لهذا المعطى السياسي فإن حالات الهدنة لم تبتعد كذلك عن تأثير الجغرافيا السياسية ، وإن كانت حالات عقد الذمة تأخذ صفة المعاهدة الدائمة ، فإن حالات الهدنة تذهب في اتجاه المعاهدات المؤقتة ، وهي أيضا تكون في حل من بعض المحاذير التي تميز معاهدات الصلح الأخرى ، ففي الوقت الذي يمنع السبي في حالات عقد الذمة ، وفقا لنهي الخليفة عمر بن الخطاب : "***لا تشتروا من رقيق أهل الذمة***" [1] ، يمنع كذلك على أهل الصلح إن كان صلحهم صلحا ثابتا وفي ذلك تقول الأحكام الفقهية : "***إن صالح أهل الحرب على إعطاء عدد من الرؤوس وأعطوا أولادهم فلا يجوز أخذهم منهم إن كان صلحهم صلحا ثابتا***" [2] وقد ارتبط منع السبي بحالات عقد الذمة وحالات الصلح وفق قاعدة عامة ترجع إلى سنة الرسول الكريم تقول : "***لا سباء على أهل الصلح ولا رق وأنهم أحرار***" [3] .

والحقيقة إذا ما كانت حالات عقد الذمة وحالات الصلح تمنع السبي ، فقد يكون المخرج للحصول على السبي يتمثل في الهدنة ، لذلك لا يستغرب أن تكون مواطن عقد الهدنة ترتبط بالمواضع الجغرافية المتاخمة لمناطق استجلاب العبيد ، خاصة في افريقيا أو في المواضع التي تمثل بوابات لتلك المناطق ، فحالات عقد الهدنة هي حالات مؤقتة لا التزامات فيها ، وفي الأغلب تقف تلك الحالات على الحصول على مقابل نظير توقف الحرب بين الطرفين ، دون أي استحقاقات لاحقة ، تماما مثلما حدث في هدنة النوبة والتي جاء فيها : "***ليس بيننا وبين الأساود عهد ولا ميثاق إنما هي هدنة بيننا وبينهم ، على أن نعطيهم شيء من قمح وعدس ويعطوننا رقيقا فلا بأس من شراء رقيقهم منهم***" [4]

والهدنة وفق هذه الحالة لا تمنع المسلمين من شراء الرقيق ، ممن هادنوهم على خلاف عقد الذمة أو الصلح المشروط ، والتي تمنع الشراء ، وعلى هذا لم يكن مستغربا أن لا يعقد المسلمون أية هدنة في المناطق التي ينوون الاستقرار فيها ، فلم نجد حالات للهدنة لا في العراق ولا مصر أو الشام أو الشمال الأفريقي ، وإنما اقتصرت تلك الحالات خاصة المرتبطة في صياغتها بشراء الرقيق ، على المناطق الجغرافية المتاخمة لأفريقيا ، ما يعني أن المسلمين لو عقدوا مثل تلك المعاهدات لحرموا أنفسهم من الحصول على الرقيق والذي قد تكون الدولة وفق حالتها البنائية في أمس الحاجة له .

ولابد من الإشارة إلى أن الفقهاء قد برروا التناقض ما بين السماح بشراء الرقيق من أهل الهدنة ، ومنع الشراء في حالة الصلح ، أو حالة عقد الذمة ، وذلك كون أهل الهدنة غير ملزمين بأداء الجزية ، بينما يلزم بها أهل الذمة ، والجزية هي حالة صغار تفرض على الكفار ، وفيما لو تم الشراء من أهل الذمة فذلك

[1] -ابن قدامة ، المغني ، ج13 ، ص 220 ؛ القرشي ، الخراج ، ج2 ، ص91 .

[2] الإمام مالك ، المدونة الكبرى رواية سحنون بن سعيد ( الرياض : وزارة الشئون الإسلامية ، د-ت ) ، ج10 ، ص108.

[3] - أبو عبيد ، الأموال ، ص 238 .

[4] - البلاذري ، فتوح البلدان ، ص 145 .

الصغار ينتقل إلى المسلمين بتبعية الأداء عن العبيد ، وهذا هو معنى قول الخليفة عمر بن الخطاب عندما نهى عن شراء الرقيق من أهل الذمة : " ***لا يقرن أحدكم بالصغار بعدما أنقذه الله منه*** " [1] .

وليس بعيدا عن النوبة من حيث الجغرافيا السياسية فقد اتفق المسلمون مع أهل زويلة والتي تقع في أقصى الجنوب الليبي على ذات الخط العرضي للنوبة . نظير أن يدفع أهلها عدد 300 رأس من الرقيق [2] .

وفي الحديث عن السبي تجدر الإشارة إلى أن الرق في تلك المرحلة لم يكن أمرا غريبا وكل الشعوب كانت تمارسه ، فقد كانت الدولة البيزنطية تسبي على نطاق واسع بسبب الحروب الكثيرة التي كانت تخوضها ، حتى أنها أقرت قوانين للتعامل مع فئة العبيد ، وكذلك انتشر السبي عند الفرس ، بسبب ما كانوا يخوضونه أيضا من حروب ، وكان سبي الفرس في المجمل يعملون بالأراضي الزراعية [3] ، وكان العبيد عرضا من عروض التجارة وما يسجل لصالح الإسلام أنه قنن تلك التجارة وجعل في العتق أجرا وثوابا ما يشجع الناس على تحرير العبيد .

على هذا يمكن القول أن حالات الهدنة ارتبطت في معظمها بالحصول على العبيد وذلك وفق الإباحة في مثل هذا النوع من المعاهدات ، كما يمكن القول أن عدم اشتراط المسلمين الحصول على العبيد في معاهدات المناطق التي ينوون الاستقرار بها ، يؤكد أنهم لا يفرضون على الشعوب التي يعيشون معها أمورا لا يقبلونها على أنفسهم وليس غريبا أن تشرعن مثل تلك الأحكام في عهد الخليفة عمر ، والذي يعلم موقفه من الرق والاسترقاق فهو صاحب مقولة ( متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ) .

## الخلاصة

في المحصلة يتضح أن تحديد النوع في معاهدات الصلح أثناء الفتوح الإسلامية، لم يكن يخضع للخيارات الميدانية ، أو لتقديرات القادة بالمطلق ، ، وإنما كان نوع المعاهدة يخضع لمحددات مسبقة تتحكم فيها عوامل اقتصادية وسياسية .

كما يتبين من دراسة التنوع في معاهدة الصلح الآتي :

1- خضعت المناطق الزراعية الرئيسية لحالات عقد الذمة بصرف النظر عن توصيف الفتح ، لضمان تدفق موارد ثابتة للدولة .
2- حصن هذا الإجراء تلك الأراضي من البيع وأبقى تلك الأراضي بأيدي أهلها .
3- أغلب حالات الهدنة تخضع لجغرافيا الفتح ، والعديد من حالات الهدنة عقدت في المناطق التي تمثل حدودا للفتح أوالمناطق المتاخمة لمواطن استجلاب الرقيق .
4- ارتبطت حالات الصلح المشروط في أغلبها بمراحل الغارات ، أو بالأماكن الغير مستهدفة باستقرار الفتح مرحليا ، كما ارتبطت نفس الحالات بالمواضع التي تمثل عمق استراتيجي لمناطق عقدت فيها الذمة .

---

[1] - ابن قدامة ، المغني ، ج13 ، ص 221 .

[2] - الزاوي : الطاهر أحمد ، تاريخ الفتح العربي في ليبيا ( بيروت : دار المدار الإسلامي ، 2004 ) ، ص 39.

[3] - شادي : إبراهيم عبد القادر ، السبي في صدر الإسلام ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الدراسات العليا ، جامعة النجاح ، فلسطين ، 2010 ، ص ص 10-13 .

5- مثلت أغلب حالات الصلح المشروط خطوة أولى تستبق في الأغلب حالات عقد الذمة

6- كانت الجغرافيا السياسية تمثل بعدا مهما في حالات عقد الذمة ، فلم تعقد الذمة في الأغلب في المناطق التي لم يستقر بها الفتح ، أو الغير مؤمنة حدودها ، وهذا ما يفسر المرحلية في حالات عقد الذمة .

7- تؤكد هذه الأنماط في العلاقة ما بين الأنواع في المعاهدات أن ثمة تحديد مسبق وفق العامل الاقتصادي والسياسي وهو ما يحدد نوع المعاهدة حسب خصائص كل منطقة ، كما يؤكد خضوع المعاهدات للعوامل الاقتصادية والسياسية أن عملية الفتوح الإسلامية هي عملية ممنهجة تخضع للتخطيط المسبق وتسير وفق محددات وليست عملية عشوائية .

## مصادر البحث


*البلاذري ،أحمد بن يحي . ( 2000 ) . فتوح البلدان ، بيروت ، دار الكتب العلمية.

* ابن عبد الحكم :أبو عبد الرحمن بن عبدالله . ( 1913 ) . فتوح مصر وأخبارها ، فرنسا : مجلس المعارف

*الحموي ، ياقوت . ( 1990 ) . معجم البلدان ، (تحقيق فريد عبد العزيز) ، بيروت ، دار الكتب العلمية.

*الحنبلي ، أبو الفرج بن رجب . (1985 ) . الاستخراج لأحكام الخراج ، بيروت ، دار الكتب العلمية

*الداودي ، أبو جعفر أحمد . ( 1971 ) . الأموال ، (تحقيق رضا شحاته) ، بيروت ، دار الكتب العلمية .

*ابن زنجويه، حميد . ( 1986 ) . الأموال ، (تحقيق شاكر ذيب فياض) ، الرياض ، مركز فيصل للبحوث .

*أبو عبيد ، القاسم بن سلام . ( 1988 ) . الأموال ، تحقيق محمد خليل هراس ، بيروت دار الفكر .

*ابن عذاري ، المراكشي . ( 1958 ) . البيان المغرب ، بيروت ، مكتبة صادر .

*الإمام الشافعي ، الأم ، تحقيق رفعت فوزي ، دار الوفاء ، المنصورة ، 2001م .

*الطبري ، محمد بن جرير ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، د-ت

*ابن قدامة ، الحنبلي . ( 1997 ) . المغني ، (تحقيق عبد الله بن عبد المحسن و عبد الفتاح محمد ) ، الرياض ، دار عالم الكتب .

*القرشي ، يحي بن آدم .( 1987 ). الخراج ، (تحقيق حسين مؤنس )، بيروت ، دار الشروق

*ابن قيم الجوزية . ( 1997 ) . أحكام أهل الذمة ، (تحقيق يوسف البدري وشاكر توفيق) الدمام ، رمادى للنشر .

*الكندي ، أبو عمر محمد . ( د- ت ) . كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ج1 ، ( د- م ) ، المكتب التجاري للنشر .

*الإمام مالك بن أنس . ( د- ت ) . المدونة الكبرى رواية سحنون بن سعيد ، الرياض وزارة الشؤون الإسلامية.

*الماوردي ، أبو الحسن علي . ( 1989 ) . الأحكام السلطانية ، (تحقيق أحمد مبارك البغدادي) ، الكويت ، دار ابن قتيبة.
* ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين . لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، د-ت
*أبو يعلي ، محمد بن الحسن الفراء . ( 2000) . الأحكام السلطانية ، (تحقيق محمد حامد الفقي ) ، بيروت ، دار الكتب العلمية .
*أبو يوسف ، يعقوب بن إبراهيم . ( 2016 ) . الخراج ، (تحقيق طه عبد الرؤوف) ، القاهرة ، المكتبة الأزهرية .
* الجوير ، إدريس عبدالنبي . (2022 ) . السياسة الأمنية في العهد الأموي ، بنغازي ، دار الجابر .
* حسن ، إبراهيم حسن . ( 2001 ) . تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، بيروت ، دار الجيل .
*دانيت ، دانيل . ( 1960 ) . الجزية والإسلام ، (ترجمة فوزي فهيم ) ، بيروت ، دار مكتبة الحياة .
* الزاوي . الطاهر أحمد . ( 2004 ) . تاريخ الفتح العربي في ليبيا . بيروت ، دار المدار الإسلامي .
* شادي . إبراهيم عبد القادر . (2010) السبي في صدر الإسلام . رسالة ماجستير غير منشورة ، فلسطين ، كلية الدراسات العليا ، جامعة النجاح .
*أبو صوة . محمود أحمد . (1997 ) . مقدمة في تاريخ المغرب الاجتماعي والاقتصادي .فاليتا ، إلقا للنشر .
*كريم . بهجت علي محمد . (2009 ) . صياغة معاهدات الصلح بين المسلمين وسكان البلاد المفتوحة في بلاد فارس .أطروحة دكتوراه . كلية التربية للبنات ، جامعة بغداد .

# جهود المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية في جمع وفهرسة ونشر المحفوظات .

أ. خليفة محمد محمد الدويبي
د. نجية محمد خليفة القماطي .
قسم التاريخ .كلية التربية . جامعة الزيتونة . ليبيا

المقدمة

يعتبر المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية من اهم المراكز البحثية في ليبيا ، وهو مركز متخصص في الشؤون التاريخية في ليبيا ، صدر قرار انشائه في 17اغسطس 1977م، ومقره مدينة طرابلس ، ويهدف كما نصت المادة الثانية من قرار انشائه الي دراسة التطور التاريخي للتراث العربي الليبي علي مر العصور ، وتجميع الوثائق والمخطوطات والمؤلفات المتعلقة بأغراضه.

والمركز منذ تأسيسه سعي وبمختلف الاساليب العلمية علي تنفيذ المهام المناطة به . فعمل علي جمع المادة المصدرية للكتابة التاريخية (وثائق، مخطوطات ، وروايات شفوية ،صور ، وانشاء مكتبة احتوت علي عشرات الالاف من الكتب المطبوعة فصارت قبلة لطلاب العلم والباحثين علي مختلف مستوياتهم . لقد ضم المركز مجموعة من الشعب (الاقسام) العلمية المختلفة للقيام بما انيط به من مهام واثراء البحث العلمي وتوسيع دائرة المعرفة كان من بينها شعبة الوثائق والمخطوطات التي اوكل اليها مهمة جمع المخطوطات من مضانها المختلفة وفهرستها ونشرها لتكون في متناول الباحثين وطلاب الدراسات العليا وصارت تلك الشعبة بفضل جهود القائمين عليها تضم الاف المخطوطات الاصلية والمصورة في مختلف مجالات المعرفة .

ولقد تم اختيار الموضوع للتعريف بالمخطوط وجهود المركز في جمع ذلك الكم الهائل من المخطوطات الذي تحتويه خزائن المركز والاسلوب الذي اتبع في الجمع والترقيم والفهرسة والنشر لتسهيل الاطلاع عليه والاستفادة منه من قبل المهتمين والباحثين والدارسين .حفظ تاريخ الدولة الليبية عن طريق انشاء ارشيف وطني يضم المحفوظات والوثائق التي صدرت في المراحل التاريخية المختلفة للدولة الليبية والعناية بها واتاحتها امام الباحثين والدارسين.

قسم البحث الي مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة

المقدمة تتناول بالدراسة التعريف بالمركز منذ انشائه حتي سنة 2022م

المبحث الاول : وخصص للتعريف بالمخطوط وجهود المركز في جمع المخطوطات ومن الداخل والخارج والرحلات العلمية لجمع المخطوطات ، واقامة المؤتمرات

والندوات والمسابقات لذات الهدف والمشاركات الخارجية .

المبحث الثاني . فهرسة المخطوطات (نماذج من الجهود)

المبحث الثالث. نشر المخطوطات

الخاتمة وتتناول ما توصل اليه البحث من نتائج وتوصيات.

الكلمات المفتاحية : المخطوطات ، التاريخية، الليبية .

والله من وراء القصد

جهود المركز جمع المخطوطات(العمل الميداني)

اسم المركز

المبحث الأول: المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية في جمع وفهرسة ونشر المخطوطات

التعريف بالمركز:

أن اسم المركز مر بعدة تسميات كان أولها "مركز الدراسات الليبية" وقد اقترحته اللجنة العلمية المؤسسة للمركز "اللجنة الشعبية العامة سابقاً غيرته في قرار التأسيس رقم(..) الصادر بتاريخ 7 أغسطس 1977م. إلى (مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي) وفي 2 أكتوبر 1980م. تغير إلى (مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية)، ومع نهاية 1980م، تغير إلى (مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي) بموجب قرار اللجنة الشعبية العامة سابقاً رقم(202) لسنة 1981م. وبعد عدة محاولات ومراسلات أعيد الاسم إلى: (مركز الجهاد الليبيين للدراسات التاريخية) طبقا لقرار اللجنة الشعبية العامة سابقا رقم 1990/933م. واستمر بهذا الاسم من 1990 إلى 2009 م، حين تحول الاسم إلى: (المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية) وفي سنة 2012 م. صار الاسم الرسمي للمركز هو:( المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية) بموجب القانون رقم 24 لسنة 2012م[1] وهو مؤسسة علمية بحثية افتتحت رسمياً في 13 ديسمبر 1978م، ورغم تعدد الأسماء لكن الهدف واحد وهو حسب نص المادة الثانية من قرار إنشائه.(1).

- تأصيل الجهاد العربي الليبي وربط حلقاته بعضها ببعض على مر العصور.
- دراسة التطور التاريخي للتراث العربي الليبي على مر العصور.
- إجراء الدراسات الأدبية والدراسات المعاصرة التي لها علاقة مباشرة، أو غير مباشرة بالجهاد الليبي.
- تجميع الوثائق والمحفوظات والمؤلفات المتعلقة بأغراض المركز.

1- المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية ( وفقا للقانون 2012/24) جمع وتحديد مُحَمَّد الطاهر الجارى وآخرون، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس،2014،ص 13.

- أجراء الدراسات الوثائقية،

وهو يضم الشعب العلمية التالية:

- شعبة الرواية الشفوية.
- شعبة الوثائق والمحفوظات.
- المكتبة.
- شعبة قدماء المجاهدين وأضرار الحروب الاستعمارية.
- قسم التصوير.
- شعبة النشر.

وقد سار المركز منذ تأسيسه نحو تحقيق الأهداف التي أنشى من أجلها وإعطائها الأولوية في مشاريعه العلمية، فهو يضطلع لجمع المادة التاريخية المتعلقة بتاريخ ليبيا وما يتصل به من الداخل والخارج، كما يعني بالتراث العربي المخطوط في البيئات العلمية في الداخل وإجراء البحوث والدراسات[1]، ونشر البحوث والروايات الشفوية والنصوص وقد اصدر نحو (750 كتاباً) كما صدرت عن المركز الدوريات التالية[2]:

- مجلة البحوث التاريخية.
- مجلة الشهيد.
- مجلة الوثائق والمحفوظات.
- مجلة الأنصاف.

ومن أجل تحقيق هذه الأهداف وضعت خطة علمية جادة استهدفت جمع الوثائق والمحفوظات وتمكين الدارسين والباحثين في هذا الحقل، والوقوف على قيم هذا التراث والاستفادة من جوانبه الإيجابية، وسعى المركز لتحقيق خطته العلمية ومنهجه الاكاديمي الذي رسمه لنفسه ودراسته بموضوعية علمية عن طريق اطروحه بحتيه عمل على تكوينها ومتعاونين معه من الجامعات المختلفة، ويربط علاقته مع مؤسسات ومراكز بحثية أخرى[3].

ووفقا للمادتين الرابعة والخامسة عمل المركز على تكثيف الجهود لجمع الوثائق والمحفوظات الليبية المتعلقة بالتاريخ الليبي على مر العصور كما حددتها المواد (1-3) من نفس القرار، وتكرر التأكيد عليها في المادة الرابعة الفقرة(أ) والفقرة (ب) من المادة الخامسة من قرار اللجنة الشعبية العامة سابقاً رقم(933) بتاريخ 7 أكتوبر 1990م. والقاضي بتحديد وظائف المركز وتغيير اسمه[4]

(التدريب والتأهيل)

المبحث الثاني:

جهود المركز في جمع المخطوطات من الداخل والخارج:

1- 25 عاماً من العمل المتواصل. كاتب تذكاري بمناسبة العيد الفضي لمركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية 1978-2003، اشراف حبيب وداعه لحسناوي، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية،طرابلس،2003،ص25،24،17.

2- دليل منشورات المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية ( مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية سابقاً 1978-2012)، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، 2013،ص14.

3- المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، المصدر السابق،ص4.

4- المصدر نفسه، ص 4

انطلاقاً من الشعور بالمسؤولية المركز العلمية في العناية بتراث هذا البلد والمحافظة عليه، تعتزم شعبة الوثائق والمخطوطات فتح مختبر أو معمل خاص بصيانة وترقيم الوثائق والمخطوطات، وفي إطار التدريب والتأهيل لتشغيل هذا المختبر تم إيفاد بعض العناصر من العاملين بالشعبة إلى الخارج لحضور بعض الدورات التدريبية التي تنظمها المنظمات الثقافية الاقليمية والدولية بالتعاون مع بعض المؤسسات الثقافية في بعض البلدان العربية من أجل اكتسابهم المزيد من الدراية والإلمام بالطرق الحديثة لحفظ الوثائق والمخطوطات والخطوات الفنية اللازمة للترقيم والصيانة، وأعدادهم نظرياً وعلمياً ليكونوا نواة الافتتاح معمل الصيانة والترقيم المرتقب.

وفي هذا الاطار أوفد الأخ/ إبراهيم سالم الشريف إلى سوريا في مناسبتين لحضور الدورات التدريبية التي تنظمها وتشرف عليها مكتبة الأسد بدمشق بالتعاون مع المنظمة العربية للثقافة والعلوم في مجال ترقيم وصيانة المخطوطات: الأولى في 29- 8 إلى 30- 10- 1987م. والثانية من 1 إلى 10 - يوليو1996م.

كما أقيمت تحت أشراف المنظمة الاسلامية للتربية والثقافة والعلوم ( ابسبسكو) بالتعاون مع مركز جمعية الماجد للثقافة والتراث الدورة التدريبية الأولى حول صناعة المخطوط العربي الإسلامي بدبي بدولة الأمارات العربية خلال الفترة من 1- 30 أكتوبر 1999م، وحضرها أربعة من باحثي الشعبة.

كما حضر الأخ/ إبراهيم سالم الشريف الدورة التدريبية التي نظمت تحت أشراف الجامعة العالمية للمكتبين العالميين بالتعاون مع المجلس الدولي للأرشيف لصيانة الوثائق بإفريقيا التي عقد بالمختبر الوطني لصيانة وترقيم الرفوف والمخطوطات بالقيروان بالجمهورية التونسية خلال الفترة من 18 إلى 28 مايو 1998م.

كما حضر كل من إبراهيم سالم الشريف وموسى حسين عمر الدورة التدريبية الثانية التي أُقيمت خلال سنة 2001 لمدة أسبوعين لمركز جمعة الماجد بدبي بدولة الأمارات العربية حول صناعة المخطوط العربي الإسلامي[1].

وفي هذا الاطار استقبل المركز بعثة علمية من مركز جمعة الماجد في صيف 1999، تنفيذ الاتفاقية التعاون العلمي الموقعة بين المركزين في 17 أغسطس 1997م، وقامت بتصوير مختارات من المخطوطات الليبية من مكتبة المركز بلغ عددها(1267) مخطوطة وفي المقابل تسلم المركز عدد(190) بكرة ميكروفيلم تحوى(950) عنواناً من المخطوطات في مختلف فروع المعروفة من مكتبة مركز جمعة الماجد.

ويعمل المركز على تطوير وتوفير افضل الإمكانيات لحفظ الوثائق من حيث توفير المكان المناسب والظروف الموضوعية اللازمة لذلك من حفظ وتعقيم وترميم، مع إدخال الحاسوب في مجال حفظ الوثائق والمخطوطات وتطوير مجال استخدامها وتطوير الأعمال المتصلة بالتصنيف والفهرسة والطباعة في مما يجعل الاستفادة من مجموع الوثائق والمخطوطات أمراً ميسراً.

1- 25 عاماً من العمل المتواصل، المصدر السابق، ص 26،27.

ويتبع المركز في حفظ المخطوطات وصيانتها وفهرستها احدث الأساليب المتبعة في هذا المجال، مما يسهل أمام الباحثين والدارسين الوصول إلى أي مخطوط عبر ثلاث مداخل رئيسية وهي المؤلف، العنوان، والموضوع، وذلك بواسطة بطاقات خاصة لهذا الغرض أو عن طريق الفهارس التي شرع المركز في نشرها[1].

إن ما تحصل عليه المركز من مخطوطات لا يشكل إلا جزء بسيط من المخطوطات والوثائق الخاصة التي مازالت بحوزة الأفراد والأمر في مناطق شتى من ليبيا، والبحث عن هذه الذخائر وجمعها مهمة ضرورة وتتصف بالاستعجال الكبير نظراً لان مجموعات الوثائق التي لدى الأسر تتلف كل سنة بواسطة الحشرات، العوامل الجوية والانتقال من مكان إلى أخر والإهمال وفقدان الحس التاريخي.

كما أن هناك قسماً كبيراً من تراث المخطوط قد انتقل إلى المكتبات الأوروبية خلال المرحلة الاستعمارية والسيطرة الأجنبية وقد بدا المركز محاولاته منذ أنشائه الاتصال بالمكتبات الأوروبية ورصدت ما بها من مخطوطات ليبية قصد تصويرها واستعادة أصولها.

وقد وقف المركز في تصوير مجموعة من المخطوطات الليبية على الميكروفيلم كان احد ضباط الغزو الإيطالي قد أخذها ووضعها في مكتب *الامبروزيانا* احد المكتبات المعروفة في ميلانو، كما تم تصوير مخطوطات أخرى من مؤسسات علمية ومكتبات جامعية في كل من مالي، بولندا، فرنسا، تركيا، إسبانيا، ودولة الأمارات العربية، وذلك بفضل برامج تبادل المصورات الميكروفيلمية والمطبوعات التي أقامها المركز مع بعض المؤسسات في تلك البلدان.

وسعى المركز إلى إقامة مجموعة من المعارض المشتركة مع المراكز والمؤسسات المناظرة في البلدان الأخرى مثل الاسكوريال باسبانيا ، ومركز احمو بابا بتمبكتو بمالي، ومركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدولة الأمارات العربية المتحدة[2].

جهود المركز: (العمل الميداني)

اهتم المركز بالعمل الميداني منذ البداية، فكان احد الركائز الرئيسية التي قام عليها جهده التوثيقي، لجمع الوثائق والمخطوطات، وقد تقدمت مراحل هذا العمل وتفاوتت حملاته في أهدافها وحجمها ونشاط فريق البحث عن الوثائق والمخطوطات.

فقد قام الفريق بداية برحلتي عمل ميداني بمنطقة الجبل الغربي وغدامس والقبلة استغرقتا عدة أسابيع خلال سنتي(1986- 1989م) ضمن مشروع 7 أكتوبر اطلقه المركز لتجميع وتقصي مصادر حركة الجهاد وتوجه اهتمام الباحثين في الرحلتين إلى الاتي:

- الزيارة الميدانية للقرى القديمة(سواء كانت عامرة أم مهجورة) بحثاً عن اثر مكتوب وتدوين وصف أولى عاجل.

1- المصدر السابق، ص124.

2- المصدر نفسه، ص 124،123.

- تتبع مكان الوثائق والمخطوطات والوقوف عليها في بعض المساجد العتيقة والزوايا العلمية الباقية لدى الأسر والأفراد ومحاولة أخصائها وتصنيفها بشكل أولى.
- إحصاء سجلات المحاكم الشرعية واستعادتها قصد تصويرها على الميكروفيلم.

وقد زار الفريق في رحلته الأولى المناطق الأتية: نالوت، أولاد محمود، الحوامد، وتضم( يتركت، والخربة، وتسالات)/ كباو، فرسطة، طمزين، الحرابة وتضم(بقالة وويغو، وبقيقليه، وام صفار، ويترغت، ومسجد تفليس، وجزبحن، وازن، سيناون، شعوار، تقطة، درج، غدامس، الحوض، بدر، تيجي.

وتابع الفريق في رحلته الثانية زيارة مناطق جادو وتضم( طرميس، مزو، جناوت، مزعورة، ندباس) الرحبيات(السلامات، زاوية السني، ويفات، رقرق، قصد الحاج، شكشوك، الرجبان، وتضم( أولاد عطية، وأولاد عبيد)، القلعة، الظاهر، أولاد عبيد، أولاد عبد الجليل، أولاد عنان، والداهة)، الزنتان وتضم( أولاد الهول، أولاد دويب، دوعيال هدية، وزاوية العجيان،)، الريانية وتضم( محلة أولاد على، محلة العقيبة، زاوية العالم، زاوية ابو ماضي، أم الجرسان، القعلة، الضاهر، مزدة، نسمة، زاوية طبقة، زاوية قرزة، غريان وتضم(القواسم، زاوية الثقها، محكمة غريان، الكميشات، قباع، ابوزيان، الظواهرية، مكتب عقارات الوقف، السواعدية[1].

هذا وقد قام المركز بتصوير عدد لابأس به من المخطوطات من قبل بعض المكتبات الخاصة نذكر منها على سبيل المثال:

1. مكتبة زاوية طبقة بمزدة، وهي تحت أشراف عائلة الأزهري.
2. مكتبة الشيخ مُحَمَّد النعاس قرزة بنسمة ومن أهم محتوياتها رسائل ومؤلفات لأحمد بن إبراهيم بن سحيان العالم الطرابلسي المعروف، وكذلك بعض المؤلفات للشيخ على الميفي.
3. مكتبة عبد الرحمن بن منيع بالرياينة وهي تحوى قرابة مائتي عنوان من اصل ثمانمائة عنوان[2].

وقد قام فريق العمل الميداني بشعبة الوثائق والمخطوطات برحلات علمية إلى عدد من مناطق الجنوب حيث يتوفر رصيد ملحوظ من الوثائق والمخطوطات لدى الأسر، ففي 2 يناير 2004م، قام الفريق بتجميع عدد من الأصول الخطية من المخطوطات والوثائق المتعلقة بتاريخ ليبيا في مختلف مراحله

---

1- عمار جحيدر، مصادر دراسة الحياة الفكرية في ليبيا في العهد القرمانلي (1123 – 1251 هـ) (1711 – 1835م)، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2003، ص 146.

2- إبراهيم سالم الشريف، المخطوطات في ليبيا، عرض لمركزها وفهارسها، أعمال المؤتمر الأول حول الوثائق والمخطوطات في ليبيا واقعها وأفاق العمل حولها، زليطن 1988،ج2، وقف على نشرها وقدم لها عمار جحيدر، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1992، ص119.

وموضوعاته وذلك من خلال المراكز العلمية والثقافية بمناطق( وادي الشاطئ، سبها، وادي الحياة، مرزق، غات، الجفرة، تم خلالها تصوير نماذج من الوثائق والمخطوطات التاريخية المحفوظة هناك كانت حصيلتها عن النحو التالي:

- منطقة سبها تم تصوير نماذج من مخطوطات قام بتأليفها أعلام ينتسبون إلى دول أفريقية مجاورة.
- حصر محتويات مكتبة مركز البحوث والدراسات الأفريقية وتم تصوير عدد خمس مخطوطات مجموع أوراقها (218) الورقة.
- زيارة مكتبة الحاج ابوبكر عثمان القاضي الحضيري وهي تحتوي على مجموعة وثائقية كبيرة حيث صور فيها عشرة مخطوطات مجموع أوراقها (677) ورقة.
- توثيق نماذج مختارة من وثائق عائلة الزياديين الموزعة بين مناطق( الفقهاء، نمسة، الزيقن، بنغازي، سبها) وبلغ عددها (300) ثلاثمائة وثيقة إضافة إلى تصوير(22) مخطوط من مكتبة عليوة مُحَمَّد يحي الزيداني مجموعة أوراقها (270) ورقة.
- تصوير العديد من الوثائق من سجلات محكمة مرزق الشرعية.
- منطقة الجفرة (قرية سوكنة)، مكتبة الحاج عبد الحفيظ الغزالي، وتضم مراسلات وفرمانات ونوازل فقهية ووثائق اقتصادية واجتماعية مختلفة وبلغ عدد الوثائق التي امكن تصوير(204) وثيقة، منها وثائق تخص عبد الجليل سيف النصر، وملف الجهاد، ووثائق الملك، ملف المراسلات العلمية الفتاوى، إضافة لمراسلات مع بعض سلاطين إفريقيا.

كما قام الفريق بتجميع وتصوير بعض الوثائق والمخطوطات من:

- قرية نسمة وثائق متنوعة ذات الصلة ببعض الأسر.
- قرية تراغن نماذج من وثائق المعاملات في هذه القرية.
- قرية قنقل تتوفر على وثائق ذات صلة بالملكية، ومراسلات مع الإدارة الفرنسية ووثائق ا، ووثائق االمقاسمة

هذا وبلغ مجموع ما تم استنساخه من وثائق ومخطوطات من مناطق الجنوب(1146) وثيقة، و(14) مخطوطة[1].

ومن نفائس المخطوطات التي تحصل عليها المركز أثناء عمليات المسح الميداني في الجنوب (الجفرة) وادي الشاطئ، سبها، مرزق، وادي الحياة، غات، نسمة من المدونة برواية سحنون، وهي نسخة جيدة أندلسية كتبت على رق من جلد البقر تذخر بها مكتبة الأستاذ مُحَمَّد الزائد انس سليل بلد غدامس والقاطن بمنطقة أوباري، ولذى بعض الأسر في غدامس، ودرج، وسيناون، والحرابة، والرجبان، والزنتان، والرياينة،، وغريان، وطبقة، ونسمة، وطرابلس، وزليطن، ومصراته، وبنى وليد، وهون، ووادي سوكنه، وسبها، وأوباري، وغات، والقطرون، وبنغازي، وككلة، وأوجله، واجخرة، فأكدت رحلات العمل الميداني في مجملها أن هذه المناطق لم تكن تخلوا من تراث علمي مخطوط، كانت مادة لحياة علمية كانت قائمة أنداك[2].

## المبحث الثالث:
## فهرسة المخطوطات ونشرها:

تم نشر عدد من فهارس المخطوطات هذه نماذج منها:

- فهرس المخطوطات بمركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ج1، إعداد: إبراهيم سالم الشريف، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس،1989م، يضم الفهرس 677 مخطوطة موزعة على علوم(القرآن الكريم، والتفسير، وأصول الفقه) 239ص.
- فهرس المخطوطات بمركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، الجزء الثاني، إعداد: إبراهيم سالم الشريف، طرابلس 2000 وقد استوعب هذا الجزء 1021 مخطوطة منها التام المتكامل ومنها الذي أثرت به عوامل الزمن ويضم 476 ص.
- فهرس المخطوطات الجزء الثالث، إعداد: إبراهيم سالم الشريف، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2006، ويحتوي هذا الجزء على 869 مخطوط في المواضع الآتية:( النحو، الصرف، اللغة، السياسة، التربية، المنطق، الموسيقى، الأدب، البلاغة، والبيان، الحساب والهندسة، الفلك، الكيمياء، علوم الحيوان، الطب، الصناعة، الاقتصاد، علوم أخرى ويضم 438 ص[3].

1- االكناشة، نشرة علمية تعني برصد نشاطات مركز الجهاد الليبيين للدراسات التاريخية، العدد الثامن، السنة الرابعة،2003-2004،ص 31،32،33،34.

2- فهرس للمخطوطات المصورة، ج 1، أعداد: إبراهيم سالم الشريف، المركز الليبي للمخطوطات والدراسات التاريخية، طرابلس،2014.

3- دليل منشورات المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، المصدر السابق.

واعد المرحوم بإذن لله الأستاذ بشير قاسم يوشع فهارس لمخطوطات غدامس وقد صدر هذا العمل ضمن إصدارات المركز على النحو التالي:

- فهرس مخطوطات غدامس، إعداد بشير قاسم يوشع، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، 1986، ويحتوي على 199 ص، ويضم 406 مخطوطة موزعة على 13 موضوع وقد جمعت من 28 مكتبة.
- فهرس مخطوطات غدامس، الجزء الأول، جمع بشير قاسم يوشع ، ط2 المركز الليبي للمحفوظات الدراسات التاريخية، طرابلس،2011، 199 ص.[1]
- فهرس مخطوطات غدامس، الجزء الثاني(جامع تندرين) جمع وتحقيق بشير قاسم يوسع، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، 2011،362 ص، وكل مجموعة غدامس صورت بالميكروفيلم بشعبة الوثائق والمخطوطات بالمركز.
- فهرس المخطوطات المصورة، ج1، إعداد: إبراهيم سالم الشريف، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات.

ملحق رقم(3 )

نماذج لما نشره المركز من المخطوطات ضمن سلسلة نصوص ووثائق:

- أحمد الفقيه حسن(الجد) 1843-1886 وتحقيق ما بقى من أثاره ووثائقه/ دراسة وتحقيق مُحَمَّد مسعود جبران/ مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس،1988.
- تاريخ فزان، جمع مادته مصطفى خوجة، حققه وقدم له وعلق عليه حبيب وداعه الحسناوي، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس.
- تكملة تاريخ طرابلس الغرب، حكم على القرمانلي باشا طرابلس الغرب 1793، تحقيق بان فانتسيتا، ترجمة عبدالحكيم الابد ، تقديم وتعليق خالد الامين المغربي، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1980.
- التذكار ضمن ملك طرابلس ومن كان بها من الأخيار للشيخ أبي عبدالله مُحَمَّد بن خليل غلبون المصراتي الطرابلسي المتوفي سنة 1150هـ( خاتمة الكتاب، ودراسة وتحقيق جمعة محمود الزريقي، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس،2010.
- حسن الفقيه حسن، حملة نابولي على طرابلس 1244هـ 1828 م، تحقيق مُحَمَّد الاسطى، عمار

1- فهرس مخطوطات غدامس، بشير قاسم يوشع، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس،1986،ص9،8.

جحيدر، تقديم على الفقيه حسن، مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي، طرابلس، 1978.

- خبر السوق لمؤلفه مجهول ويليه ملحق بأهم المصادر العربية لتاريخ السودان الغربي، تقديم وتعليق عبدالحميد الهرامة، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس،2003.
- المخطوطات الليبية المحفوظة في المكتبات التونسية والمغربية، قائمة أولية، جمع وتقديم الفرجاني سالم الشريف، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس،2000.
- اليوميات الليبية، الجزء الأول، 958-1248هـ(1551-1832م) حسن الفقيه حسن، تحقيق مُحَمَّد الاسطى، عمار مُحَمَّد جحيدر، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس،2001.
- اليوميات الليبية الجزء الأول، 958-1248هـ(1551-1852م) حسن الفقيه حسن، تحقيق مُحَمَّد الاسطى، عمار مُحَمَّد جحيدر، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس،2001.
- اليوميات الليبية الجزء الثاني، الحرب الأهلية ونهاية العهد القرمانلي 1248- 1251هـ (1832- 1835) تحقيق عمار جحيدر، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2001[1].

وحدة المحفوظات:

عمل المركز منذ أنشائه على جمع المخطوطات وحفظها، والتنبيه على أهميتها كمصدر للتوثيق، وكتراث ثقافي، وقد كان الاهتمام بمركز على جمع هذه المخطوطات سواء بالإهداء أو بالشراء أو بالتصوير، وهذه المخطوطات كانت ولايزال بعض منها محفوظة في خزائن المكتبات الخاصة، وهذا الوضع ولد لدى المركز قناعة أكيدة بوجود مخطوطات تاريخية لدى الأسر، التي لديها تقاليد علمية، وتحتفظ بسجلاتها ووثائقها ومخطوطاتها والتفكير الجدي لوضع آلية تمكن من التعرف على هذه العائلات والوصول إليها وبناء جسور الثقة والعمل معها. ويقوم المركز في إطار هذه الألية على تحسيس المواطنين بأهمية المخطوطات، وخلق علاقات حميمة مع ملاك المخطوطات، بهدف التعرف على ما لديهم من مخطوطات ووثائق وحصرها، ومعرفة موضوعاتها وإمكانية الحصول على نسخ منها.

والأمانة العلمية، وضرورات البحث التاريخي المنهجي اقتضي من المركز البحث عن الوثائق والمخطوطات المتعلقة بالتاريخ الوطني في مختلف مراحله وموضوعاته من مضامينها المختلفة ولهذا أسس المركز شعبة خاصة تعني بجمع الوثائق والمخطوطات[2].

1- دليل منشورات المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، المصدر السابق.

2- 25 عاماً من العمل المتواصل، المصدر السابق،ص117.

نماذج من البحوث التي نشرت:

المجلة الوثائق والمخطوطات:

1. فهرس المخطوطات المصورة بشعبة الوثائق والمخطوطات، الفرجاني سالم الشريف، مجلة الوثائق والمخطوطات، العدد الثاني، السنة الثانية، 1987م، ص479- 530.
2. مكتبة الشيخ الصالح بن هارون الغدامسي، بشير قاسم يوشع، مجلة الوثائق والمخطوطات، العدد الخامس، 1990، ص425.
3. من الوثائق إبراهيم سالم، مجلة الوثائق والمخطوطات، العدد الرابع، السنة الرابعة، 1990، ص 139.
4. مختارات من محفوظات شعبة الوثائق والمخطوطات، عمرو سعيد بغني، مجلة الوثائق، العدد الرابع، السنة الرابعة، 1990، ص 139.
5. قائمة مخطوطات زاوية ابو ماضي بمنطقة ككلة، الفرجاني سالم الشريف، مجلة الوثائق والمخطوطات، العددان السابع والثامن، 1992،1993، ص 369.
6. أهم مراكز المخطوطات العربية الليبية، مجلة الوثائق والمخطوطات، العدد السادس، السنة السادسة،1991، ص 257 .[1]

المؤتمرات العلمية:

سعياً من المركز لزيادة التواصل بينه مع البيئات العلمية المختلفة(الأفراد والمؤسسات) أقام أول مؤتمر للوثائق والمخطوطات بمدينة طرابلس بالتعاون مع المعهد العالي لتكوين المعلمين وقد نشرت أبحاث ذلك المؤتمر من جزاءين وقف على نشره وقدم له الأستاذ عمار مُحَمَّد حميد، وعدد صفحاته 1470 صفحة.

وقد رأت اللجنة التحضيرية للمؤتمر ان تضم إلى معرض الوثائق والمخطوطات عدداً من لوحات الفنان(مُحَمَّد أحمد التونسي) حول الزخرفة الإسلامية والخط العربي[2].

أن الدوافع التي حدث المركز إلى عقد هذا المؤتمر، فهي تندرج ضمن نشاطه المستمر في تجميع المادة التاريخية ونشرها وإجراء الدراسات حولها، والإسهام في دفع عجلة البحث العلمي في ليبيا وإرساء تقاليده.

إما معري عقده في مدينة زليطن خلافاً للعادة الجارية استأثرت خلالها المدن الكبرى يمثل هذه التظاهرات الثقافية بما توفر لها من الإمكانيات ففكرة عقد المؤتمر في زليطن قد توفر لها عاملان أولاهما توجه المركز إلى الخروج بنشاطه العلمي عن أسوار المدن الكبرى وأشاعته بين مختلف المدن والقرى والواحات وتامينها ما ابداه المعهد العالي لتكوين المعلمين بزليطن من استعداد الاستضافة المؤتمر العلمي بين أروقه، فضلاً عما تتمتع به المدينة نفسها من شهرة ملحوظة كواحدة من البنيات العلمية التي شهدت ازدهاراً نسبياً.

1- مجلة الوثائق والمخطوطات، الأعداد 4،5،6،7،8.

2- أعمال المؤتمر الأول حول الوثائق والمخطوطات في ليبيا واقعها وأفاق العمل حولها،ج1، المرجع السابق، ص52.

وقد تمت دعوة الكثير من الباحثين للمشاركة في المؤتمر وقد زاد عدد الأبحاث التي قدمت على خمسين بحثاً وشارك فيه باحثون من ليبيا، تونس، المغرب، ومعهد المخطوطات العربية بالكويت، ومعهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب.

وعلى هامش المؤتمر أقيمت مسابقة ابن الاجداني للوثائق المخطوطات وبلغ مجموع المشاركين فيها 25 فرداً، وكانت الحصيلة العلمية لهذا الدورة الأولى من المسابقة نحو 115 مخطوطة منها 23 مخطوطة ليبية ونحو70 وثيقة بينها عدد من الرسائل والإجازات والغناوي.[1]

وفي سنة 1999م نظمت الدورة الثانية للمسابقة في غدامس الغنية برصيدها التراثي المخطوط وأقيم على هامش هذه الدورة ندوة علمية ومعرض للوثائق والمخطوطات، وقد ساهمت دورتي المسابقة(زليطن وغدامس) بشكل جلي ناجح في تحقيق قدر ملحوظ من الأهداف التوثيقية المرجوه في تاريخيا الثقافي وقد بلغ ما لدى المركز من المخطوطات حتى نهاية شهر يوليو 2003م(6330) ستة آلاف وثلاثمائة وثلاثون مخطوطاً موزعة على النحو التالي:

- مخطوطات أصلية 1670 مخطوطا.
- مكتبة الأوقاف 1510 مخطوطة (أصلية).
- مخطوطات مصورة 3150 مخطوط.[2]

وقد أفاد الأستاذ إبراهيم سالم الشريف، بأن عدد المخطوطات بالمركز قد وصل عام 2022 م، إلى عشرة آلاف مخطوط ما بين أصلي ومصور.[3]

1- 25 عاماً من العمل المتواصل، المصدر السابق، ص 120-121. ومزيد من المعلومات راجع فهرس مخطوطات غدامس، إعداد: بشير قاسم يوشع، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس، 1986.

2- 25 عاماً من العمل المتواصل، المصدر السابق، ص122-123-124.

3- التنمية ومراكز الفكر، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية نموذجاً، مُحَمَّد الطاهر الجراري، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، 2022، ص33.

## الخاتمة

خلصت الي القول ان المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية من اهم المراكز البحثية في ليبيا ، وهو مركز متخصص في الشؤون التاريخية في ليبيا ، صدر قرار انشائه في 17اغسطس 1977م، ومقره مدينة طرابلس ، ويهدف كما نصت المادة الثانية من قرار انشائه الي دراسة التطور التاريخي للتراث العربي الليبي علي مر العصور ، وتجميع الوثائق والمخطوطات والمؤلفات المتعلقة بأغراضه.

والمركز منذ تأسيسه سعي وبمختلف الاساليب العلمية علي تنفيذ المهام المناطة به . فعمل علي جمع المادة المصدرية للكتابة التاريخية (وثائق، مخطوطات ، وروايات شفوية ،صور ، وانشاء مكتبة احتوت علي عشرات الالاف من الكتب المطبوعة فصارت قبلة لطلاب العلم والباحثين علي مختلف مستوياتهم . لقد ضم المركز مجموعة من الشعب (الاقسام) العلمية المختلفة للقيام بما انيط به من مهام واثراء البحث العلمي وتوسيع دائرة المعرفة كان من بينها شعبة الوثائق والمخطوطات التي اوكل اليها مهمة جمع المخطوطات من مضانها المختلفة وفهرستها ونشرها لتكون في متناول الباحثين وطلاب الدراسات العليا وصارت تلك الشعبة بفضل جهود القائمين عليها تضم الاف المخطوطات الاصلية والمصورة في مختلف مجالات المعرفة .وقد توصل الباحثان من خلال هذه الدراسة الي النتائج التالية :-

1-يحرص المركز علي جمع وحفظ تاريخ الدولة الليبية عن طريق انشاء ارشيف وطني يضم المخطوطات والوثائق التي صدرت في المراحل التاريخية المختلفة للدولة الليبية والعناية بها ،ودراسة التطور التاريخي للتراث العربي الليبي عبر العصور .

2-يحاول المركز توفير خبرات عربية وطنية متقدمة في اعمال التصنيف والفهرسة للوثائق .

3-يعمل المركز علي تطوير وتوفير افضل الامكانيات لحفظ الوثائق من حيث توفير المكان المناسب والظروف الموضوعية اللازمة لذلك من حفظ وتعقيم وترميم .

4-سعي المركز الي القيام علي حفظ وصيانة التراث العلمي المتمثل في المخطوطات العربية التي هي داخل ليبيا ، في اطار خطة تهدف الي حفظها وتصنيفها وفهرستها واصدار فهارسها للوقوف علي مدى ما

تحتضنه ليبيا من هذه الثروة ، وفقا للبحث العلمي في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية وبيان مساهمة ليبيا فيها علي مر العصور والازمنة.

# الدور الاقتصادي للعبيد في إفريقية خلال القرن الأول والقرن الرابع الهجري.

حامد العجيلي
أستاذ مساعد بكلية الآداب والعلوم الانسانية بصفاقس.

**الملخص.**
شهد القرن الأول الهجري عمليات فتح إفريقية وبلاد المغرب ومع توافد العرب للاستقرار بإفريقية عرفت هذه الأخيرة عديد التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فكان من أوليات الاستقرار العربي ببلاد المغرب محاولة بسط النفوذ على الأرض وتنظيم المجال الذي تم فتحه من خلال عمليات توطين العنصر العربي وهو الذي سيحدث عديد التغيرات.
كانت تلك التغيرات تتعلق بالانشطة الاقتصادية المختلفة إضافة إلى جلب العرب لعادة جديدة لبلاد المغرب وإفريقية بشكل خاص حيث تم ارساء نظام عبودي جديد ليقطع مع الحضور البيزنطي في شتى المجالات ومنها كيفية استغلال الأرض واليد العاملة التي استخدمت في ذات الغرض، كما ارتبطت بلاد إفريقية بإفريقيا جنوب الصحراء والمشرق الإسلامي مما ساهم في تطور المبادلات وتبعا لاستقرار العرب فإنه تم استخدام العبيد منذ فترة الولاة وتواصل خلال المرحلة اللاحقة وصولا إلى القرن الرابع الهجري حيث تشعبت عمليات استغلال العبيد السود والبيض وفي هذه الورقة سنحاول دراسة حضور العبيد في النشاط الزراعي والبناء والحرف حتى نبين التغيرات التي طرأت خلال كامل الفترة المدروسة.

كلمات مفاتيح: إفريقية،النشاط الزراعي،العبيد،الملكيات الكبرى،الحرف،البناء

**Abstract.**
The first century of the H witnessed the operations of conquest of Africa and the Maghreb, and with the arrival of Arabs to settle in Africa, the latter witnessed many economic, social and political changes.
These changes were related to various economic activities, in addition to bringing the Arabs to a new habit in the countries of the Maghreb and Africa in particular, where a new slavery system was established to break with the Byzantine presence in various fields, including how to exploit the land and the labor that was used for the same purpose, as African countries were associated with sub-Saharan Africa. And the Islamic East, which contributed to the development of exchanges and, according to the stability of the Arabs, the use of slaves since the period of the *wullet* and continued during the later stage, up to the fourth century H, where the operations of exploitation of black and

white slaves branched out. during the entire period studied.

In this paper, we will try to study the presence of slaves in agricultural activities, construction and crafts in order to show the changes that occurred during the entire period studied.

**Keywords**: African, agricultural activity, slaves, large property, crafts, construction.

**المقدمة.**

لا شك أن عملية الفتح ساهمت في تشكل واقع جديد بإفريقية حيث ظهر نظام عبودي جديد وفق نظيره الاسلامي في المشرق، فتنوعت أصناف العبيد والاسرى الذين تم الحصول عليهم وساهمت تلك الفئات في مختلف الانشطة الاقتصادية فمنها ما تم استغلاله في النشاط الزراعي وغيرها في النشاط الحرفي إضافة إلى أشغال البناء وتبعا لذلك فإن العبيد والاسرى كانت لهم أنشطة اقتصادية مختلفة.

امتدت الفترة المعنية بالدراسة على القرن الاول وصولا إلى القرن الرابع الهجري ويعني ذلك فترة الفتح وفترتي الدولة الاغلبية والدولة الفاطمية وهو ما يعني أن هناك تطور في موضوع العبودية حسب تطور وضعية إفريقية من اللا دولة إلى فترة الدولة فكيف تطورت ظاهرة العبودية؟ وما هي ميزات حضور العبيد في الأنشطة الاقتصادية المختلفة؟ ثم كيف يمكن فهم تلك التطورات؟ ألا تحيل تلك التطورات على تطور المجتمع الافريقي؟ فكيف ساهم العبيد في مختلف الانشطة الاقتصادية التي أحالت عليها المصادر ثم كيف قدمت لنا المصادر تلك المعطيات؟

**1) العبيد والنشاط الزراعي.**

يبدو أن نهاية الفتح واستقرار العرب بإفريقية تم على إثره إعادة توزيع الأراضي على المنتصرين وعلى حد عبارة المالكي "استقامت إفريقية كلها (لحسان بن النعمان) وأمن أهلها"[1] وكانت الملكيات متفاوتة من حيث المساحة والخصوبة وأكد الأستاذ الطالبي أن "الأرستقراطية" الجديدة آنذاك اعتمدت على قوة عمل العبيد في ملكياتهم[2] وتبدو هذه المسألة شائكة لكل من يحاول البحث في تفاصيلها نظرا لعدم وفرة المادة

[1] المالكي(أبو بكر عبد الله بن محمد)،رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق بشير البكوش،دار الغرب الإسلامي،بيروت،1994،الجزء الأول،ص57.

[2]) Talbi(M), « Droit et économie en Ifriqiya au III/IX siècle. Le paysage agricole et rôle des esclaves dans l'économie du pays », in, *Etudes d'histoire ifriqiyenne et de civilisation musulmane médiévale*, publication l'Université de Tunis, 1982, p.185-229.

أنظر كذلك:بنحمادي(عمر)،"بعض المنعرجات الهامة في أوضاع الملكيات الزراعية في إفريقية في فترة تاريخها الوسيط"،*مجلة دراسات تاريخية*،عدد 43-44،مارس-جوان،1992،ص83-104.

وأكد الأستاذ الهادي التيمومي أن "نمط الإنتاج المخامسي قام على أنقاض نمط الإنتاج العبودي..." وفسر موقفه هذا بناء على ما ذكره الطالبي في مقاله المشار إليه أعلاه وأضاف أن "الإسلام وقف ضد شد المزارعين إلى الأرض وبالتالي ضد الفيودالية التي نشأت في الولايات الإفريقية منذ أواخر العهد الروماني وهو ما مكن العبودية من العودة من جديد وبقوة" أنظر: التيمومي(الهادي)،*الغائب في تأويلات "العمران البشري" الخلدوني*،دار محمد علي للنشر،صفاقس،2007 ،ص30-35.

المصدرية الضرورية التي من شأنها أن تجيب على العديد من الأسئلة ذات الصلة بالموضوع.[1]

إن استعمال العبيد الذين بقوا في إفريقية على ذمة المسلمين في المجال الاقتصادي كان بدون شك متعددا فاستعمل البعض في الحاجيات المنزلية فحسب والبعض الآخر في خدمة الأرض في إطار التنظيم الجديد للأراضي.

وفيما يتعلق بهذا الصنف الأخير فيمكن أن نقبل بما ورد في المصادر التي استعملها بعض الباحثين بشكل جيد حيث بين بوضوح أن مجال إفريقية قد كان مبدئيا مقسما بين المحاربين الذين شاركوا في الفتح ومجموع الخمس مخصص للضرائب ومن المسلم به أن هذا الخمس يحتوي كذلك في جانب منه على الممتلكات التي كانت في جزء منها تابعة للضرائب الملكية البيزنطية.

وبالنسبة للأراضي التي وزعت على المحاربين فإنها تعود في الغالب لقواد الجند و"الأرستقراطية' العربية وهو ما يعني أن هؤلاء قد تسلموا الأرض والعاملين فيها في نفس الوقت والذين كانوا على ذمة الملك البيزنطي.[2] وقد أشارت المصادر إلى الملكيات الكبرى من خلال استعمال مصطلحات مختلفة مثل قرية ومنزل وضيعة ومنية[3]

وتبدو كل هذه المصطلحات متصلة بالأراضي التي كانت على ملك رجال الدولة من الأمراء والفقهاء وقدماء المحاربين الذين شاركوا في الفتح كما توزعت هذه الملكيات في مختلف أنحاء إفريقية وخاصة منها المناطق الخصبة القادرة على الإنتاج بالإضافة إلى انتشار مختلف أنواع الملكيات الأخرى الصغرى منها وذات الاستغلال الجماعي وسنقتصر على تتبع

---

[1]) بقي نمط الإنتاج في الفترة البيزنطية غامضا مثلما عبر عنه الأستاذ مُحَمَّد الطاهر المنصوري بقوله:"يجد الباحث صعوبة كبيرة في تحديد نمط الإنتاج السائد في منطقة إفريقيا البيزنطية" أنظر: المنصوري(مُحَمَّد الطاهر)،"ملامح بعض الفئات الاجتماعية بإفريقية في العهد البيزنطي"،ضمن كتاب،*المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي*،إعداد مجموعة من الباحثين، تنسيق الهادي التيمومي،بيت الحكمة، قرطاج تونس،1999، 703صفحة،أنظر:ص17. جعيط، تأسيس الغرب الإسلامي،دار الغرب الإسلامي،بيروت،2003، 92،93. أنظر كذلك فرحات الدشراوي الذي قال "أن إفريقية كانت أرض خراج ثم أصبحت أرض سبي على الأقل حتى منتصف القرن الثامن الميلادي في عهد الوالي العباسي عبد الرحمان ابن حبيب" الدشراوي (فرحات)، الخلافة الفاطمية بالمغرب ،ترجمة حمادي الساحلي،دار الغرب الإسلامي،1988،ص47.

[2]) ذكر جعيط أن القبائل التي فرضت عليها عقود صلح كان عليهم أن يدفعوا بموجب ذلك ضريبة نقدا أو عينا وكانت القبائل تلتزم بعدد من العبيد أو غيرها في الفترات الأولى لتنظيم الولاية وكان الدافع في دخول الإسلام لأسباب اقتصادية واجتماعية وجبائية،أنظر جعيط، نفس المرجع،ص97، 147، 148.

[3]) قام الباحث لمجد الدريدي بأطروحة تناول فيها القرى والمجتمعات القروية خلال الفترة الممتدة من القرن الثاني إلى القرن الخامس الهجري وتعرض بالخصوص إلى إشكالية المصطلحات المتعلقة بالملكيات التي كانت سائدة وبين مختلف أوجه استعمالها من خلال المصادر الخاصة بالفترة ونحيل القارئ على أهم ما ورد في هذا العمل.أنظر:

Dridi (Lamjed), *Les villages et les sociétés villageoises en Ifriqiya au haut moyen age (II-Vs.H/ VIII-XIs.J.C.) Approche historique et archéologique*, Thèse de doctorat, Ecole pratique des hautes études, Sorbonne, Paris, 2008,2 tomes ; voir, pour la terminologie, tome 1, p.36-59.

El Behi (Ahmed), «Les grandes propretés foncières en Ifriqiya durant le haut moyen âge : Toponymie et topographie », *Revue d'Histoire Maghrébine*, 49 année, numéro 186, février, 2022, pp.9-26.

الإشارات التي أوردتها المصادر والخاصة بالنشاطات الفلاحية التي أسندت إلى العبيد.

فأبو عبد الله مُحَمَّد بن مسروق (توفي في بداية القرن الثالث هـ/التاسع م) كان والده من القواد مع موسى ابن نصير في المغرب وكان يمتلك قرية حملت اسمه وهي المعروفة بقرية المسروقين كما نسبت إليه "بحيرة المسروقين "[1] وكان له عدد هام من العبيد كانوا يكدون في الأرض مثلما ذكر المالكي[2]

كما تنسب قرية المغيريين إلى أبي المغيرة عبد الله بن أبي بردة القرشي الذي كان من "التابعين" وتقلد قضاء إفريقية من سنة 99هـ إلى 123هـ و كان من المشاركين في فتح المغرب والأندلس في فترة موسى ابن نصير وترك ثروة هامة لابنه تمثلت في قصر مغيرة وقريته[3] وكذلك الشأن بالنسبة "لمدينة الأنصاريين التي نسبت إلى قوم نزلوها من الأنصار"اشتهرت بإنتاج الحنطة[4] وليس مستبعدا أن اليد العاملة المستعملة كانت من العبيد أو المولّدين.

ويبدو أن أغلب الأنشطة الفلاحية كانت قد ازدهرت بإفريقية منذ منتصف القرن الأوّل الهجري وخلال الفترات اللاحقة ومن بينها زراعة البقول ويمثل هذا الصنف يزيد ابن حاتم وكان له بعض الوكلاء المشرفين على بعض مزارعه وذكر ابن عذاري:" روي أن بعض وكلائه زرع فولا كثيرا في بعض رياضاته فقال له:" يا ابن اللخناء أتريد أن أعير بالبصرة، فيقال: يزيد ابن حاتم باقلاني" ثم أمر أن يباح للناس."[5]

وكان لعبد الرحمان ابن حبيب وأفراد عائلته عديد المنازل يستغلها عن طريق يد عاملة من العبيد[6] أما سحنون بن سعيد (240/160هـ) فكان من بين أهم الملاكين العقاريين بإفريقية خلال القرن الثالث الهجري فكانت له ملكيات بمنزل صقلاب وبناحية صفاقس كانت له 12000أصل زيتو ن[7] وأشارت المصادر كذلك أن سحنون ذكر أن أحد غلمانه أصابته حمى فأراد أن ينوبه في حراثة أرضه ونميل إلى الاعتقاد أن هذه الإشارة يجب أن تؤوّل في الإطار العام الذي ورد فيه الخبر وليس على أساس نقص في عدد العبيد الذين كانوا تحت تصرف الفقيه كما وفد على السيد سحنون أحد غلمانه من منزل صقلاب وأخبره أنه هلك زوج من البقر وماتت له خادم وقطعت له الريح نحو خمسين ومائة شجرة.[8] وكان لسحنون ملكيات أخرى منها منزل بني هنغلات

---

[1] )الرقيق(أبواسحاق)،**تاريخ إفريقية والمغرب**،تحقيق عبد الله العلي الزيدان وعز الدين موسى،دار الغرب الاسلامي، بيروت،1990، ص107.

[2] )المالكي، رياض النفوس...، ج1، ص193، 194. Talbi (M), « Droit et économie... », Op.cit, p188

[3] ) المالكي، ج1، ص126..Talbi(M) ,ibid

[4] ) البكري(أبو عبيد)،**المسالك والممالك**،تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري،الدار العربية للكتاب،1992،ص706.

[5] ) ابن عذاري(المراكشي)،**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**،تحقيق ج.س.كولان وليفي بروفنصال،دار الثقافة،بيروت،ج1،ص81 ،82.

[6] )الرقيق، **نفس المصدر السابق**، ص98.أبو العرب(التميمي)،**طبقات علماء إفريقية وتونس**،تحقيق علي الشابي ونعيم حسين اليافي،الدار التونسية للنشر،1985، ص98، المالكي، ج1، ص129، 130، 412.ابن ناجي(أبو الفضل)،**معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**،تحقيق ابراهيم شبوح،المكتبة العتيقة،1968،ج1 ، ص 234.

[7] ) الطالبي(مُحَمَّد)،تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض،تونس،1968 ،ص63، ابن ناجي، ج2، ص65، المالكي، ج1، ص358، عبد الوهاب(ح.ح)،ورقات عن الحضارة الإفريقية،مكتبة المنار،تونس،1972، ج2، ص100.

[8] ) المالكي، ج1، ص359، 366. Dridi, Op-cit, tome1, p54.

ويبدو من النص أن هناك عائلات بأكملها من العبيد تسكن هذا المنزل أو هم بمثابة أقنان وكانت أوضاع أولئك العبيد جد قاسية إذ أن السيد سحنون لم يجد عند عبده ما يفترشه إلا برذعة حماره حين داهمه الليل وقرر المبيت عندهم.[1]

أما علي بن أسلم أخو سحنون من الرضاع الذي ولاه قضاء الساحل وهو جد أبي إسحاق الجبنياني فكان يمتلك عديد المنازل ومن بينها منزل جبنيانة وكان قد شيد على نفقته الخاصة سور مدينة صفاقس كما أنشأ جامعا خاصا به بالإضافة إلى بناء المحارس التي ألحقت باسمه (محرس علي) وتذكر مناقب الجبنياني امتلاكه عددا هاما من العبيد السود والصقالبة.[2] وأورد اللبيدي في المناقب "كنا أوينا إلى قصر بقرب جبنيانة...فنظرنا من أعلى القصر حتى رأينا السودان يخرجون من ناحية جبنيانة."[3]

ونجد إشارة كذلك لـ"منية سردينيا" التي نعتت بأنها قرية وبين ابن الأثير أنها توجد بالقيروان وأشار بعض الباحثين أن موقع هذه المنية يناسب هنشير سردينيا الذي يوجد على بعد 17كلم شمال شرق جلولاء.[4] أما أما البكري فذكر أنه "من القيروان إلى مدينة جلولا أربعة وعشرون ميلا...وبقرب جلولا منتزه يعرف بسردانية ليس بإفريقية موضع أجمل منه فيه ثمار عظيمة وفيه من النارنج خاصة نحو ألف أصل وجلولا مدينة لها حصن وهي مدينة أولية قديمة مبنية بالصخر وفيها عين ثرة في وسطها وهي كثيرة الأشجار والثمار وأكثر رياحينها الياسمين وبطيب عسلها يضرب المثل لكثرة ياسمينها[5] وبها يربب أهل القيروان السمسم بالياسمين وبالورد والبنفسج وبها قصب السكر كثير ومنها كان يرد إلى القيروان كل يوم من أحمال الفواكه والبقول ما لا يحصى كثرة وحولها الجنات"[6]

ولعل المصادر حين تحدثت عن روح ابن حاتم وحياة الملوك التي كان يعيشها تفيد بأن هذه المنية كانت على ما يبدو موجودة وربما كان يشرف عليها عبيد أو موالي من البيزنطيين أو أصيلي سردينيا مثلما تشير تسمية المنية، ولعل الوصف الذي قدمه البكري وما جاء في الخبر المتعلق بروح بن حاتم من قبل الرقيق يجعلنا نقتنع أن الورد الذي كان في غير فصله قد جيء به من هذه المنية.[7]

و كان لابنه الفضل كذلك عددا هاما من العبيد والموالي وذكر الرقيق أنه حين ثار الجند سنة 178هـ على أمير إفريقية الفضل بن روح بن حاتم وقدموا ابن

---

[1]) المالكي، **رياض النفوس**...،ج1،ص371.

[2]) اللبيدي(أبو القاسم)، **مناقب الجبنياني**،نشر الهادي روجي ادريس،المنشورات الجامعية،فرنسا،1959 ،ص4 ،8 ،33.

[3]) **نفس المصدر**،ص73.

[4])المالكي، ج1، ص126..Ibidem

[5]) البكري،ص685.

[6]) البكري،ص686 .

[7])الرقيق، ص139.أشار أحد الدارسين أن الفترة الإسلامية الأولى الأولى شهدت ما عرف ب"الثورة الخضراء" حيث تم جلب زراعات جديدة من الهند مثل القصب السكري والأرز والقطن وغيرها وتم تطويرها من قبل العرب وكان ذلك منذ القرن الأول الهجري/7م واستعمل الأمويون يد عاملة من العبيد (ومن بينهم المصدّرين من بلاد المغرب) والغرباء وأسرى الحرب في العمل الزراعي Renault(F), *La traite des noires au proche orient médieval VII-XVIIsiecle*,guethner,Paris,1989, p.44, 45. موسى (عز الدين)،*وقفات منهجية مع المفاهيم والمنظور والأساليب*،دار الغرب الإسلامي ،بيروت، لبنان،2003 ،ص108 ،109. ميتز(آدم)،*الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري*، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة،الدار التونسية للنشر،1986 ،ج2 ،ص720 ،732.

الجارود بتونس تعجب الفضل من بقائه وحيدا وقال:"لم يبق أحد إلا صار علينا حتى من أعتقناه"[1] وهو ما يدل أنه كان يمتلك عددا من العبيد إلا أن العتق وما يتبعه من الولاء كان وقتذاك ضروريا لإيجاد الأرضية الملائمة للحفاظ على المكتسبات التي جنتها عائلته من الفتح.

أ-العمل في الواحات.

لدينا إشارة هامة ونادرة ذكرتها المصادر تتعلق بعمل العبيد السود في الواحات وقد أشار ابن عذاري عند حديثه عن ثورة منصور الطنبذي ضد الأغالبة سنة 209هـ بقوله:"لم يبق لزيادة الله من إفريقية كلها إلا قابس والساحل ونفزاوة وطرابلس فإنهم تمسكوا بطاعته...فقال له سفيان بن سوادة: "مكني ممن أثق بهم أتقدم بهم إلى نفزاوة فدعا بربرها إلى نصرته فأجابوه فأقبل عامر بن نافع في الجند نحو نفزاوة فلما وصل إلى قسطيلية جمع ألف أسود ومعهم الفؤوس والمساحي وخرج بهم إلى نفزاوة فنزل تقيوس وبلغ ابن سوادة قدومه فخرج إليه واقتتل معه فانهزم الجند وقتل منهم عدد كثير ورجع عامر إلى قسطيلية فأقام بها ثلاثة أيام يجبي أموالها ليلا ونهارا حتى كمل له من ذلك ما أراد وسار نحو القيروان"[2]

وكانت قسطيلية تتكون من مدينة توزر والحامة ونفطة و "توزر هي أمها وهي مدينة كبيرة عليها سور مبني بالحجر والطوب ولها جامع محكم البناء وأسواق كثيرة وحولها أرباض واسعة آهلة وهي مدينة حصينة لها أربعة أبواب كثيرة النخل والبساتين والثمار...وحولها سواد عظيم من النخل وهي أكثر بلاد إفريقية تمرا ويخرج منها في أكثر الأيام ألف بعير موقورة تمرا وأزيد كما أضاف أن جباية قسطيلية مائتا ألف دينار"[3]

إن هذه الإشارة تبين بدون ريب العمل الذي كان يقوم به العبيد السود في الواحات ولا ننسى في نفس الوقت كما أشرنا سابقا أن قسطيلية كانت أهم مركز تجميع العبيد بإفريقية لأنها تمثل ممرا رئيسيا للقوافل التجارية في رحلة ذهابها وإيابها إلى بلاد السودان ولعل الوصف الذي تركه البكري لقسطيلية بالرغم أنه يعود إلى فترة متأخرة إلا أن ذلك الازدهار ليس نتيجة تطور فجائي وإنما هو وليد صيرورة زمنية ارتبطت في جزء كبير منها بعلاقة المنطقة بالتجارة الصحراوية و أهمية الدور الذي لعبه التجار الإباضيون بواحات الجريد.

ونجد لدى الفقهاء الإباضيين موقفا متسامحا في استخدام واستغلال قوة عمل العبيد ليلا ونهارا إن أمكن ذلك وهو ما يحيلنا على الواقع الفعلي الذي كان سائدا أكثر مما أشارت إليه الروايات التي تثني على المعاملة الحسنة من قبل السيد لعبيده.[4]

ب-العمل في مزارع السكر:

كانت زراعة قصب السكر قد انتشرت في البلاد الإسلامية منذ الفترة الأموية وحين انتقل العرب إلى إفريقية تم جلب هذه الصناعة معهم وتواجد السكر عند العرب بعيد الفتوحات الإسلامية فنجد السكر بسوريا منذ القرن السابع وقد رأت كل من إفريقية

[1]) ابن عذاري، **البيان**،ج1،ص86 ،87.

[2]) ابن عذاري، **البيان**،ج1،ص101.

[3]) البكري،ج2 ، ص708 ،709.

[4]) الشماخي(أبو العباس)،**كتاب السير**،تحقيق محمد حسن،كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، تونس، 1995، ص138. "ثلاث يصلحن لدنياك وأخراك لا بأس أن تستخدم العبيد بالليل إذا لم تستقص خدمتهم بالنهار"

والمغرب والسوس ضرورة تطوير زراعته كما انتشر كذلك بصقلية وتواصل الاهتمام به من قبل النورمان حتى أن أحد أبواب سرقوصة كانت تحمل اسم "باب السكر" وسمي نهج ب" نهج العسل" وفي مصر كانت الغزوات العربية لمصر في القرن الثامن قد ساهمت في انتشار القصب السكري كما نجد ذلك في حدائق غرناطة.[1]

أما بإفريقية فنجد إشارات متأخرة ولكنها هامة لأنها تشير إلى وجود هذه الزراعة بجنوب إفريقية وغير بعيد كذلك عن قسطيلية المركز الهام الذي كانت تمر منه القوافل التجارية نجد مدينة قابس التي كان بها "اتصال بساتين ثمارها مقدار أربعة أميال ومياهها سائحة مطردة يسقى بها جميع أشجارها وأصل هذا الماء من عين خرارة...وبها قصب السكر كثير "[2] وتفيد إشارة هامة في مؤلفات الطبقات أن مُحَمَّد بن بسطام بن رجاء الضبي المتوفى سنة 313هـ بمدينة سوسة "كان قد اشترى وصيفا لإصلاح المصباح في حين نسخه بالليل وكان يتخذ له القصب الحلو يقطعه له قطعا لطافا فإذا نعس الوصيف جعل في فيه قطعة منها ليزيل عنه النعاس."[3] وهو دليل هام على انتشار قصب السكر بإفريقية.

ولا نستبعد كذلك استعمال يد عاملة من العبيد السود في مزارع السكر مثلما ذكر البكري الذي أشار إلى أن مدينة إيجلي بالمغرب الأقصى على سبيل المثال مدينة كبيرة سهلية ويوجد غربيها نهر كبير كما كان قصب السكر كثيرا وكان قنطار السكر يبتاع بمثقالين وأقل.[4]

لا شك أن عمل العبيد في مزارع السكر بقي غامضا بالرغم من الإشارات القليلة في هذا الغرض ويبدو أن العمال الموسميين كانوا من اليد العاملة المستعملة في ذلك الصنف من الزراعات مع وجود عدد من العبيد خاصة وأن مؤلف النوادر والزيادات يذكر العمل بالأجرة خلال العصر الأغلبي وفي الفترات اللاحقة بقيت المعلومات محدودة ولا نستبعد تواصل استعمال العمال الأجراء والموسميين.

ج-تربية الماشية:

---

[1]) Deschamps (H), *Histoire de la traite des noirs de l'antiquité à nos jours*, Fayard, 1971, p30.

[2]) البكري،ج2،ص666.

[3]) المالكي، **رياض النفوس**، ج2، ص181، 182. ابن ناجي،***معالم الايمان*** ،ج1 ،ص82 ، "كان عبد الله بن عمر بن الخطاب يتصدّق بالسّكر"

[4]) البكري، نفس المصدر،ج2 ،(1426)،ص854.

وذكر الباحث مالويست أن يد عاملة من السود كانت تشتغل بجنوب المغرب في زراعة السكر، ويذكر أنه في بداية العهد الموحدي كان عبد المؤمن ابن علي قد قتل 3000 من سودان أهل أغمات كما كان ليوسف بن سليمان أحد أصحاب ابن تومرت عبيد كثر في السوس كما أن العرب الطارئين اقتنوا عبيدا كثيرين، ويبدو أن زراعة السكر بالمغرب الأقصى تواصلت خلال كامل الفترة الوسيطة واعتمدت في جزء كبير منها على اليد العاملة من العبيد السود وأوردت المصادر ذلك خاصة في فترة أحمد المنصور الذهبي.

Malowist (M), « Le commerce d'or et des esclaves de Soudan occidental »,*Africana Bulletin*, n°4, Université de Varsovie centre d'Etude Africaines ,1966,p62,65 ; cité par Kodjo Niamkey (G), « Razzias et développement des Etats du soudan occidental »,in *de la traite a l'esclavage*, actes du colloque international sur la traite des noirs, Nantes 1985, édités par Serge Daget, tome -I- : Vé-XVIII siècles, Nantes,1988,p20.

ابن عذاري (المراكشي)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**،تحقيق الكتاني وزنيبر وابن تاويت وزمامة،الدار البيضاء،1985،ج4، ص84، موسى(عز الدين)، *النشاط الاقتصادي*...،ص117.

كما كان هناك اهتمام بتربية الماشية التي أشرف عليها عدد كبير من العبيد فابن يزيد ابن حاتم كانت له غنم كثيرة" وبالرغم أن النص ذكر أن يزيد زجر ابنه على ذلك "وأمر بذبحها وأن تباح للناس" وهو ما حدث مثلما بين ابن عذاري حيث " انتهبوها وأكلوها وجعلوا جلودها في كدية فهي تعرف من ذلك الوقت بكدية الجلود"[1] وقدم أبو العرب صورة أحد السادة الكبار عند تعيينه للقضاء حيث عرض على الناس ما يملكه من ثروة " جمع كل عبد له وماشية فأراهم للناس وقال لهم:" هذا ما أملك" وكانت عبيدا كثيرة ومواشي من صنوف المواشي وقال للناس:" إني قد أحضرت إليكم جميع مالي لأريكم إياه فإن زدت على ما ترون شيئا فأنا خائن" ثم أمر بصرف ذلك إلى منازله التي كانوا بها."[2]

وأوردت المصادر لفظة "منية" التي تحيلنا على مساحة هامة من الملكية على ما يبدو وأشار الرقيق القيرواني إلى "منية الخيل" التي تعني نزهة و تم إحداثها من قبل الوالي يزيد ابن حاتم (155-171هـ/771-787م)[3] ومن الوارد أن هذه المنية التي كان بها إسطبلا لتربية الخيل كانت تحتوي على عدد من اليد العاملة من العبيد الذين كانوا ربما من المولّدين أو السود لأن المصادر لا تشير إلى ذلك.

وذكر الشماخي أن يبيب ابن زلغين وهو من الطبقة الثانية (200-250هـ) كان له ثلاثون ألف ناقة وثلاثمائة ألف شاة واثنا عشر ألف حمار ويبدو من سياق الخبر الذي يقدمه الشماخي أن هذا الشخص كان قد خصص حيا بأكمله لسكنى عبيده وقال صاحب السير "وفي الخبر مر إلى غنمه حتى وصل الحي فنزل مقابل خيمة فنادت امرأة على أخرى: أدخلي الضيف فصاحب المال لا يريد أن يبيت الضيف بلا عشاء فردت عليها الأخرى أن أدخليه أنت فبادرت فأدخلته فلما قدم الرعاة وفيهم من يعرفه وكانوا جميعا عبيدا له أعتق المدخّلة وزوجها ووهب لهما ما بأيديهما من المال."[4]

وبين هذا النص بجلاء وجود عدد هام من العبيد الرعاة لقطعان الماشية وخاصة الإبل التي كانت تمثل أهم وسيلة نقل آنذاك وخاصة في المناطق التي كانت ممرا للقوافل التجارية مثل قسطيلية و سجلماسة وورجلان وغدامس والفزان وجادو وجنوب المغرب الأقصى وغيرها من المدن التي كان تجارها يترددون على بلاد السودان.[5]

---

[1]) ابن عذاري،ج1،ص82.

[2]) أبو العرب،ص167.

Dridi, Les villages...,op-cit, tome1, p54 , voir aussi : p53 la terminologie du mot Manzil.

[3]) الرقيق، تاريخ، ص121، 126، 158، 170، 173. Dridi, ibid, p40.

[4]) الشماخي،ص121 ،122 ،أنظر كذلك ص124-126. وذكر الدرجيني أن أحد فقهاء الاباضيين من الطبقة التاسعة (450-500هـ) باع غنما وعبدا ومطمورة شعير لدفع الدين الذي كان عليه ،الدرجيني(أبو العباس)،**طبقات المشايخ**،تحقيق ابراهيم طلاي،الجزائر،1974،ج2 ،ص402، أنظر كذلك الشماخي،ص376.

[5]) المالكي، رياض النفوس...،ج1،ص474. ، وأشار مؤلف "سيرة جوذر"ص95 ، أن عامل برقة أفلح الناشب بعث عشرين بعيرا هدية إلى جوذر الذي كان يستعملها بدون شك في نقل البضائع من دواخل افريقية لتصديرها نحو صقلية ولا شك أن الاهتمام بهذه الإبل كان موكلا إلى العبيد سواء من الصقالبة أو من السود، كما لا يبدو الوضع مختلفا بالمغرب الأقصى والأندلس: أنظر: بنليح(عبد الاله)،الرق في بلاد المغرب والاندلس،دار الانتشار العربي،2004، ص89.أنظر كذلك ابن ناجي الذي أشار إلى عتق ابن طالب لعبد كان يرعى الغنم. ابن ناجي،ج2 ،ص165.أنظر نفس الرواية في الصفحة الموالية، أما فيما يتعلق بالثروة التي كان

ولدينا إشارة في المصادر تعود إلى القرن الرابع حيث تعرضت بعض العائلات إلى مصادرة أملاكها من قبل جيش أبي يزيد مثلما ذكر القاضي النعمان على لسان أحد المتضررين:"وأنا في منزلي وداري ومعي أهلي وولدي وعندي العبيد كذا ومن البقر كذا ومن الغنم والذخائر كذا والطعام والزيت والزبيب كذا وكذا وعدة أشياء أخرى إلى أن دخل إلينا أصحابك فانتهبوا جميع ذلك حتى لم يبق لي منه قليل ولا كثير وخربوا منزلي وفرقوا أهلي وولدي وقرابتي فلم أجد أحدا أسكن معه فارتحلت بأهلي بعد أن أخذ عبيدي"[1].

وبالرغم من عدم ذكر أعداد العبيد الذين كانوا تحت تصرفه إلا أنه يمكن القول أنه كان يمتلك عددا هاما يقوم بمختلف الأنشطة الفلاحية من حراثة وغراسة وجني ورعي بالأغنام والأبقار التي كان يمتلكها كما تفيدنا هذه الإشارة أن أبا يزيد كان قد اعتمد على العبيد في ثورته لأن النص يورد أن هذه العائلة لم تتعرض إلى السبي.

ولدينا إشارة تعود إلى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ذكر فيها البكري أن بونة الحديثة التي أسست بعد 450هـ كان بغربيها "ماء سائح يسقي بساتينها وهو منتزه حسن..." كما أشار أن "مدينة بونة قرية بحرية كثيرة اللحم واللبن والحوت والعسل وأكثر لحمانهم البقر إلا أنها يصح بها السودان ويسقم البيضان."[2] ويبدو أن أولئك العبيد السود كانوا يقومون بالنشاط الزراعي في تلك البساتين بالإضافة إلى الرعي وتربية البقر.

إن أغلب الإشارات السابقة لم تكن خارج سياقات الأحداث السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة وخاصة علاقة السلطة بالمجتمع حيث أحالت المصادر على وجود أزمات سياسية واقتصادية واجتماعية والتي على ضوئها يمكن فهم مسائل على صلة بموضوعنا.

ففي نهاية الفترة الأغلبية نجد إشارات هامة في المصادر وأبرزها ما ذكره ابن عذاري عند حديثه عن سنة 280هـ "كان تمنع البلاد ومخالفتها على السلطان إبراهيم بن أحمد و انتزاء من انتزى عليه وذلك أن أهل تونس والجزيرة والأربس وباجة وقمودة خالفوا عليه وقدموا على أنفسهم رجالا من الجند وغيرهم لأن السلطان إبراهيم بن الأغلب أخذ عبيدهم وخيلهم وجار عليهم فصارت إفريقية عليه نارا موقدة ولم يبق بيده من أعمالها إلا الساحل والشرق إلى طرابلس."[3]

ومن خلال هذا النص ذكر أحد الدارسين أن مصادرة العبيد والخيل كانت في نفس المناطق التي ثارت سنة 209هـ وكان كبار الملاكين من الجند العرب يتمركزون في هذه المدن ومن خلال العمل العسكري الذي قام به الأمير الأغلبي في المناسبتين كان الهدف منه كسر شوكة الجند العربي العسكرية في سنة 209هـ وفي سنة 280هـ قام بتفزيعها اقتصاديا من خلال مصادرة العبيد والخيل وتضاف هذه المعلومة إلى ما ذكرناه سابقا عن استعمال العبيد في الملكيات الكبرى.[4]

---

يمتلكها ابن طالب والسخاء الكبير الذي كان يتمتع به فيمكن الرجوع إلى ص164-172.

[1]) القاضي(النعمان)،**كتاب المجالس والمسايرات** ،تحقيق الحبيب الفقي وابراهيم شبوح ومُحَمَّد اليعلاوي،دار الغرب الاسلامي،بيروت،1997،ص309 ،310.

[2]) البكري،ص717.

[3]) ابن عذاري، البيان،ج1،ص123.

[4]) بنحمادي(عمر)،"بعض المنعرجات الهامة..."، المرجع السابق، ص89-93.

وخلال الفترة الفاطمية نجد بعض الإشارات الهامة التي تهتم بنفس الملكيات التي ذكرها ابن عذاري أعلاه، وأوردت كتب الرحلة والجغرافيا مميزات جزيرة شريك على سبيل المثال، فابن حوقل الذي تعود ملاحظاته إلى العهد الفاطمي وتتفق مع الفترة التي تمتع فيها الموالي الصقالبة بملكيات كبرى في هذه المناطق[1]، أورد هذا الرحالة أن:

"الجزيرة إقليم له مدينة تعرف بمنزل باشوا واسعة العمل خصبة أوسع من سوسة كل سلطانها دخلا وأكثر منها جباية وأهلا ولها كورة تضاف إليها وغير غلة يعول التجار عليها وبها في غير موضع وخم ظاهر الثقل في مياهها ولا يدخلها غريب إلا مرض وإذا دخلها السودان صلحوا به وصلحت نفوسهم وطابت بالخدمة قلوبهم وجميع الفواكه بها ولباشو أسواق في كل شهر تحضر لأيام معروفة"[2]

وبعد قرن من تأليف ابن حوقل نجد البكري يذكر تقريبا نفس الملاحظات ويقول في هذا الغرض:"جزيرة شريك تنسب إلى شريك العبسي كان عاملا عليها وأم إقليم جزيرة شريك منزل باشو وهي مدينة كبيرة آهلة بها جامع وحمامات وثلاث رحاب وأسواق عامرة وبها قصر أحمد بن عيسى القائم على ابن الأغلب وبجزيرة شريك اجتمعت الروم بعد دخول عبد الله بن سعد بن أبي سرح المغرب...ومن تونس إلى منزل باشو هذا مرحلة بينهما قرى كبيرة آهلة كثيرة وحامة جليلة مجربة النفع ثم من باشو إلى قرية الدواميس مرحلة وهي قرية كبيرة آهلة كثيرة الزيتون والشجر بينهما قصر الزيت ووادي الدمنة وفندق ريحان ووادي الرمان."[3]

كانت أغلب منازل الجزيرة على ملك الموالي الصقالبة ومنهم الأستاذ جوذر الذي كانت له "ضيعة من إقطاع المهدي بالله فاعترض عليه حمزة بن صلوك وكان عاملا على البلد وتسبب إلى رعيته بكل قبيح" ولعل لفظ رعية هنا يفيد العمال الذين كانوا يباشرون العمل تحت إشراف وكيل يمثل السيد المتغيب في هذه الضيعة، كانوا من العبيد مثلما سيتبين لنا ذلك لاحقا.[4]

كما كان لميمون بن فتوح التيفاشي وغانم الكاتب صاحبه منازل على ما يبدو بالجزيرة ذلك أن حاشد البحريين بلخ الصقلبي كان قد تعدى على الأراضي الموجودة بفندق ريحان مثلما فعل الصقلبي غلام كنون بالكاتب المقيم بمنازل صطفورة[5] وترد إشارة أخرى هامة تتعلق بشكوى رفعها جوذر إلى المعز تتعلق بربيع الصقلبي الذي تعدى على ضيعة تعرف بفندق ريحان و تعسف على أهلها وأذل الوكيل الذي هو من قبل الأستاذ جوذر بها وكان ربيع هذا قد خرج لحشد البحريين"[6] كما ورث شفيع الصقلبي المنازل التي كانت كانت لميسور بتونس بعد موافقة المعز شرط أن يدفع كل سنة الضرائب الموظفة على الإقطاع.[7]

إن أغلب هذه الملكيات تقع في المناطق الخصبة ولعل ذلك ما يوضح في جانب كبير منه تلك النزاعات والصراعات التي كانت بين الموالي الصقالبة دون أن

---

[1]) منح المعز مواليه الصقالبة حق الملكية والإرث بالرغم من التحفظ الذي أبداه القاضي النعمان الذي استغرب على حد قوله من هذا القرار، أنظر:القاضي(النعمان)، المجالس والمسايرات،ص360 ،361.

[2]) ابن حوقل(أبو القاسم)، **صورة الأرض**،تحقيق كراموس،ليدن،1932، ص73.

[3]) البكري،**المسالك والممالك**،ج2،ص704 ،705.

[4]) الجوذري(أبو علي)،سيرة الاستاذ جوذر،تحقيق كامل حسين ومُحَمَّد عبد الهادي شعيرة،دار الفكر العربي،1954 ،ص 99.

[5]) نفس المرجع...،ص89.

[6]) نفس المرجع...،ص122 ،104.

[7]) نفس المرجع..،ص95 ،96.

تذكر هذه النصوص التي أشرنا إليها وجود يد عاملة من العبيد لذلك يبدو من المنطقي أن نطرح السؤال الذي يعنينا والمتعلق بحضور العبيد في النشاط الزراعي بعدما قدمنا المعلومات التي على صلة بملكيات مختلف الأراضي الهامة الموجودة في كل من جزيرة شريك وتونس وصطفورة وبقي لنا الإشارة كذلك إلى ملكيات كبرى أخرى لم نذكرها ولكن ذكرت في نصوص أخرى وما سنحاول تقديمه على صلة بصفة خاصة بأعداد العبيد الذين كانوا يكدون في الملكيات الكبرى المذكورة وغيرها وسنقوم بذلك اعتمادا على نصوص مصدرية متداخلة ولكنها قدمت لنا معلومات في غاية الأهمية لأنها ساعدتنا على فهم عديد القضايا المتعلقة بالعبيد المستخدمين في الزراعة.

د-أعداد العبيد المشتغلين بالفلاحة:

من الصعب معرفة العدد الحقيقي للعبيد الذين اشتغلوا في الزراعة غير أننا سنحاول الإجابة عن هذا السؤال استنادا إلى بعض الإشارات الهامة التي نعتقد أنها مفاتيح أساسية لفهم هذا الإشكال، وإذا كانت المسألة تتعلق أساسا بأعداد العبيد من السود والصقالبة على حد سواء الذين وفرتهم التجارة والحرب خلال الفترة الممتدة من القرن الثاني الهجري إلى منتصف القرن الخامس فإننا نجد أنفسنا أمام تتبع الإشارات النادرة في المصادر لمعرفة حقيقة الواقع.

ذكر ابن عذاري أنه "في سنة 279هـ قتل إبراهيم بن أحمد...جميع فتيانه وسبب ذلك أنه كان كثير الإصغاء إلى قول المنجمين والكهنة وكانوا قالوا له إنه يقتله رجل ناقص العقل وأنه يمكن أن يكون فتى فكان إبراهيم إذا رأى أحدا من فتيانه فيه حركة ونشاط وحدة يتقلد سيفا قال: "هذا هو صاحبي" فيقتله فلما قتل منهم جماعة وقع بقلبه أنه قد استفسد إليهم فضمه الحذر منهم إلى قتل جميعهم فقتلهم في هذا العام واستخدم عوضا عنهم السودان ثم عرض لهم منه ما عرض للفتيان الصقالبة: فقتل السودان أجمعين.[1]

وبعد سنة من هذه الحادثة أورد ابن عذاري أن إبراهيم ابن أحمد قام بمصادرة العبيد الذين كانوا في أهم المدن بإفريقية وذكر أن : "فيها(سنة280هـ) كان تمنع البلاد ومخالفتها على السلطان إبراهيم بن أحمد وانتزاء من انتزى عليه وذلك أن أهل تونس والجزيرة والأربس وباجة وقمودة خالفوا عليه وقدموا على أنفسهم رجالا من الجند وغيرهم لأن السلطان إبراهيم بن الأغلب أخذ عبيدهم وخيلهم وجار عليهم فصارت إفريقية عليه نارا موقدة ولم يبق بيده من أعمالها إلا الساحل والشرق إلى طرابلس فحفر حفيرا حول رقادة ونصب عليه أبواب حديد وجمع إلى نفسه ثقاته وقرب السودان من قصره وقد كان جمع منهم خمسة آلاف أسود"[2]

وفي نفس السنة (280هـ) قامت قمودة وتونس وجزيرة شريك وصطفورة على الأمير الأغلبي فجهز لهم ميمون الحبشي وكانت وقائع انجلت عن فتح تونس عنوة وذلك أن أهل قمودة تحركوا لقتال إبراهيم ابن الأغلب فأخرج إليهم ميمونا الحبشي فقاتلهم حتى انهزموا وقتل جماعة منهم ثم فعل أهل تونس فهزمهم ميمون أيضا وهزم أهل الجزيرة وصطفورة وقتل منهم كثيرا حتى سيق القتلى في العجل إلى القيروان ثم دخلت تونس بالسيف لعشر بقين من ذي الحجة فانتهبت الأموال وسبيت الذرية واستحلت الفروج."[3]

---

[1]) ابن عذاري، البيان،ج1،ص122 ،123.

[2]) نفس المصدر،ص123.

[3]) نفس المصدر،ص123 ،124.

كيف يمكن استغلال المعلومات الواردة في النصوص التي ذكرناها في علاقة بالإشكالية التي نبحث فيها؟

ما نلاحظه في هذين الخبرين الأخيرين أن الأمير الأغلبي قام بمصادرة عبيد وخيل كل من تونس والجزيرة والأربس وباجة وقمودة ثم يذكر في آخر النص الأول أن الأمير الأغلبي "قرب السودان من قصره وقد كان جمع منهم خمسة آلاف أسود" و نجد في النص الثاني إشارة إلى أن الأمير الأغلبي ثار عليه كل من قمودة وتونس وجزيرة شريك وصطفورة وهو ما يعني أن كل من باجة والأربس لم ينظما حسب النص إلى المتمردين على الأمير الأغلبي في حين تضاف صطفورة للمنتفضين وهو ما يقودنا إلى إمكانية احتمال أنه تم تجريد كل من باجة والأربس من كل العبيد والخيل في حين لم يقم بذلك العمل كاملا في المناطق الثلاث المتبقية وهي تونس وجزيرة شريك وقمودة.

وأشارت المصادر أن فحص تونس الذي تسميه ببوادي تونس و المتمثل خاصة في بلاد مرناق والذي أقطع لأحد قواد الجيش الفاتح وكانت تعد نحو 360قرية حسب البكري وكان الأمير الاغلبي قد استولى على قرية إبيانة وسلمها إلى عبيده الذين قاموا بتخريبها سنة 275هـ[1] وهو ما يعني أن هذا التمرد من قبل تونس كان ردة فعل عنيفة قد أدت سنة 280هـ إلى مصادرة كل عبيد الملكيات الأخرى وهو ما أدى إلى التمرد وربما تم كذلك التعدي إلى صطفورة لأجل نفس الغرض، كما يمكن القول أن بعض الملاكين الكبار كانت لهم ضيعات أخرى موجودة بتونس وصطفورة وهو ما أدى إلى استباق الأمر خوفا من مصادرة بقية عبيدهم ونعتقد في هذا السياق أن المواجهات لم تكن على ما يبدو يقوم بها السكان وإنما العبيد هم الذين يقومون بذلك نيابة عن أسيادهم أما قمودة التي ثارت فيبدو أن وضعها بقي مثل كل من جزيرة شريك وتونس.

ولكي نفهم عدد العبيد الذين كانوا ولو بصفة تقديرية في هذه المناطق التي تعرضت للمصادرة فإن المصادر ذكرت أنه زمن ثورة الطنبذي 209هـ تم جمع 1000عبد من قسطيلية من قبل المتمردين على السلطة الأغلبية وما نلاحظه أن هذا العدد 1000 ذكر في مناسبتين-إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن عدد العبيد المصادرين من المدن الخمسة السالفة الذكر كان 5000 عبد وهو الأقرب إلى الواقع، ذلك أننا نعلم أن الأمير الأغلبي تخلص من كل عبيده السود والصقالبة حسب المصادر ويمكن القول أن "ثورة الزنج" على ما يبدو كان لها صدى ببلاد المغرب إذ تشير المصادر إلى هروب 5000عبد من الثوار وهو ما يطرح تساؤلا حول هذا الرقم كما أن الثورة لم يتم القضاء عليها إلا في سنة 270هـ[2] وبعد عشر سنوات قام الأمير الأغلبي بمصادرة العبيد والخيل وبالتالي فإن ما أشير إليه أن إبراهيم الثاني كان يصغي إلى المنجمين الذين ذكروا له بأن قاتله سيكون عبدا ليس مستبعدا لأن ثورة الزنج أثرت بالفعل في الواقع العباسي وحتى ببلاد المغرب على ما يبدو.

[1]) المالكي،ج1،ص384 ، أبو العرب،ص228 ، وذكر ابن ناجي،ج2 ،ص173 ، أن سبب محنة ابن طالب "أنّه نظر إلى ما فعل إبراهيم ابن الأغلب من الفسوق والاستطالة على المسلمين وإباحته للسودان نساء إبيانة حين امتنع أهلها من بيعها" البكري، المسالك...،ج2 ،ص693 ،694.حسن (محمد)، المدينة والبادية في العهد الحفصي،جامعة تونس الأولى، تونس،1999 ،ج1 ،ص323، بن حمادي (عمر)، نفس المرجع السابق، ص93.

[2]) Renault (F), Op.cit, p45.

إن هذه الاستنتاجات تبدو مبالغ فيها ولكنها مقبولة إلى حد ما فكيف يمكن تدعيمها من خلال نصوص أخرى تعود إلى الفترة الفاطمية والصنهاجية؟

تشير المصادر إلى ظهور خطة في بداية العهد الفاطمي تسمى "حاشد السودان والبحريين" فما معنى هذه الخطة وهل هي جديدة بالفعل أم هي تواصل لموروث أغلبي وربما يعود إلى فترة الولاة؟

تبدو هذه الخطة غامضة ولكن تعني كلمة حاشد الشخص المكلف بجمع العبيد السودان والبحريين بالقوة وللأسف نجد معلومات كذلك قليلة تخص هذه المسألة وسنورد بعض ما ورد في المصادر، ولكن لدينا سؤال مركزي يتمثل في الأسباب التي تدفع السلطة لحشد العبيد السود والبحريين؟

ما هي النصوص التي أشارت إلى هذه الخطة وكيف يمكن ربط هذه الخطة بالأفكار التي أوردناها سابقا؟

بالنسبة إلى النّصوص التي أوردتها المصادر فسنذكرها تباعا، فالمالكي أشار في مؤلفه رياض النفوس:"ذكر الشيخ أبو علي حسن بن حمود التونسي المعروف بالفوني قال: حدثنا أن عبيدا الذي بنى المهدية أخرج من المهدية صقلبيا له عنف وسلطة ووجه مع عسكر لحشد البحريين والزويليين فحشد من تونس وباديتها وصطفورة خلقا عظيما وجاز بهم على قصر الحامة فوجد قوما من أهل القصر يسقون على البئر فقرهم (سبهم) فجرى أهلوهم إلى عمرون الأسود الحامي (ت339هـ) مستغيثين به فخرج عمرون وقطع قدام الصقلبي الخيل وأشار بعصاه فانهزم الصقلبي وخيله...ووصل الصقلبي إلى المهدية وليس أحد معه من المحشودين.."[1]

ويضيف المالكي:"قال لي أبو رزين الأسود الجمونسي المتعبد الساكن بجمونس (ت337هـ) حشدني حاشد السودان قديما إلى رقادة فبذل أهل البلد للحاشد دينارين ليتركني فأبى بكل حيلة فأخذني ومضى بي إلى رقادة وأبو معلوم الكتامي يسمي الناس المحشودين فلما قربت منه نظر إلي وقال: من أمركم أن تجيبوا هذا؟ وهو لا يعرفني وقال: جيبوا دواة وقرطاسا وكتب يا معشر الحشاد لا تعرضوا لأبي رزين هذا في أي بلاد كان وأطلقني وأمر بالحاشد أن يعلق ويضرب"[2]

وأشار مؤلف مناقب أبي إسحاق الجبنياني "قال أبو القاسم: حل بالموضع حسنون الذي كان حاشدا وصاحب أسطول السلطان في عسكر عظيم وصقالبة ومعه خلق من البحريين والزويليين في السلاسل".[3]

ويضيف"وكنا أوينا إلى قصر بقرب جبنيانة فخرج إلينا رجل فنظرنا من أعلى القصر حتى رأينا السودان يخرجون من ناحية جبنيانة "[4] أما سيرة جوذر فأوردت الخبر التالي "وكان قد أخرج عليه السلام صقلبيا على يد حسن بن رشيق في تحريك العبيد الزويليين إلى الباب الطاهر وكان من فعل الصقلبي في المنازل التي للأستاذ ما لا يجب فكتب إلى مولانا صلوات الله عليه يعرفه بذلك وأفرط في الشكية[5]

ومع بداية الفترة الصنهاجية أشار ابن عذاري أنه "في شهر الحجة من سنة 365هـ أمر أبو الفتوح العامل على إفريقية واليه عبد الله بن مُحَمَّد الكاتب أن يقيم أسطولا معدة من الرجال والسلاح فخرج عبد الله

[1]) المالكي، رياض النفوس، ج2، ص381، 382.

[2]) نفس المصدر، ج2، ص367، 368.

[3]) اللبيدي، مناقب...، ص33.

[4]) نفس المصدر،ص73.

[5]) الجوذري، سيرة...،ص104.أشرنا سابقا إلى حاشد البحريين من صطفورة والجزيرة مثلما ذكر في ذات المصدر ص89.

إلى المهدية وأخذ في حشد البحريين في كل بلدة وأمر أن يؤخذ كل من لقي منهم بالقيروان وغيرها وملأ بهم السجون وأدرك خاصة البلد وعامّتهم من الخوف ما لزموا له البيوت وانتهى حالهم إلى أنه إذا مات أحد عندهم لا يخرجه إلا النساء"[1] ولا نستبعد تواصل نفس هذه العادة في الفترات اللاحقة ذلك أن الأمير المرابطي علي بن يوسف التجأ سنة 523هـ إلى مالكي العبيد لدعم جيشه ف"قسّط على الرعية سودانا يغزون في العساكر وكان قسط أهل فاس منها ثلاثمائة غلام من سودانهم برزقهم وسلاحهم ونفقاتهم"[2]

إن المعلومات الخاصة بعملية حشد العبيد هي التي تمكننا من فهم مسائل هامة على صلة بالموضوع الذي نبحث فيه ويتعلق الأمر أساسا بمدى مطابقة المناطق التي ثارت ضد إبراهيم ابن الأغلب والطريق الذي اتبعه حاشد السودان والبحريين.

إذا حاولنا اعتماد النصوص المتوفرة والمتعلقة بالحشد الذي تحدثت عنه المصادر نجد في مناقب أبي إسحاق الجبنياني إشارة إلى خروج الحاشد من المهدية وعند وصوله إلى منازل جبنيانة يذكر أن العبيد الصقالبة والسود كانوا مصفدين في السلاسل وهو ما يعني أنه تم جمع العبيد من منازل أخرى تقع بالقرب من المهدية ثم ذكر العبد المتعبد أنه تم حشده من جمونس الصابون الموجودة اليوم بولاية سيدي بوزيد وهي أراضي كما هو معلوم فلاحية ونجد بعد ذلك إشارة إلى الحامة والجريد بصفة عامة كما نشير أن الفقرة التي تحدثت عن جمونس الصابون تشير إلى حشد العبيد إلى رقادة حيث كان يتم تسجيل الأسماء على ما يبدو وما يمكن استنتاجه هو التالي:

تبدأ عملية الحشد بالخروج من المهدية باتجاه الملكيات الموجودة في جنوب العاصمة الفاطمية ويتبع الحاشد الطريق التالي: المهدية-جبنيانة- جمونس الصابون- واحات الجريد ثم التوجه إلى رقادة بالقيروان ومنها يمكن أن يسلك الطريق باتجاه المهدية حيث تكون أمامه أغلب الملكيات الموجودة في الساحل والمتمثلة في المسروقين ومنزل بني هنغلات وصولا إلى المهدية ويمكن أن نعتبر هذا هو الطريق الجنوبي الذي يسلكه الحاشد.

أما الطريق التي تخرج باتجاه الشمال فتكون من المهدية-سوسة-منزل باشو-تونس-صطفورة-باجة-الأربس-القيروان-المهدية وبناءا على ذلك يمكن القول أن الحشد كان يقوم به أكثر من واحد حيث ذكر في مناقب الجبنياني اسم حسنون وريان الصقلبي في فندق ريحان وصطفورة ويلتقي الحاشدان في القيروان ليعودا سويا إلى المهدية.

وبالعودة إلى النص الثاني للمالكي المذكور أعلاه شد انتباهنا معلومة هامة تذكر أن الحاشد "أبو معلوم الكتامي يسمي الناس المحشودين" وتفيد هذه الإشارة أن هناك تدوين بأسماء العبيد المحشودين وهو ما يقودنا إلى بعض الاستفسارات لماذا يتم تسجيل أسماء العبيد السود والصقالبة؟

---

[1]) ابن عذاري،ج1 ،ص229.

[2]) ابن القطان(أبو الحسن علي بن مُحَمَّد)،**نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**،تحقيق محمود علي مكي،دار الغرب الإسلامي،بيروت،1990 ،ص152 ، موسى(عز الدين)، النشاط الاقتصادي في المغرب والأندلس خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق،بيروت القاهرة،1983،ص117. بنميح، الرق في بلاد المغرب...، المرجع السابق، ص526.

أوردت الرواية أن صاحب الخبر هو عبد معتوق أصبح متعبدا وتوفي سنة 337هـ ويبدو هذا التاريخ غير بعيد عن حدث هام وقع سنة 336هـ وتمثل في نهاية ثورة أبي يزيد الذي اعتمد على العبيد كما بيّنا سابقا.

وأورد النص الآخر الخبر المتعلق بحشد البحريين والزويليين في نفس الفترة تقريبا حيث تذكر الرواية تدخل أحد العبيد المعتوقين كذلك لدرء خطر أحد الصقالبة في مدينة الحامة الذي كان معه عدد هام من العبيد السود والصقالبة وهو ما يعني كذلك أن عمليات الحشد كانت تتم حسب حاجة الدولة إلى أولئك العبيد وبالتالي فإن العبيد الذين كانوا في خدمة الملاكين الكبار لم يكونوا دائما تحت يد مالكيهم وهو ما يعني أن عبيد الزراعة هم أنفسهم يقومون بالعمليات العسكرية إلى جانب القواد المخيرين من الصقالبة أو من السود إذا استثنينا أعدادا من العبيد الحرس الذين كانوا في القصور وهو ما يقودنا إلى الحديث عن عمليات استنجاد السلطة بهؤلاء في أي وقت شاءت.

تقودنا الإشارات التي ذكرها ابن عذاري وغيرها من المصادر كذلك الإجابة عن أسئلة أخرى بعدما تأكد لنا وجود عدد هام من العبيد السود والصقالبة في العمل الفلاحي، أن خطة حاشد العبيد تحيلنا على علاقة السلطة بالمجتمع من خلال عمليات التوتر التي كانت نتيجة مصادرات الملكيات الكبرى أو كذلك مصادرة للعبيد الذين كانوا على ذمة الإقطاعيين وهو ما حدث في الفترة الأغلبية والفترة الفاطمية والصنهاجية.

إن هيمنة السلطة خلال كامل الفترة المدروسة يقودنا إلى الاعتقاد أن العبيد الذين كانوا يوردون من بلاد السودان وعبر الأندلس وصقلية كانوا في جزء كبير منهم خاضع لإشراف الدولة أو تحت رقابتها وهو ما يخول للتجار العاملين بهذا القطاع يكونون في غالب الأحيان تحت رحمة تصرف الدولة وموالين لها وهو ما يعني أننا إزاء إشكال آخر يتمثل في المشرف على عمليات شراء العبيد الذين سيكونون تحت تصرف الدولة وهي إشارات لا نجد لها أي أثر وإنما تكتفي المصادر بالحديث عن "شراء" العبيد و"اتخاذ المماليك" إذا ما استثنينا سنة 373هـ حيث تذكر المصادر أن عبد الله بن مُحَمَّد الكاتب عامل إفريقية أشرف بنفسه على شراء العبيد من السودان.[1]

وما يمكن قوله أن هناك حلقات مسترسلة في انتقال السلطة من الأغالبة إلى الفاطميين ثم الصنهاجيين حيث تم الاعتماد على نفس السياسة الأغلبية وربما سياسة الولاة أنفسهم وتتمثل في شراء العبيد من قبل الدولة وتقول المصادر أنه تم في بداية الحكم الفاطمي اتخاذ العبيد السود والروم وأشار ابن الخطيب إلى شراء 12000عبد رومي وحبشي ونعلم أن الفاطميين بقوا بإفريقية إلى سنة 358هـ مما يعني أن نفس العبيد تقريبا بقوا إلى آخر الوجود الفاطمي بالإضافة إلى احتفاظ الفاطميين بعدد هام من العبيد الذين كانوا للأغالبة.

وتخبرنا المصادر أن هناك تزامن بين شراء العبيد من قبل الفاطميين وظهور خطة "حاشد العبيد" فماذا يعني ذلك؟ ألا يحيلنا هذا إلى أن الدولة كانت تشتري العبيد وتقوم ببيعهم إلى أغلب الملاكين الكبار ثم تستدعيهم لأي عمل أرادت من خلال الحشد الذي كان يقوم به الصقالبة على وجه التحديد حسب المصادر؟ وهل يمكن القول أن العدد الكبير من

[1]) ابن عذاري،ج1،ص238.

العبيد كانوا يقومون بالنشاط الزراعي والحربي في نفس الوقت.؟[1]

و خلاصة القول إذن أن وظيفة الحشاد ظهرت مع بداية الفترة الفاطمية واتبعت طريقة "المصادرة" التي توخاها الأغالبة ولكن الحشد هو بمثابة "حرب استباقية" تقوم بها السلطة ضد أصحاب الملكيات الكبرى وذلك يعني أساسا أننا إزاء عملية استعادة نفس النهج الذي سلكه الأغالبة وبالتالي فإن الحشد كان مسبوقا بمعرفة دقيقة لعدد العبيد الذين كانوا على ذمة الملاكين الكبار مثلما ذكر نص المالكي أن الحاشد "يسمي الحشاد" وربما يعني هذا اللفظ أنه يتم تسجيل أسماء العبيد لأنه يجب أن يكونوا لفائدة الدولة أولا وهو ما يمكن أن نسميه الإقطاع على شاكلة مغايرة لما تعارف عليه في المشرق.

إن تقزيم دور الإقطاعيين الكبار من خلال عملية مراقبة للعبيد بشكل دوري يفيدنا في مسألة هامة جدا تتمثل في الآتي: السلطان هو السيد الأوحد إلى جانب حاشيته والمقربين جدا منه ولعل ذلك ما يبيح لنا القول أن استعمال اليد العاملة من العبيد كان يتم تحت إشراف الدولة وهو ما يعني كذلك أن الضرائب الموظفة على امتلاك العبيد والتي أشار إليها القابسي[2] تعني أن هناك نقص في عدد العبيد كما يمكن أن تدلنا هذه الإشارة إلى أن الدولة هي التي تبيع العبيد أو تقوم بكرائهم إلى هؤلاء الملاكين الكبار وإن كانت استنتاجاتنا ربما مغال فيها فإن الواقع من خلال النصوص يبدو كذلك.

ويبدو أن أعداد العبيد السود قد شهد بين فترة وأخرى تراجعا ملحوظا وقد ارتبط ذلك في جزء كبير منه بالظروف السياسية والاقتصادية والتغيرات التي طرأت على المجال الإفريقي بالإضافة إلى التطورات الداخلية للمجتمع الاباضي نفسه الذي كان قد مر بعدة هزات نتاج الصراعات داخل المذهب.

يمكن القول أن الاعتماد على اليد العاملة من العبيد بإفريقية و بلاد المغرب كان قد شهد فترات مد وجزر متباينة ومثلما بينا سابقا فإن فترة الولاة بصفة خاصة وبداية الفترة الأغلبية كانت اليد العاملة من العبيد حاضرة في عديد الأنشطة الفلاحية في منطقة كانت تعتمد على الإنتاج الفلاحي أساسا مثل تربية الماشية بمختلف أصنافها وتربية الجمال وسيلة النقل الأساسية في تلك الفترة وخاصة بالجريد وجبل نفوسة وحيث توجد السباخ كما كانت الواحات مجالا هاما لاستغلال العبيد السود بالإضافة إلى جني الزيتون وحراثة الأرض والحصاد وزراعة الأشجار المثمرة في كل من الساحل والقيروان وجزيرة شريك وتونس وصطفورة وباجة وهذه الاستنتاجات كان قد أكد عليها كذلك كل من الأستاذين مُحَمَّد الطالبي والهادي التيمومي غير أنه ابتداء على الأقل من فترة إبراهيم ابن أحمد الأغلبي اتبعت الدولة على ما يبدو سياسة أخرى تمثلت في احتكار امتلاك العبيد وكرائهم أو بيعهم إلى الملاكين الكبار الذين يبقون دائما تحت رحمتها.

وفرض ذلك الوضع على الملاكين الكبار اللجوء رغما عنهم إلى يد عاملة بالإجارة أو كذلك الشركات

---

[1]) Meillassoux (Cl), *Anthropologie de l'esclavage le ventre de fer et d'argent*, Presse Universitaire de France, Paris, 1986, p203-234.

أشار المؤلف أن المجتمعات الإفريقية الاستعبادية كانت تعتمد على نفس العبيد في العمل الزراعي والحربي على حد سواء فهل نحن بصدد تماثل للوضعية التي وجدت في كل من إفريقيا السوداء وافريقية خلال تلك الفترة؟

[2])إدريس، الدولة الصنهاجية،ج2 ،ص228 ،229.

الفلاحية وهو ما يعني أن مختلف أوجه استغلال الأرض كان مرتبطا بالدولة باعتبارها هي المالكة الوحيدة للأرض وهي التي تقسّط على الناس أرزاقهم ولعل الإشارات التي نجدها في كتابات الفقهاء إلى الشركة ومختلف طرق استغلال الأرض تحيل إلى ارتباط التشريع بالسّلطان وتعكس تلك الكتابات واقع الفترة كما ترشدنا إلى تعقّد الملكية بإفريقية[1].

**2) العبيد وبناء المنشئات العامة:**

من المؤكد مشاركة العبيد في عمليات البناء والتشييد حيث أشارت المصادر إلى مساهمة العبيد في بناء مدينة تاهرت الاباضية وتحدث الشماخي عن عبد الرحمان بن رستم مؤسّس الإمارة قائلا: "كان فوق دار يطينها والعبيد يناولونه الطين." [2] ويبدو أن الأغالبة اعتمدوا على العبيد كذلك في بناء القصور والمرافق العامة في المدن مثل بناء القصر الأبيض من قبل الأمير الأغلبي إبراهيم ابن عبد الله (184-197هـ/800-812م) الذي استعمل لهذا الغرض خمسة آلاف عبد أسود كما قام هؤلاء على ما يبدو ببناء الأسواق والحمامات والجوامع ودار ضرب العملة والثكنات العسكرية في العباسية[3]. ونسب إلى الأمير أبي ابراهيم أحمد 242-249هـ بناء عديد الحصون التي قدرت ب10آلاف حصن وليس مستبعدا أن يكون العبيد قد ساهموا في بناء تلك الحصون حيث اشترى العبيد في نفس الفترة [4]. وذكرت النقائش أسماء بعض الخدم والموالي الذين أشرفوا على عمليات الترميم والبناء.[5]

ولا شك أن الفاطميين قد استعملوا العبيد كذلك لتشييد المباني العامة للخلفاء مثلما أشارت إلى ذلك المصادر حيث تم اعادة استعمال مواد بناء قديمة[6] إضافة إلى مد القنوات وبناء الخزانات التي شارك فيها العبيد على ما يبدو [7]

خلاصة القول إذن أنّ فترة العصر الوسيط المبكّر تميّزت من خلال عرضنا السابق بكثرة عدد العبيد السود وتم استخدام قوة عملهم في بناء مختلف المنشئات التابعة للدولة أو الكيانات السياسية الخارجية التي أسست قبل الدولة الأغلبية كما يعود الفضل إلى العبيد السود على ما يبدو في بناء المرافق الدينية والمدنية للمدن التي تواجدت على الطرقات التجارية مثل بلاد الزاب والجريد وقد واصل كل من

---

[1]) ويمكن أن نشير أن عدم الإجابة من قبل الفقهاء على الوضع القانوني للأراضي بإفريقية بعيد الفتح يبدو أنه لا يخلو من مبالغة قد تكون في جزء كبير منها بدافع سياسي واقتصادي بشكل خاص لأنها تتيح الفرصة أكثر للمصادرة من قبل الدولة والجماعات المتحالفة معها مما أسهم في تدعيم استبداد الجهاز الحاكم وساهم على ما يبدو في خلق مجتمع طيع ورخو له سمة استعبادية.

[2]) الشماخي، كتاب السير..،ص45. الدرجيني،ج1،ص45. الورجلاني(أبو زكريا)،**كتاب السيرة وأخبار الأئمة**،تحقيق عبد الرحمان أيوب،الدار التونسية للنشر، تونس،1985،ص88.وذكر الدرجيني أن عبد الرحمان ابن رستم حين خرج من القيروان هاربا كان يُحمل على ظهر عبده وابنه عبد الوهاب. الدرجيني،ج1 ،ص35 ،36. الورجلاني، نفس المصدر ،ص76.

[3]) الطالبي، الدولة الأغلبية...،نفس المرجع،ص157.الرقيق، ص187. ابن الأثير(عز الدين)،**الكامل في التاريخ**،دار صادر،بيروت،2005، المجلد السادس، ص155، 156.ابن عذاري، البيان،ج1،ص92 ،93.

[4]) ابن الأثير، المجلد السادس، ص519.

[5]) الحنزولي(نصر)،المجتمع بإفريقية من خلال النقائش في العصر الأغلبي،شهادة الدراسات المعمقة في تاريخ وحضارة العالم المتوسطي، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة،2004 ،ص87.

[6]) القاضي(النعمان)، كتاب المجالس والمسايرات،نفس المصدر،ص306.

[7]) نفس المصدر،ص510.

الفاطميين والصنهاجيين اعتماد اليد العاملة من العبيد السود أساسا والعبيد الصقالبة في البناء والتشييد وحتى وإن كانت المعلومات التي ذكرتها المصادر في هذا الغرض لا تفي بالحاجة لتأكيد ما ذهبنا إليه إلا أن الإشارات التي أوردتها المصادر تجعلنا نعتقد أن حضور العبيد كقوة عمل في مختلف أشغال البناء ليس مستبعدا نظرا لأعدادهم الهامة التي كانت تخول للدولة الالتجاء لهم قصد استعمالهم في تنفيذ مشاريعها دون مقابل وفي أسرع وقت ممكن وهذا ما يجعلنا نأسف لعدم وجود معلومات تتعلق بحظائر البناء والحياة اليومية للعبيد والمأكل والملبس وطرق العمل المتبعة ومعاملة العبيد.

### 3) العبيد والنشاط الحرفي.

استفاد أصحاب الحرف على ما يبدو من وفرة عدد العبيد بإفريقية خلال الفترة التي تعنينا (من فترة الولاة إلى العصر الفاطمي) وكانت قوة عملهم توفر بدون شك أرباحا هامة للسيد كما جسّد العبيد حلقة ربط بين أصناف مختلفة من الأذواق بحسب أصولهم الجغرافية ومن ناحية أخرى فإن القيام بالنشاط الحرفي كان يتطلب المهارة الكافية وهو ما يدعونا إلى القول أن العبيد قد صنفوا آنذاك حسب معرفتهم بالحرف التي يتقنونها.

ذكرت لنا المصادر بعض الإشارات التي تتعلق بالعبيد الحرفيين خاصة في الفترة الفاطمية وقد ذكر القاضي النعمان بعض الرسائل التي بعث بها الخليفة المعز إلى نظيره الأموي الناصر وما شد انتباهنا في هذه الرسالة افتخار الأموي بما يحاك له في بلد الأندلس من الخز والوشي وأصناف الثياب فرد المعز "ولو كان ذلك مما يفخر بمثله لكان عندنا من الطراز أنواع الأعمال البديعة والصنعة العجيبة لا يشك من رآه أنه ما رأى مثله مما يعمله **عبيدنا** الذين أفاء الله عز وجل بهم علينا **من سبي الروم** بأسيافنا دون من فخر هو بمثله من سائر الرعايا"[1]

و أشارت المصادر إلى وجود صنفين من العبيد يقومون بصناعة الطراز:

- العبيد الرقّامين: الذين طلب منهم الخليفة المعز تثبيت اسم أحد مواليه المخلصين جوذر في الطراز بالذهب فيما يلبسه الأئمة.
- العبيد الحصريون: الذين تميزوا بإتقانهم الكبير لعملهم "المعجزة" على حد تعبير الجوذري في سيرته الذي أضاف أن "أمير المؤمنين المنصور بالله معجبا بأعمال هؤلاء العبيد وكثيرا ما كان يأمر بحفظهم ويقول:"إن أعمالهم رياض مؤنقة"[2]

ولعل أهمية تلك المنسوجات المحكمة الصنعة والراقية يمكن أن تساعد على دراستها من جوانب عديدة لأنها تحتوي على تاريخ الصنع ومكانه (المهدية آنذاك) واسم المولى المكلف بالإشراف على العبيد الحرفيين وربما كان بعض العبيد قد تجرأ لكتابة اسمه أو أصله أو أي علامة تساعد على استقرائها غير أننا لا نعلم هل بقي منها نماذج أم أتلفها الزمن.[3]

وبالرغم من الإشارات النادرة الخاصة بأولئك العبيد إلا أن أوضاعهم الاقتصادية والدينية وظروف عملهم كانت بدون شك مزرية وقد ذكرت لنا سيرة جوذر أنه "رفع إلى مولانا عليه السلام أن وصفاء من الرقامين كانوا قد أسلموا ثم ارتدوا عن الإسلام"

---

[1]) القاضي النعمان، المجالس والمسايرات...،ص167.

[2]) الجوذري، سيرة...، ص52، وذكر في صفحة 88 أنه تم صناعة ملابس وحصر لأحد الموالي الذين أسروا.

[3]) نفس المصدر،ص89.

وخاطب المعز مولاه جوذر بأن يكتب "إلى **نصير** بأن يقبض على **هؤلاء المرتدين** ويسجنهم ويشهد عليهم العدول فإن رجعوا إلى الإسلام أشهد عليهم وأطلقهم وإن أقاموا على **النصرانية** جدد الأعذار إليهم والإنذار لهم مرات في أيام مختلفة فإن عادوا إلى غيهم أخرجهم وقطعهم إربا إربا على أعين الناس أجمعين ليكون شنعة لغيرهم ويعرفهم في حين الإنذار في الأوقات الثلاثة أنهم إن أصروا كانت هذه عاقبتهم ثم يكون العمل من بعد على ما ذكرنا إلا أن يتوبوا إن شاء الله."[1]

- عبيد المنسج: لا شك أن عددا كبيرا من الخدم والجواري كانوا يستغلون في الأعمال الحرفية التي يتقنها العبيد حيث تدر أرباحا على السيد وكان الفقهاء قد فضلوا العبيد الذين لهم مهنة على غيرهم ونظرا لوفرة المواد الرئيسية لحرفة النسج (الصوف، والوبر) فإن المدن والقرى استغلت معرفة العبيد بتلك الحرفة التي كانت تدر على السيد أموالا هامة ولدينا مثال على ذلك في إحدى المناطق البربرية التي تميزت بنسج حاجياتها وتصدير منتوجها وأشارت المصادر إلى وجود عدد من الجواري كن يشتغلن لحساب امرأة من جبل نفوسة وكان عددهن ثلاثة عشر جارية كن خلف المنسج وكانت السيدة "الصالحة" قد أعتقتهن حسب النص تكفيرا عن ذنب ارتكبته[2] .

ويبدو من خلال العدد المشار إليه أن هناك بدون شك جوار أخريات كن مثل زميلاتهن في منازل أخرى سواء في المناطق الخارجية أو السنية أو خلال الفترة الشيعية وأدى هذا الاختلاف المذهبي إلى تنوع في المنتوج الحرفي عامة، مثل الموروث البربري الذي بقي محافظا عليه في المناطق "الطرفية" لإفريقية ولا يزال إلى اليوم موجودا في ذات المناطق أما المناطق السنية فنعني بها أساسا ما تم جلبه من قبل العرب الفاتحين وخاصة بعدما تم ترتيب الأسواق وتقسيمها في مدينة القيروان منذ فترة حكم يزيد ابن حاتم.

- العبيد المشتغلين بالسكة: وتذكر لنا المصادر منذ الفترة الأغلبية وكذلك العهد الفاطمي أن عبيدا اشتغلوا في دور السكة وتركت العملة الأغلبية أغلب أسمائهم باعتبارهم مشرفين على ضرب العملة حيث وجد اسم موسى الذي كتب اسمه أسفل اسم إبراهيم الأول واسم مسرور الذي كتب اسمه أسفل اسم زيادة الله الأول وخطاب الذي كلف به الأمير الأغلبي على حد عبارة المصادر حيث وجد اسمه مكتوب في العملة أسفل اسم زيادة الله الثالث أما في الفترة الفاطمية فقد عرف علوش السكاك الذي كان يقوم بسك العملة[3].

كما اشتغل العبيد في العديد من الحرف الأخرى ومنها استخراج النحاس والذهب إضافة إلى استخراج

---

[1]) الجوذري، سيرة...،ص126.

[2]) الشماخي،السير...،ص177، يمكن الرجوع كذلك إلى: محمود(خالد حسين)،"الرقيق والنشاط الحرفي ببلاد المغرب خلال القرون الأربعة الأولى للإسلام"،*مجلة الانسان والمجال*،المركز الجامعي نور البشير بالبيض،الجزائر،عدد5 ،أفريل 2017،ص81.

[3]) محمود(خالد حسين)،"الرقيق والنشاط الحرفي ببلاد المغرب..."،نفس المرجع السابق ،ص72.

الملح مع الاشارة أن سحنون بن سعيد كانت له ملاحة يعمل بها العبيد، كما عمل الرقيق في صناعة الخبز وصناعة المراكب وجلب الخشب كما عمل الصقالبة في صناعة نوع من المراكب يعرف بالصنادل وغير ذلك من الحرف الأخرى[1].

**الخاتمة.**

حاولنا في هذا العرض أن نبين إلى أي مدى تم الاعتماد على العبيد في النشاط الزراعي والبناء والحرف وتناولنا المسألة انطلاقا مما وفرته لنا المصادر فتبين لنا أهمية حضور العبيد في مختلف تلك الانشطة الاقتصادية كما حاولنا الاجابة على العديد من الاسئلة.

كان استغلال العبيد متفاوت الاهمية في الأنشطة التي ذكرناها ولكن الملفت للانتباه حضور العبيد منذ فترة الولاة ثم في الفترات اللاحقة حيث أصبحت التشريعات تكتسي صبغة خاصة في الحديث عن العبيد نظرا لوجود نظام عبودي جديد يتلائم مع ثقافة العرب المسلمين الذين فتحوا افريقية واستقروا بها وبالتالي ربط إفريقية وبلاد المغرب بالمشرق من خلال طرق استغلال العبيد والارض.

لقد ساهمت أعداد هامة من العبيد في مختلف الأنشطة الزراعية كما ظهرت عديد الملكيات الكبرى التي استحوذ على أغلبها في البداية "الأرستقراطية العربية ثم تحولت تلك الملكيات إلى ملاكين عقاريين آخرين ومن بينهم الصقالبة في الفترة الفاطمية وهو ما يحيل على تغير الملاكين العقاريين وتواصل طرق استغلال تلك الاراضي مستخدمين في ذلك العبيد السود بشكل خاص.

وتبقى فرضية وجود اعداد هامة من العبيد السود والبيض في المجتمع خلال الفترين الأغلبية والفاطمية فرضية صحيحة وخاصة في النشاط الزراعي حيث الملكيات الكبرى في الجنوب والوسط والشمال مثلما حاولنا أن نبين ذلك لنؤيد ما ذهبت إليه آراء الباحثين من قبلنا وهو ما يعني يمكن أن نميز بين أصناف العبيد حيث وجد العبيد الريفيون والعبيد الحضريون إضافة إلى توزع استغلال العبيد في مختلف الأنشطة الحرفية التي كانت موجودة بإفريقية ما بين القرن الأول والقرن الرابع الهجري.

**المصادر والمراجع.**

**المصادر.**

ابن الاثير(عزالدين)،الكامل في التاريخ،دار صادر،بيروت،2005،المجلد6.

ابن القطان(أبو الحسن)،نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان،تحقيق محمود علي مكي،دار الغرب الاسلامي،بيروت،1990.

ابن حوقل(أبو القاسم)،صورة الأرض،تحقيق كراموس،ليدن،1932.

ابن عذاري(المراكشي)،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،تحقيق ج.س كولان وليفي بروفنصال،دار الثقافة،بيروت،1983،ج1.

[1]) نفس المرجع،ص83،71،70 ،85.

ابن ناجي(أبو الفضل)،معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان،تحقيق ابراهيم شبوح،المكتبة العتيقة،1968،ج1-2.
أبو العرب(التميمي)،طبقات علماء إفريقية وتونس،تحقيق علي الشابي ونعيم حسين اليافي،الدار التونسية للنشر،1985.
البكري(أبو عبيد)،المسالك والممالك،تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري،الدار العربية للكتاب،1992،ج2.
الجوذري(أبو علي)،سيرة الأستاذ جوذر،تحقيق مُحَمَّد كامل حسين ومُحَمَّد عبد الهادي شعيرة،دار الفكر العربي،1954.
الدرجيني(أبو العباس)،طبقات المشايخ،تحقيق ابراهيم طلاي،الجزائر،1974.
الرقيق(أبو اسحاق)،تاريخ إفريقية والمغرب،تحقيق عبد الله العلي الزيدان وعزالدين موسى،دار الغرب الإسلامي،بيروت،1990.
الشماخي(أبو العباس)،كتاب السير،تحقيق ودراسة مُحَمَّد حسن،كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس،1995.
القاضي(النعمان)،المجالس والمسايرات،تحقيق الحبيب الفقي وابراهيم شبوح ومُحَمَّد اليعلاوي،دار الغرب الاسلامي،بيروت،1997.
اللبيدي(أبو القاسم)،مناقب الجبنياني،نشر الهادي روجي ادريس،المنشورات الجامعية ،فرنسا،1959.
المالكي(أبو بكر)،رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم،تحقيق البشير البكوش ومُحَمَّد العروسي المطوي،دار الغرب الإسلامي،بيروت،1983،ج1-2.
الورجلاني(أبو زكريا)،كتاب السيرة وأخبار الأيمة،تحقيق عبد الرحمان أيوب،الدار التونسية للنشر، تونس،1985.

## المراجع.

ادريس(الهادي روجي)،الدولة الصنهاجية ،تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10إلى القرن12م،نقله إلى العربيةحمادي الساحلي،دار الغرب الإسلامي،بيروت،1992،ج2.
بنحمادي(عمر)،"بعض المنعرجات الهامة في أوضاع الملكيات الزراعية في إفريقية في فترة تاريخها الوسيط"،*مجلة دراسات تاريخية*،عدد43-44،مارس،جوان،1992.
بنمليح(عبد الاله)،الرق في بلاد المغرب والأندلس،دار الانتشار العربي،2004.
التيمومي(الهادي)،الغائب في تأويلات العمران البشري الخلدوني،دار مُحَمَّد علي للنشر،صفاقس،2007.
جعيط(هشام)،تأسيس الغرب الإسلامي،دار الغرب الإسلامي،بيروت،2003.
حسن(مُحَمَّد)،المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي،جامعة تونس الأولى، تونس، 1999،ج1.
الحنزولي(نصر)،المجتمع بإفريقية من خلال النقائش في العصر الأغلبي،شهادة الدراسات المعمقة في تاريخ وحضارة العالم المتوسطي،كلية الآداب والفنون والانسانيات،منوبة،2004.
الدشراوي(فرحات)،الخلافة الفاطمية بالمغرب،ترجمة حمادي الساحلي،دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.

الطالبي(مُحَمَّد)،الدولة الاغلبية،التاريخ السياسي، نقله إلى العربية المنجي الصيادي،دار الغرب الإسلامي،بيروت،1985.
الطالبي(مُحَمَّد)،تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض،تونس،1968.
عبد الوهاب(ح-ح)،ورقات عن الحضارة الإفريقية،مكتبة المنار،تونس،1972.
محمود(خالد حسين)،"الرقيق والنشاط الحرفي ببلاد المغرب خلال القرون الأربعة الأولى للإسلام"،*مجلة الإنسان والمجال*،المركز الجامعي نور البشير بالبيض، الجزائر، عدد5، أفريل،2017.
المنصوري(مُحَمَّد الطاهر)،"ملامح بعض الفئات الإجتماعية بإفريقية في العهد البيزنطي" ،ضمن كتاب *المغيبون في تاريخ تونس الإجتماعي*،تنسيق الهادي التيمومي،بيت الحكمة،قرطاج،تونس،1999.
موسى(عزالدين)،النشاط الإقتصادي في المغرب والأندلس خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق،بيروت،1983.
موسى(عزالدين)،وقفات منهجية مع المفاهيم والمنظور والأساليب،دار الغرب الإسلامي، بيروت،2003.
ميتز(آدم)،الحضارة الإسلامية في القرن 4هـ،نقله إلى العربية مُحَمَّد الهادي أبو ريدة،الدار التونسية للنشر،تونس1986،ج2.

**المراجع باللغة الفرنسية.**

Deschamps(H),*histoire de la traite des noires de l'antiquité à nos jours*,Fayard ,1971.
Dridi(L),*les villages et les sociétés villageoises en Ifriqiya au haut moyen age (II-V/VIII-XI siècle),approche historique et archéologique*,thése de doctorat,ecole pratique des hautes études,Sorbonne,Paris,2008,t1.
El Behi(A), « les grandes propriètés fonciéres en Ifriqiya durant le haut moyen age :toponymie et topographie »,*Revue d'histoire Maghrébine*,49 année, numéro, 86,fevrier,2022.
Meillassoux(Cl),*antropologie de l'esclavage,le ventre de fer et de l'argent*, Presse universitaire de France,Paris,1986.
Niamkey(R), « Razzias et développement des Etats du Soudan occidental »,in,
*De la traite à l'esclavage*, actes du colloque international sur la traite des noires,Nantes,1985,t1.
Renault(F),*la traite des noires aux proche-orient médiéval VII-XVII siecle*, guethner, Paris,1989.

# الجبل في التاريخ :
# الكتابات الاستعمارية عن جبال الجزائر للتمثيل

خميسة العايب/ جامعة ام البواقي

**مقدمة**

إن الجبل كيان جغرافي، طبيعي،اقتصادي،واجتماعي، يعني الجميع،كل من حقل بحثه،من عالم الطبيعة الحية أو الجامدة،وغيره من علماء التاريخ والسياسة والاجتماع إلى الأديب والسائح،ومتسلق الجبال و غيرهم.فتضاريسه،مناخه، ثرواته الطبيعية بكل كائناتها،سكانه،تراثهم الثقافي،وتاريخهم، كل هذا يتطلب التحديد.لكن ذلك لا يتأتى لأي باحث،دون أن يعرف أولا ماهية ما يتحدث عنه بدقة و وضوح،أي ماهية"الجبل"التي قد يراها البعض بديهيا،لكن المختصين وجدوها صعبة وتكاد تكون مستحيلة. وهذا ما سنراه في بداية هذا المقال. فبعد عرض معضلة تعريف الجبل تعريفا جامعا،نتجه إلى تقديم صورة إجمالية،نراها مهمة،عن نشأة وتاريخ الانشغال بالجبل في الغرب،نتناول من بين الجبال،"الأوراس و "جرجرة"موضوعا للبحث. فعبر التصوير الجغرافي لهذه الجبال الجزائرية، المرتبطة بأهلها الأمازيغ، وعبر ولوجي إلى التاريخ ،أحاول التعريف بدور و قيمة هذه الجبال، منظور إليها من غزاتها الفرنسيين على وجه الخصوص.

**1.الجبل و مشكلة تعريفه**

من المحاولات التي لم تهتم بوجود مشقة في تعريف الجبل،القول بأن:"الوسيلة التي بها نرتفع و نحن نغادر السهل، و مستنقعاته و ركودهاهي التي نسميها الجبل"[1].أو"الجبل كتلة قوية من الصخور الشاهقة،التي تعلو على كل الأراضي المحيطة بها"[2].

لكن الجغرافي الفرنسي بول فايري[3] لم يجد الجبل رتيبا مثل السهل، لقد أضناه الحصول على تعريف منطقي جامع للجبل إلى درجة انه قبل تصنيف الهضاب العليا ضمن الجبال. فعلى الرغم من أن "الجبل" من الكلمات المألوفة جدا، إلا انه ، يحمل مفاجآت غير سارة، لمن يعمل على تعريفه، وهذا بسبب تنوع الجبال الخارق،والتعدد و التباين المتعب لمظاهره الطبيعية. فالجبل في نظره "منطقة بارزة الارتفاع، تفرض تضاريسها ومناخها حياة قاسية على الإنسان".و "يعد الجبل،عالما قائما بذاته،عالما يتمتع بأصالة قوية،يزداد اعتبارها بازدياد حرص ومبالغة الحداثة والحياة الحضرية في إبعادنا عنه،وتغيير وجهه بفضل السياحة والتسلق والتقنيات و العلوم المختلفة".إنه "عالم اكبر المشاهد الطبيعية بامتياز،سواء تعلق الأمر بهندسة صخوره،بالثلج والجليد أو بخوانقه وشلالاته".و

---

[1] Luc Joly,Forme et signe (Genève : Tricorne,1980),p 83.

[2] Anne Nercessian ,image de la montagne dans la mythologie grecque, **La montagne et ses images: du peintre d'Akrésilas à Thomas Cole,*actes* du 16e Congrès National *des* Sociétés Savantes**,Chambéry, France(Paris :C.T.H.S.,1991), p 11.

[3] Paul Veyret,Géographie de La Montagne (**Maurice Herzog,La montagne** (Paris :Larousse,1956) pp 165-167.

باختصار فإن الجبل"اختصار مذهل لكوكبنا لان العين أمامه تحتضن بنظرة واحدة المزارع، الغابات، المراعي الجبلية والقمم الجليدية...إنه متحف للنباتات و الحيوانات البرية، بل و ايضامتحفا إنسانيا مؤثرا تحفظ فيه التقاليد و التقنيات القديمة، كما تحفظ الحياة الرصينة والحرية رغم الفقر".

يقول راوول بلونشلار:"أعلم جيدا صعوبات موضوع الجبل،و بالخصوص تعقيده الخارق للمعتاد، فحتى تقديم تعريف واضح و مفهوم للجبل، يكاد يكون أمرا مستحيلا•[1].فيتعاطف مع مؤلف الكتاب،الذي كتب له التصدير، فياسيلقاه من مشقة أثناء عمله على ضبط كل الخصائص المشتركة للجبال.

انه من الصعب ضبط تعريف للجبل، فالمعايير الطبيعية الأساسية، كالارتفاع، المناخ، و الغطاء النباتي، ليست كافية حسب البعض الذي يطالب بضرورةإدخال العوامل الاقتصادية و البشرية و لا سيما الاتصال و أنماط الحياة[2]."فمن الناحية الجغرافية الجبل هو إحدى التضاريس ذات الحجم و الارتفاع حيث يظهر التمايز بين المناخي و البيولوجي،بين أسفله وأعلاه".هذا التعريف لقي الاعتراض[3]،لان في جبال شمال إفريقيا يغيب هذا التمايز.

و تقدم لنا مارث ماير تعريفا خاصا للجبل و هي تبين لنا علاقة الجبل بنظر الإنسان و قدراته. لقد أرسي الجبل في صورة كتلة قوية و صلبة،ليقف كحاجز يجبر نظرنا على التوقف والصعود.انه حد و دعوة إلى الارتفاع في أن واحد، ظاهرة جديدة أمام انبساط و تموجات السطح، بها يقيس الانسان قدراته ومصيره. فبغياب هذه الكتل يضيع بصرنا في انكشاف السماء اللامتناهي.وبهايزول توهمناانناالاعظم شموخها كفيل بان يعيد وضعنا في مكاننا و حجمنا الحقيقي[4]. لاننا مهما راودناالاحساس بالعظمة لن نبلغ الجبل طولا.

## 2.صورة أولية عن تاريخ الاهتمام الغربي بالجبل

يعد كتاب"الجبل عبر العصور"[5]* معلما شاملا للاهتمام الغربي بهذا الموضوع. ومن أهم الأعمال

---

جرت العادة أن يعرف الجبل بخصائصه السلبية،المثبطة.فحينما يتعلق الأمر بمخططات التنمية لا يجب التسليم بان الجبال مواطن للكوارث الطبيعية،جيوب للفقر،وانعدام الأمن و بيئة هشة،إنتاجيتها البيولوجية منخفضة،معزولة،كثافتها السكانية تحول دون دعم استغلاله.هذا التعريف هو الذي يؤدي الى بقاء الجبال على حالها السيئ.

[1] Jules Blache ,**L'homme et la montagne** (Paris :Gallimard,1934), p 7.

[2] Bernard Janin,**Une région alpine originale,le Val d'Aoste: tradition et renouveau**, (Grenoble :Raoul Allier,1968), p 99.

[3] Jean dresch,reflexion sur le role de la haute montagne, **Actes du IV Colloque de géographie maghrébine,L'homme et la montagne Université de Tunis**(Tunis :Centre d'études et de recherches économiques et sociales, 1979) p 13.

[4] Marthe Meyer, **L'homme devant la montagne,Proses de montagne recueillies et commentées** (Paris :Durel,1949), p 11.

[5] للمزيد من التفصيل و متعة الاطلاع على تاريخ الاهتمام بالجبل ، الدور الذي لعبه و الصفة التي كان ينظر إليه بها ، أنظر " الجبل عبر العصور" في جزئيه الأول و الثاني:
John Grand-Carteret,**La Montagne à travers les âges** (Grenoble :Librairie Dauphinoise,Moutiers, Librairie Savoyarde,1903).chapitre 1 et 2.

* يتناول الدور الذي لعبته الجبال والكيفية التي نظر بها إليها على مر التاريخ والتخصصات. يمكن أن يقرأه بفضول وشغف كل من الأديب،الفنان،المؤرخ الأنثروبولوجي،و الباحث في تاريخ الأديان

الغربية الجامعة للسرد الأدبي الغربي عن الجبل،كتاب" الإنسان أمام الجبل"في النثر، مع تعليقات لمؤلفته مارث ماير[1]*

فكما يخبرنا هنري بوردو، لم يكن الجبل يذهل العيون، بمنظره الخلاب، روعته،عظمته و تنوع وجهه بتنوع الفصول.فقد اعتبر ت الجبال في القديم موطنا سريا للآلهة،تحيطها الخشية المرتبطة بالاحترام،و صورة عن المناطق صعبة المسالك والعبور،المزروعة بالمزالق والأخطار. و في القرن السادس عشر تظهر الجبال كمناطق كاووسية و مخيفة. فجاك بينين بوسويه يتحدث عن رعبها،والسيدة المركيزة دي سيفنييه عن جمالها المروع. ولم تتغير هذه الحساسية اتجاه الجبل،و لو يفرض موضوع الجبل ذاته،إلا في القرن18 مع الرغبة في التوسع والغرابة. لقد كان للجبل أيضا رجاله المكتشفون،وكان جون جاك روسو هو الذي حضر الرأي العام لهذا الفتح،أي هذا الحب للجبل الذي لم يعرفه الإنسان من قبل. فالصلوات التي كانت ترسل للطبيعة لطلب العناية منها،لم تكن موجهة إلا إلى ما في الطبيعة من بوادي بساتين و حدائق غناء ثرية.و لم تكن البيوت الريفية تبنى إلا على حواف الطرقات و على الأراضي المنخفضة محمية من الرياح و سوء الجو وبقرب منابع المياه و الأشجار، يسهل الوصول إليها و تسر نظر الزائر و تريحه[2].

فتتبعا و توضيحا لتأريخ هنري بوردو للجبل[3]* لم يكن يحظى هذا الأخير في القديم بأي اعتبار.لقد ارتبطت جاذبية الأوطان عند الرومان و الإغريق بيسر العيش و صلاحية الإقامة فيها كما ينقل لنا

---

أيضا.فمن جزئه الأول إلى الثاني يسافر المؤلف بالمهتمين بالجبل عبر العصور، منطلقا بهم من اليونان و الرومان ليوصله إلى غاية العصر الحديث و الزمن المعاصر. و لعل قراءة تصديره لكتابه هذا، أفضل من مجرد الإطلاع على محاوره المبينة في فهرس موضوعاته بالنظر إلى ما يحمله من تفصيل أكثر و أوضح للمحتوى .

[1] Marthe Meyer :L'homme devant la montagne. Voir la présentation des trois chapitres du livre si dessous :

* تقسم الانشغال بالجبل إلى ثلاثة محاور " الجبل و حياة الأرض"، " الجبل و حياة الإنسان "، " الجبل و حياة الروح" ، و في كل محور عرض و تعليق على نصوص لمجموعة من الأدباء و حتى من متسلقي الجبال الذين جعلوا من الجبل موضوعا لكتاباتهم الأدبية. ، نذكر اسماء مثل اندري مارتينيون ، " الجبل"، رامون دو كاربونيار " جبال البرانس" ، أندريه شومسون " العناصر الأربعة "، و جيلس بايو "روعة القمم"، جون جاك روسو " الواز الجديدة". دون أن ننسى متسلق الجبال " ايميل جافال" وو يومياته "ذكريات متسلق".

[2] - Henry bordeaux,**Paysages romanesques** ( Paris :Plon - Nourrit et Cie,1906),p 165.

[3] - Henry bordeaux,**Reflets de la montagne** (Paris :Gallimard,1960) p 1-29.

* هذا التقصي عن الاهتمام بالجبل عبر التاريخ كان هنري بوردو قد نشره من قبل كمقال بعنوان " إيميل جافيل و أدب جبال الألب" سنة 2013 ثم نشر كتصدير لكتاب " ذكريات متسلق " لمؤلفه ايميل جافيل ذاته سنة 1920. أنظر على التوالي:

- Henry bordeaux, **émile javelle et la littérature alpeste** (Paris, V.-A. Waille, Le Correspondant ,1913) p658-682.

- Emile Javelle, **Souvenirs d'un alpiniste** (Lausanne – Paris : Payot et Cie,1920),pp 5-36.

ذلك همبولدت وارتبط هذا بتصور المجتمع الذي يضع الإنسان وعلاقاته فوق الطبيعة.باعتبارها ديكور جميل، ديكور جميل، لا نريد فيه غير الإقامة السعيدة و المريحة للروح والقلب، فيكفي أن يرى الإنسان قوس قزح وراء الأفق،حتى تستريح عينه وتتوقف بكل لطف عن مد النظر.

أما الرحالة الفرنسي يوحنا المعمدان تافارنيه،بارون أوبون السويسرية،فقد بنى في القرن 17 قصرا على ضفة بحيرة جنيف،واستقر فيه،لأنه رأى في هذه البحيرة طبيعة خلابة لم يشاهد أجمل منها[1] على مدى كامل رحلاته، مديرا مغفلا وراء ظهره روعة السلسلة الجبلية المتعددة القمم المسماة"أسنان الظهر"التي تقع البحيرة دونها. .

كما ارتبط جمال المناظر الطبيعية بمدى خدمتها للإنسان و لرسمها يجب أن تضاف إلى الكتل الصخرية،المروج والسكنات و الأشجار المشذبة...إلخ. ثم ينتقل بنا هنري بورديو إلى لامبالاة ميشال مونتاني وتعبيره المختصر عن شلالات شافهاوس، فهي "ليست الا صخورا كبيرة ليس فيها شيئا نادرا"جدير بإثارة الحس الجمالي فيه. فوصفها بالطوفان الذي بقفزة كبرى منه يوقف مسار السفن و يقطع الملاحة في هذا النهر"[2].مثل هذه النظرة إلى الطبيعة تجعل القارئ يعتقد أن مونتاني كان سيئ المزاج، أثناء عبوره سويسرا،لكن الحقيقة هي أن الجبل، و الطبيعة الصخرية،والمرتفعات الشاقة و المنحدرات الخطيرة لم تنل بعدإعجاب الأدباء. وقد كانت قراءتي لمارث ماير في عرضها للنصوص النثرية التي تناولت الجبل عبر تاريخ الأدب الغربي،قد نبهتني إلى وجود نص لمونتاني، يعترف فيه انه لا يستطيع أن يعيش معاناة النظر من الأعالي إلى الأعماق اللامتناهية دون ارتجاف الساقين و الفخذين[3].

فلم يكن إحساس و انطباع مونتاني كذلك الشعور النبيل بالراحة و السلام الذي عاشه جون راسكن[4]*أمام هذه المشاهد الطبيعية ذاتها، لقد عاتب هذا الأخير معاصريه الذين أغرتهم تقنيات

[1] Charles Durier,**Le Mont-Blanc** (Paris :Fischbacher, 1923), p 4.

[2] Michel de Montaigne, **Journal de voyage en Italie par la suisse et l'Allemagne** (Arléa : Paris,1998) pp 34-35.

[3] Michel de Montaigne, **Œuvres complètes** (Paris :Seuil, 1967) ,p 247.

انظر هذا النص أيضا في النسخ التالية:

Michel de Montaigne, **Essais**,Volume 2,(Paris :Imprimerie nationale éditions,1998),p 423.(voir aussi l'ed.PUF,1992,P 594),(Garnier,1958,p 306),( Garnier-Flammarion,1969,p 259).

[4] John Ruskin,**Selected Writings** (Londres :Penguin Books,1991) p **xvi,** pp. 27-29.

* للمزيد حول تصور و إحساس جوهن راسكن امام الطبيعة، نقرأ كتابه عن الفن الحديث و بالذات عن المياه و كيف صورها رسامو العصر الحديث ، ووصفه لعنف تساقط المياه بشلالات شافهاوس" المرتبط بطول المنحدرات التي هي مرتفعات شاقة في الوقت ذاته. مرتبطة كلها بالراين و ببنية جبال الألب السويسرية أنظر كتابه :

John Ruskin:**Works**, **Modern painters,v.2-5** (New York:T.Y. Crowell,1951) p 121.

المواصلات التي تشق الطبيعة و مرافق السياحة و الراحة فحصروا فيها تصورهم للذة،على حساب تبجيل الطبيعة، فباحتقارهم لها احتقرت في الإنسان كل الأحاسيس العميقة والمقدسة،التي تثيرها مثل هذه المناظر. كماحولوا الجبال،"كاتدرائيات الأرض"، و المكان المفضل للتعبد، إلى مساحات للسباق[1].

أمات صور جون دو لافونتين فيختصره لنا جون بوردو،في نظرته للطبيعة ككل التي وجدها ضاحكة منسجمة بكل حكمة و جديرة بالحب فلا يكاد في كتاباته يستدعي الجبال بما فيها من قاحل وشاهق، جد منحدر و مخيف إلا و هو يتحدث عنها كعقوبة[2].

ولم يسجل جوزيف اديسون[3] عند مروره عبر جبال الأبنين الإيطالية غير ما أثارت فيه من ضجر قبل أن يمر منها، على بعد قدم،إلى نهر الراين الصغير. وقبل أن يصدر هذا الحكم على جبال الابنين فضل أن ينقل لنا أبياتا شعرية كان الرومانيون قد وصفوا بها جبالهم،لكنه وصف فقط امتداداها على طرفي ايطاليا و ما تنتجه من تنوع مذهل في الأنهار يسقي هذا البلد الرائع.أي انه لم ير فيها غير ما يراه الجغرافي من امتداد،لكن الذي أذهله هو الأنهار التي تتولد من هذه الأعالي.

وعلى طول وصفه لرحلته، من مدينة مارسيليا الفرنسية إلى غاية مدينة جان الايطالية[4]، لم يسر كونت دو توريناي المكنى بشارل دو بروس،لا بالجبل ولا بالبحر. فالطبيعة على الطريق متعبة و مثيرة للحسرة والندم. أما الصخور العالية فمخيفة و خطيرة. وعلى الرغم من انه حاول أن يترفع عن هذه المشاعر بركوب الزورق أو العربة أو بامتطاء الحصان، لكنه عجز. ولم يسعه في نهاية رحلته إلا أن يقول:"هكذا كانت نهاية طريق...لا يمكن أن نتصور كم كان طويلا، متعبا، مملا و باهظا"

أما عالم الطبيعة الفرنسي جورج لويس دو بوفون[5]، فقد وجد الطبيعة في حالتها الخام بشعة و قاتلة.العالم وحده هو الذي يملك من التصورات و التقنيات والحلول،ما يجعلها ممتعة وحيوية.لأن التقدم يتوقف حيث تكون الطبيعة قاسية.

وبتصور فلسفي و بأسلوب رمزي تنزل المحبة في مسرح فولتير[6]،باتجاه البرانس، ممتطية الدبابة بيدها قوسا، لتأمر الجبال الرائعة،بأن تستجيب لأمرها بالانهيار و الانمحاء من الوجود. لأنها ليست إلا حواجز مفرقة،تحول دون أن تصير الشعوب كالأسرة الواحدة.

---

[1] Ibid, p 342,464.

[2] Jean de La Fontaine, **Fables; Psyché; Œuvres diverses**(Paris : Les éditions nationales,1947) p 179.

[3] Joseph Addison,**The Works,Poems on several occasions, Poemata.Dialogues upon the usefulness of ancient medals. Remarks on several parts of Italy,1701-03** (London:George Bell and Sons,1903),p 502.

[4] Charles de Brosses , **Le Président de Brosses en Italie, lettres familières écrites d'Italie en 1739 et 1740**) Paris :Club des libraires de France,1958) p 31-49.( voir aussi les mêmes pages dans l'édition : Paris :Les Arts et le livre, 1928).

[5]Georges Louis Le Clerc de Buffon: Œuvres,Paris, Gallimard,2007,p 991.

[6] Voltaire,**les œuvres complètes**, Volume 28,Partie 28,Partie 1 (Genève : Institut et Musée Voltaire,1968) ,p 271.

لكن هنري بوردو في تأريخه للجبل، يعترض على كل هذه التصورات المخيفة والسيئة ويردها إلى سذاجة الفكر،التي جعلت من الجبال لعينة مسكنا للأرواح الشريرة ولعل ما يثبت هذه السذاجة هو الاعتقادأنه بتدخل هذه الأرواح، تنحدر الأنهار الجليدية وتغمر المساكن والأراضي الزراعية. مما تطلب تدخل أسقف جنيف لطرد الأرواح حسب الطقوس لرد زحف هذا المد الجبلي إلى الخلف قليلا. ويعتقد أهالي المنطقة انه منذ ذلك الوقت كفت الأرواح الخبيثة عن شرها و غادرت[1]*.

و سينسب التاريخ لاحقا طرد هذه الأرواح الشريرة من الجبال إلى أدب جون جاك روسو[2] بتذوقه للانسحاب نحو المرتفعات والمناطق القفار المعزولة. فليست المناظر الجميلة عند هذا الأخير، هي تلك التي نراها في السهول، بل إن نظرته المسالمة واللطيفة حين تمر على السيول، الصخور،الغابات السوداء،الجبال،الممرات الوعرة صعودًا و نزولا و على المنحدرات المخيفة، تستأنسها، لقد صارت الطبيعة مع روسو كائنا حيا و استأنست وتحولت إلى صديقة حميمة و جذابة و محبوبة و كاتمة لما اضمر الوجدان*

لكن النساك قد سبقوا روسو إلى ذلك بشق الممرات وإزالة العراقيل عبر الوديان المجهولة وبناء الأديرة،ليتراجع الخلاء و القفار أمام هؤلاء الرجال الذين تحصنوا بقوة حياتهم الباطنية،ضد المشاعر والتصورات والمعتقدات السلبية عن الجبال. وهم يمرون عبر السبل الضيقة الصعبة، يتوقفون للإصغاء للحياة الأبدية في غياهب الصمت و النسيان. و بهذا استطاعوا أن يفتكوا، كما يقول هنري بوردو، من القفار بعض الأفدنة من الأرض الخراب الموحشة و روضوها وأضفوا عليها من سكينة و صفاء روحهم.

لكن هنري بوردو يخبرنا أن سانت فرنسوا دو صال كان سباقا لأدب جبال الألب عند جون

---

[1] Paul-Yves Sébillot, **Le Folk-lore de France**,Volume 1(paris : Maisonneuve et Larose,1968) p 23 ( voir le même chapitre dans : Paul Sébillot, **La terre et le monde souterrain**, Paris : Imago,1982),pp 47-87.

*للمزيد من متعة القراءة حول المعتقدات التي طالت الجبل ،أنظر المحور الثاني من الجزء الأول المخصص ل " الأرض و السماء" من هذا الكتاب نفسه و الذي من بين ما نقرا فيه منذ بداية المحور، أن قفار الجبال و عدم خصوبتها و صعوبة العيش فيها، هي ظواهر ضربت هذه الأعالي لمعاقبة أهلها على تخليهم عن الضيافة التي تعد مقدسة عند سكان الجبال.

Paul-Yves Sébillot,**Le Folk-lore de France**,Volume 1( Paris: Librairie orientale et américaine,1904), pp 212-244 . (ou voir le même livre dans l'édition de paris : Guilmoto, 1904, pp 218-240,

[2] Jean-Jacques Rousseau, **Les confessions**,Volume 1(Paris : Gallimard,1965) p.271

* في صفحة لاحقة يتحدث جون جاك روسو عن لذته في الذهاب في غياهب المرتفعات التي لا يعرف فيها أي طريق، ودون علم الاتجاه او مكان الوصول ( انظر ص 100 من اعترافات روسو) و أكثر من ذلك فاننا نقرأ في أعماله الكاملة انه و هو يحتمي بإحدى الحواجز الجبلية في الأعلى لتجنب أي مأساة، يتذوق في كامل لذة النظر إلى الأعماق، و التمتع ببعض الدوار، لأن أشد ما يجلب له اللذة في تلك المنحدرات هو إحساسه بالدوران و هو محصن ضد السقوط بشرفة صخرية في الجبل. أنظر:

Jean-Jacques Rousseau,**Oeuvres complètes**,Volume 1(Paris :Seuil,1967) ,p 187.

جاك روسو*، فعند زيارته لجبال شاموني[1] قال أنه التقى الله هناك في الأعلى،في كامل لطفه ورقته. فأكثر الجبال وعورة وإخافة،رآها محل تعبدت فيه بكل إخلاص أكثر النفوس صفاء و بساطة. و ثنت فيه على الله شتى الحيوانات، بلغة جميلة لا يفهمها تماما إلا من عرف تمام الإخلاص.هكذا إذن تقرب هذا الأسقف من الجبال المسماة اللعينة آنفا والتي صارت معه جذابة نحو الله خالق هذه العجائب.

و يواصل هنري بوردو الرواية عن صمود الجبل الابيض،و يمر بنا الى الفتح العلمي للجبال*.لقد كان صعود هوراس بينيديك دوسوسير الى الجبل الابيض بمثابة ا لحدث التاريخي،الذي يروى عنه كما يروى عن الانتصار في الحرب . في البدء لم يكن الجبل في نظر هذا العالم اكثر من حقل تجربة علمية ميدانها الأعالي. لكنه ومع مشقة الصعود تصوره عدوا يقاومه بشراسة،لدرجةانه ببلوغه القمة وتفوقه على تجبره لم يجد حركة تشفي غليله من تصديه له،غير الدوس على ثلجه بغضب و فخر. لقد تحقق حلم الانسان بوضع القمم تحت قدميه و مني الجبل بهزيمة ذريعة هزت عظمته. لكن قوة الجبل الجذابة،التي ستسحرالخيال الأدبي الرومنسي،ستولد من رحم هذا الانهزام بالذات.

فقد احتفى بهاالشاعرالبريطاني جورج غوردو بايرون،فأشاد بالجبل و المتسلقين و ذم أولائك اللذين يلومونه على تسلقها. ففي تسلق الجبال الصعبة والخطيرة، عذوبة و منبع حياة لا يستطيع أن يتذوقها أو يشارك فيها أولائك الكسالى الذين لا يزالون يقبعون على كراسيهم المريحة و يمدحون الطرق السريعة[2]*.

---

* يقول هنري بوردو: "لعل فرانسوا دو صال هو أول من فهم جمال الجبال العالية، في الأدب الفرنسي، فمن عزلتها البيضاء شكل محرابا للإله الحي، بتحويل جانب العنف في الجبل إلى دعوة إلى الدين ". أنظر:

Henry Bordeaux,**Un précurseur: vie, mort et survie de saint Louis, roi de France** (Paris : Plon,1949,p 6).

[1] André Jean Marie Hamon:**Vie de Saint François de Sales: évêque et prince de Genève**, Volume 1 (Paris :V. Lecoffre, 1920) p 308- 309.

*عن رواية أول صعود للجبل من طرف العالمين دوسوسير و رايمون دوكاربونييه نقرأ:

1- Marthe Meyer,**L'homme devant la montagne**, op.cit,p 86,212, 202-209. 2 .John Grand-Carteret,**La Montagne à travers les âges** (op.cit) chapitre VI.les scientifiques et peinture littéraires)

[2]George Gordon Byron Baron Doubleday, **Childe Harold's Pilgrimage:And Other Romantic Poems** (New York: Doran and company,1936),P 22.

*انظر أيضا هذا المدح و الذم في مختارات من أشعار و رسائل جورج غوردون *بايرون في النسخ التالية* :

**1-** George Gordon ,**Selected Poems and Letters** (New York:University Press,1977) , pp 42.

**2-** H. Milford,The Poetical Works of Lord Byron (London :Oxford University Press ,1921), p 181.

**3-** E. H. Coleridge, **Works: Poetry**, v.1-7 (New York: Octagon Books,1966),p 44.

**4-** George Gordon Byron ,**Selections from Poetry,Letters and Journals** (London :Nonesuch Press,1949) ,p 47.

فحسب هنري بوردو دائما،فإن الجبل وهو يرتبط بهذه الحالة الذهنية،لم يعد مجرد زخرف يزين الطبيعة،بل صار ميزانا،بتسلقه يتعرف الانسان على ذاته و على قوة جسده ويقيس نقاط القوة فيها،ليوسع مداها و يحقق توازنها.لقد صارت الجبال مدرسة للطاقة. ويصل بنا بوردو إلى الجبل في الفنون الأدبية الغربية وعند هواة و محترفي التسلق ليتناول الكتابة الأدبية عن الجبل عند المتسلق الأديب إيميل جافيل.ففي نهاية جولته، مع أشهر الرومنسيين* الذين أحبوا الجبل متأخرين صرح: "لقد تمت زيارة الجبل،تم غزوه و احتلاله،و محاصرته واختراقه ، لقد امتلك الجبل و صار مودا، بعد أن كان يؤله و يخشى كإله الموت"[1].

لكن هذا لا يمنع-كما سنرى-أن تجتمع كل هذه المشاعر المتناقضة في الكتابة الاستعمارية عن الجبال موضوع اهتمامنا،دون أن تلتزم بهذه الكرونولوجيا.

**3.جبال الأوراس و جرجرة في الرواية التاريخية الاستعمارية**

إن معرفة الموقع الجغرافي أو تكوين صورة،عن مناظرهاالطبيعية،أمرا جد يسير في عصر صار فيه العالم قرية صغيرة بفضل تقنيات المعلومات المختلفة.لذلك و أنا ابنة الأوراس و هذا الوطن العارفة بهذه المناطق بالسياحة و قراءة التاريخ و دراسة الأنثروبولوجيا،افضل في هذا المقال التجول،بواسطة كتابات المحتل الفرنسي- عن الأوراس والقبائل لأنقل للقارئ صورة عنها،بعيونه وتصوراته وأحكامه.وننطلق من حيث انطلقت أول رصاصة للثورة التحريرية.

**أ.جبال الأوراس**

يعد الأوراس،هذا الدرع[2]* الخطير،من السلاسل الجبليةالتي تمتع بتفرد متميز للغاية،حافظت على اسمها الذي صمد عبر العصور.فهي" mons Aurasiu عند الكتاب اللاتين،وصارت أوراس عند الأمازيغ،ورددها الغرب بلغاته المختلفة، تقريبا دون تغيير.

ارتبطت هذه التسمية عندالمستشرقين بالكلمة العبرية و الفينيقية التي تعني الأرز .وقد برر مؤرخ الثورة

---

* بعد روسو يذكر هنري بوردو بالخصوص جورج غوردون بايرون، فكتور هيغو، لامارتين،بالزاك، و تضيف لهم مارث ماير - في كتابها المذكور سابقا "الإنسان أمام الجبل" - نصوصا نثرية لأدباء آخرين لا يسمح المقال و لا يسعنا لتناولهم.

[1] Henry Bordeaux , **Reflets de la montagne**, op. cit.,p 9-10.

[2] Philippe Leveau, l'aures dans l'histoire, **La Montagne dans l'Antiquité**, actes du colloque de la Société des professeurs d'histoire ancienne de l'université,Pau,Société des professeurs d'histoire ancienne des universités,Congrès, Georges Fabre Université de Pau) 1990, p 7.

* أنظر هذا المقال المعنون ب الاوراس في التاريخ، كان قد نشر من قبل في الموسوعة الامازيغية، سنة 1983 و اعيد نشره لاحقا ايضا سنة 1993، من طرف مؤلفه في كتاب جماعي بعنوان "الاركيولوجيا و البيئة" انظر على الترتيب:

1-Encyclopédie berbère, Volume 8,aix-en-provence, Edisud, 1984, p 1097.

2- Philippe Leveau, **Archéologie et environnement: de la Sainte-Victoire aux Alpilles**,aix-en-provence, Mireille Provansal Publications Université de Provence, 1993),p 19.

الجزائرية **جان بيير جيلدرو تسمية الأوراس بالجمع أو المفرد على السواء،لان الأوراس بالغة الوحدة مثلما هي بالغة التنوع**.[1]

و كما حددها المؤرخ العسكري الجنرال غيستاف ليون نيوكس هي رقعة جبلية شاسعة يحدها من الغرب الطريق الرابط بين مدينة باتنة و القنطرة، بوابة الصحراء عبر مدينة بسكرة، و يحدها من الغرب طريق مدينة خنشلة إلى خنقة سيدي ناجي،والذي يتبع وادي العرب،و من الجنوب يحدها الطريق من بسكرةالى الخنقة.

و يرجع هذا المؤرخ تشكل جبال الأوراس إلى التواء شمال إفريقيا والذي أنتج في الشمال منحدرات كاف المحمل و شليا التي تبلغ 2.328 متر و هي اعلي قمة في شمال الجزائر، و التي من قممها نستطيع ان نرى كل كتلة الأوراس ذات الطيات الضيقة كطيات القماش،والحواف الطويلة المستقيمة،و التلال الضيقة التي تفصل بينها الوديان الأربعة المتوازية،العميقة والشديدة الانحدار والمسماة: واد القنطرة،واد عبدي ،الوادي الأبيض،واد العرب، فتجعل التواصل بينها صعبا[2]*.

ويسجل ألبير مونييه،أن مناخ الأوراس،كان قاسيا جدا،فقد ارتفعت درجة الحرارة صيفا إلى ما فوق 40 وانخفضت الى 10 دون الصفر بل بلغت حتى 15 دون الصفر سنة1891. وترتبط بكثرة و تكرار و طول تساقط الثلج.وعلى الرغم من هذه الاختلافات بين شدة الحارة و شدة البرد،فإن المناخ ليس منهكًا مثل ذلك الذي بسببه البحر.فالحرارة صيفا مرتفعة جدًا،لكنها جافة.إن الجبال المحيطة بباتنة، عاصمة الأوراس، مغطاة بالمعنى الحرفي للكلمة، بأشجار من أنواع مختلفة لكن في كل سنة يعاد تشجيرها بسبب ما يفسده قطعان الماعز التي يتعب عمال الغابات في صد اصحابهاعن قيادتها من القفار إلى هذه الغابات. فيها تزدهر جميع الأشجار الفرنسيةالمثمرة، لكن الصقيع الخشن في كثير من الأحيان يفتك بالمحصول.مما يحول دون الإصرار و الحرص على توسيع الزراعة هناك[3].

في نظر المؤرخ الفرنسي جون بواسون[4] تعد الأوراس حاجزا حقيقيا بين والصحراء والجزائر(و كأن الصحراء فرنسية بالبداهة) فباستثناء خنقة القنطرة،نادرة هي المسارات التي تسمح بالمرورإلى هناك وهي مثل بلادالقبائل،الملجأ الأبدي للثوار.الطقس فيها مفرط

---

[1] Jean-Pierre Gaildraud Flânant ,**Amours, violences et Algéries, de l'Afrique romaine à l'Algérie française (54 après J.-C.-1962,**(France, aix-en-provence,2004,pp 141-142 et 195.

[2] Gilbert Jacqueton ,Algérie et Tunisie (Paris : Hachette,1911), p 245.

* هذا الوصف للمؤرخ العسكري الفرنسي و المنقول عن كتابه الجغرافيا العسكرية نقراه ايضا عند :

1- Raoul Julien François de Lartigue ,**Monographie de l'Aurès** (Constantine : Marle-Audrino,1904 ),p 3.

2- Prosper Ricard, **Les merveilles de l'autre** (Paris :Hachette,1924), p 119.

هذا الأخير يصف الأوراس بانهاالركيزة الشرقية للأمازيغ، منه تبرز اعلي القمم في سماء شمال إفريقيا( شمال شرق الجزائر) مكسوة بالثلوج المتلألأة تحت اشعة الشمس، و من تضاريسه القوية التي تمتد من الجنوب إلى الغرب نرى بكل وضوح سلسلة من التجاعيد المتوازية التي تشبه "طيات القماش".

[3] Albert Meunier,**Voyage en Algérie** (Paris : Alcide Picard,1909 ),p 100.

[4] Jean Boisson, **Essai sur le problème algérien**,(Paris :Scorpion,1960),p 24.

البرد في ليل الشتاء المثلج و بالغ الحر في نهار الصيف الحارق. والأمطار فيه نادرة و عنيفة."و على الرغم من ذلك فان الأوراس توحي للسائح بما لم يتوقع...فبمياهها الجارية،وبساتينها المليئة بالنخيل والاشجار المثمرة،و قراها المعلقة على القمم المرتفعة و بأهلها الثابتي الأخلاق، تظل موضع فضول لا يضاهى، سيكون كافيا لوحده لجذب حشد من الزوار"[1].

وكان شارل حنين[2]،مدير المستعمرات الفرنسية بافريقيا،قد وصفها بالقلعة ذات القمم العملاقة،منها تنتصب قمة شيليا على محورالجبل الازرق،مصحوبة في شموخها بكاف المحمل، بجبل"لحمر خدو"،المغمور جنوبا،بتوهج حرالصحراء غيرالبعيد،وباتجاه الشرق تخترقه الوديان ذات الخوانق الشديدة،المحززة بالقنوات والمفصولة بأحواض الوديان،التي تتباعد جنوباأو شمالا أو غربا مثل الفروع الجامحة من مروحة ضخمة.و بهضابها التي تآكلت منذ آلاف السنين بفعل عوامل التعرية،صخورها قائمة كالهياكل العظمية،متعجرفةالأجراف،حادة المنحدرات،نباتاتها مهلكة،لكن بساتين النخيل فيهاأو غاباتها التي لا كثيفة.

لقد صدت كتلة الأوراس،زمنا طويلا،اختراق الأجنبي لها،فتبدوأن كل شيئ يعزلها عن العالم،ففي الشمال تمتد سهول السباخ مع انتشار بحيراتها.و في الغرب المنخفض و على الطريق المؤدي نحو القنطرة،لا تليها غير الأراضي القفار،كما هو الحال في الشرق على مدى الطريق باتجاه تونس،و من الجنوب الصحراء اللامحدودة.

لكن في هذه الجبال ذات الروعة المتعجرفة والحزينة، ينحسر الماء،منذرا بالموت على كامل الكتلة الصخرية. اختفت الحدائق بالفعل مع جفاف الينابيع،ومع ذلك،في أماكن أخرى،لا يزال الغطاء النباتي يفرض نفسه أحيانًا بوفرة مذهلة،على الأقل في الوديان أثناء تعري القمم . إلى الشمال، ستكون بساتين البحر الأبيض المتوسط تقريبًا.البساتين تحت أشجار النخيل.

هكذا تتباين و تتعارض حسب مستوى الارتفاع وفرة النباتات وتحمص الأحجار كما تتعارض أيضًا من حيث المناخ، الرطوبةالنسبية للجانب الشمالي و الوجه جفاف الحدود الصحراوية،الرياح الباردة وثلوج القمم في الشمال و انفاس أتون الصحراء في الجنوب. ربما عن هذا الوجه من الأوراس ينطبق القول : انه اوراس البؤس الدائم، اوراس خارج الزمان، هي الجبال التي ابكت ذلك الرجل الشاوي، الذي لم يكن يملك من الثروة،غيرالنحل البري الذي قتلته قساوة المناخ و عقم الارض[3].

إنه مناخ جانوسي[4]،هذا المناخ ذو الوجهين،الذي لا يزال له وجه في المنطقة المعتدلة التي بدت معه الأوراس لجورج روزت كالمفاجئة الكبيرة و هو عائد عبر صخور القنطرة، من جولته السياحية في الجنوب الحار.هذا الهيكل الطبيعي المعذب، لم يفصل عن الحياة المحيطة به - كما تفصل الجزيرة وسط البحر-

[1] CI.Bougault, **au fond, les monts de laures** (Paris :Devambez,1922) ,pp 151-155.

[2] Charles Hanin, **Algérie,terre de lumière** (Paris :Alsatia, 1950),pp 303-305.

[3] F. Sarrazin, **L'Algérie,pays sans loi**, Esprit,sept – oct (Paris : Editions Esprit, 1955) ,p 1620.

[4] Georges Rozet, **L'Algérie** (Paris : Horizons de France,1929) ,p 98.

فحسب، بل إن هذا المتراس الطبيعي الذي قاوم الغزوات أعاق أيضا اندماج البشر- المعلقين على أطرافه في بيوت تشبه خلاياالنحل كتلك التي نراها على جبل شلية.

فلزمن طويل لم يكن من الممكن لأي شخص ولوج الأوراس إلا و هو يشق الحجارة ممتطيا ظهرالبغل عبر ممرات ضيقة منهكة، شقتها رحلات البدو. فتحسن الطريق قليلا و صار بريا،مكسورا و زلجا عند تهاطل المطر.لكنه يسمح بعبور أسرع، ولو لاميال عديدة،لهذه الجبال المقفرة،ذات الجمال القاسي و المأساوي في بعض الأحيان.

و قد تعلم أهل الأوراس من الفنيقيين غرس أشجار التين و الزيتون، لكن تاثيرهم الأخلاقي على هذه العزلة الموحشة لم يظهر الا متأخرا.فبالكاد اقتربت روما من أطرافه حتى توقفت واكتفت ببناء مساكن عسكرية، ضمان الاتصال الآمن،و تغطية طريق الحاكم.لكن الجبليين الذين فتنهم ثراء المزارع،سارعوا إلى الانتشار فوق السهل،وداهموا مزارع و حقول حبوب المستوطنين.وكانت الملكة المتحمسة"الكاهنة" قد تركت في الأوراس ذكرى من نار،باعتبارها ملكة مقاتلة وأم شعب جبلي غيور على أرضه،قرر أن يضحي بدمه بل و حتى بحرق أرضه،لمنع زحف الغزاة طاعة منه لأوامر ملكته.

هذه الملكة التي أحبت العيش في الجبل،لم تسحرها يوما حياة المدينة.فقبل مواجهتها مع الحسن ابن النعمان،لم تجحد الكاهنة ديهيا،ارتباطها بمسكنها بالجبل كما تربط العنزة بالوتد،كلما ابتعدت عنه ضاق خناقها.فكانت تحس، و هي بعيدة عن الجبل،بتصلب كيانها،و ترهل جلدها و كأن منآها عن ديارها الشامخة، قد افقدهارطوبة جسدها و مرونته و عزلها عن العالم بدلا من وضعها في اتصال معه. وكان أساها يزداد و يضيق صدرها،بما رحبت به السهول والتلال،بازدياد مدة التمشيط والمناورة العسكرية العدوة في جبالها.وكانت تزعم حين يفيض حنينها إليها،أنه يكفيها أن تستدير نحوها،لتشم الرائحة،المتصاعدة من ارضها. فبمجردأن تستنشق جهة جبلها بعمق،تغمرهاالرطوبة و تعود أعضاؤها للقيام بوظائفها المعتادة. فقد شبهت الكاهنة وهي ترغم على النزول المرير إلى التلال، بالضفدعة التي بعد أن نشأت في الوحل والفته،أرغمت على العيش في الرمل تحت أشعة الشمس[1].

هذه الجبال وصفها،الكاتب الفرنسي- جورج روزات بسلم الصحراء ووصف جبل شلية بالجبل الأبيض الجزائري.( تشبيها له بالجبل الأبيض الفرنسي-) وجبل كاف المحمل بأخيه الأصغر[2]. وعن هذا الأخ الأصغر لشلية تذكر يوميات قناص فرنسي بجبال الأوراس ما يلي: "غادرت القافلة العسكرية مدينة باتنة باتجاه الجبال المحيطة بها،مرفوقة بمدافع رشاشة،يشرف عليها جنود مسلحون و ذوو خبرة،لمهاجمة سفوح الجبال القاحلة.اتجهنا صوب جبال أريس،التي سنغادرها لندخل طريقا متعرجا ضيقا متشبثا بخناق جبل المحمل. هذا الجبل الذي يبدو وكأنه تجنب بعيدا،طريق المركبات حتى لا يكشف على الفور الأسرار المخبأة هناك" ويحل الرعب في أنفسهم محل الإعجاب بجمال الجبل فيضيف:"لقد كان

[1]Roger ikor, **La Kahina** (Paris : Encre,1979),p 167.

[2]Georges Rozet, **l'Aurès, escalier du désert** (Alger: Braconnier,1935), p 11 et 151.

صغارالمجندين يشعرون أنهم يلجون فم الذئب،وهنا يفسخ الانزعاج المجال للخوف،الذي نحاول إخفاءه.في هذه اللحظات، لم يعد أحدا حساسا للجمال البري للأوراس. فجاة سمعنا دويا قويا،تبعه على الفور عواء،يكسر الصمت الذي كنا كذبا نقول أنه قد هزته أصوات المحركات. فالجبل الذي كان يعمل كموجه اصوات ،صار يعكس صدى الصراخ" صراخ المصابين و انينهم". لقد جاءهم الفلاقة (الثوار) على خلاف موعدهم المحتمل،وباغتوهم في غير المكان المتوقع و الحقوا بهم اضرار في العتاد و البشر. و جبرهم على التراجع و المغادرة."لكن الجنودالصغار تابعوا المشهد من بعيد، لقد فروا وهم مموهين إلى الأدغال والصخور". و غير الخوف من مباغتات الثوار القاتلة عانى قناصوا الأوراس الأعداء،معاناة رهيبة من لدغات برد هذه الجبال،في فصل صعب لا تتحمله حقاإلا الأوراس ذاتها.

إنها متاهة فوق طبيعية،لم يتجرأ إلا القليل من الأجانب على المغامرة بأنفسهم فيها. تضارسيها ،الشاقة مليئة بكهوف لا تحصى،والملاجئ الرائعة لإيواء المقاتلين ومخابئ الأسلحة كما أنها ساحة قتال صعبة،مليئة بالفخاخ القاتلة إلا على ثواره،فقد كان لهم المكان المناسب و الآمن لتنفيذ العمليات الجهادية دون مواجهة،وهم متخفين عن أنظار العدو المستعمر،ويفضلون نصب كمائن قاتلة في أماكن لا يتوقعها أحد. مما يضطر العدو إلى مقاتلة ثوار لا يعرفون وجوههم[1].لكنهم يعرفون جيدا و يتصورون بوضوح، سواء من التاريخ ومن الأحداث المعاصرة للثورة،ردود أفعال أهل جبل الأوراس. فالجبلي هنا حتى لو كان قاسيا صلبا، فانه لا يظلم أحدا. لكن في طبعه استعداد طبيعي للانتفاض،لا يرضى رجاله و لا نساءه بالنير،و كيف تصرف اتجاه غزاة أرضه، منذ الرومان إلى الاحتلال الفرنسي.

وعلى لسان المحتل، يقول القائد فليب تريبيه:"من الناحية التخطيطية سيطرت جبهة التحرير الوطني،على المناطق البرية والصخرية والمشجرة العالية،ومن هناك كانت تسهر على حفظ الرعب في التجمعات السكنية الفرنسية،التي أقيمت على سفوح التلال وعلى الوديان والسهول،أو لمضايقة الوحدات الفرنسية،أو لزرع الألغام في طريقهم و نصب الكمائن لهم"[2].

لقد خصص الإثنولوجي والمؤرخ الفرنسي- جون سرفيه، لجبال لأوراس محورا عنونه ب "جبال الثورة"[3] ويصفها بأنها جبال لا يستضيف أهلها الغريب أكثر من ثلاثة أيام،مغلقة على شباب يسأله عن مدى جمال باريس،وعن إمكانية الحصول على شغل هناك، وكأنه يريد بسؤاليه أن يزيح الجبال التي تحبسه ليتعرف على العالم الذي يجهله. ويصف قدوم الليل فيها بعد صمت مثقل بالتوتر، بقدوم القلق المتزامن مع اشتعال نيران على الجبل المجاور و دوي الرشاش و طلقات رصاص متفرقة،بعد أن كان الليل في هذا الجبل و قبل شهرين فقط لا يرى و لا يسمع فيه غير تدحرج النجوم بين تصدعات الجبال و نباح

[1] Michel Klen, **L'Algérie française, un tragique malentendu,ou Les périls de l'ambiguïté** ( Nice : France Europe, livres, 2005), p 49 .Et p 123-125.

[2] Philippe Tripier, **Autopsie de la guerre d'Algérie** (Paris : France-Empire,1972),p 317.

[3] Jean Servier, **Dans l'Aurès sur les pas des rebelles** (Paris : France Empire,1955), p 7.

الكلاب و عواء الذئاب البعيد، و أحيانا صوت الدف و تمتمات الناي و هي تحيي أعراس القرى القريبة هناك فوق التلال.

و يروي الجندي جورج سيمون،الذي قدم إلى الجزائر في 10 جانفي 1961 ليعمل ضمن فرقة إزالة الألغام أثناء الاحتلال الفرنسي-،قد وضع له والده خريطة على طاولة اجتماع عائلته، ليكتشف عليها الأوراس قبل قدومه إلى هذه الأرض. لكن كل ما كشف عنه الورق هو أنها جبال بعيدة جدا عن البحر قريبة جدا من الصحراء. و لم يعرف عنها من والده إلا ما عرفه هذا الأخير من رفاقه في المصنع اللذين كانوا من قدامى المجندين في شمال إفريقيا.ومع قيامه بمهمته عرف أن للثوار،في هذه التضاريس ذات النتوءات،معالم خارقة يصعب إخراجهم أو طردهم منها و تتطلب كامل الحذر من كمائنهم هناك[1].فبدت له الأوراس،القلعة ذات الكهوف المذهلة والعميقة،أرض حلم لحرب العصابات. لكنه في محل لاحق سيجد فيها أثناء نزهته،شيئ آخر غير ملامح، ويضع كلمة "نزهة"بين مزدوجتين،تحفظا،لأنها جرت في زمن و ظروف الحرب. فرأى بعض الجبليين الذين أحبوا أرضهم،يحرثون الحجارة،وهم يرتدون أحذية و ملابس من العصور الغابرة،و كأنهم"أقنان"العصور الوسطى. وعلى الرغم من التجاعيد التي جففها الجهد،لا يزالون يحتفظون بنظرة فخورة و شبه مستفزة. لكنها لم تمنعه من أن يجد عند شراء بعض حاجياته الغذائية، من القرى الجبلية أخلاق الضيافة،وتخفيض الأسعار لدرجة انه وضع كلمة"المشتريات" بين مزدوجتين.لأنه عند التسوق هناك كان يستدعى لشرب القهوة وأكل الخبز التقليدي.فواجب رعاية البؤساء و ضيافة الغريب عند هؤلاء قاعدة لا يسمح باختراقها.على الرغم من أن هذه المنطقة ظلت محلا لا يمكن أن يخترقه الغزاة.هذه القيم الجبلية،التي عاشها هذا الجندي الفرنسي- في الأوراس جعلته يتساءل"أين الحرب في مثل هذه اللحظات"[2].

إنهم سكان الأوراس "الشاوية"رعاة الغنم الذين وصفتهم ماثيا غودري، بشديدي الاستقلالية،لا يستطيعون العيش دون حرية، مثل كل سكان الجبال،إذا طال أسرهم ذبلوا،و كانوا عبر التاريخ مستعدين على الدوام للثورة[3].إن أمثلة كرم الضيافة عند أهل الأوراس وفيرة،و قداختارت لنا منها ماثيا قودري قصتين.إحداهما قصة ذلك الأب الذي قتل ابنه نفسه أثناء اللعب. وبدلا عن إعلان الحدث المفجع قرر إخفاء محنة الموت و لم يعلن عنها إلا لحظة مغادرة ضيوفه لبيته.والثانية هي قصة ذلك السيد،الأوراسي الغني الذي لحقه من الجوع و الفقر ما لم يجد بعدهما لا سميدا و لا قمحا في القرية ليكرم به ضيوفه.فخرج إلى القريةو طلب من سكانها وجبة لأربعة أشخاص مقابل تزويجهم ابنته المثقلة بالذهب[4]،الذي كساها به والدها في زمن غناه.

ومن أبشع ما قرأت من تعريفات للأوراس ذلك الذي كتبه يوحنا ليون الإفريقي وهو يصف شمال

[1] Georges Simon:**1954-196 ,l'autre guerre d'Algérie: car assuré d'une vie éternelle**( Paris : Pensée universelle,1988), p 76.

[2] Ibid,151-154.

[3] Mathéa Gaudry, **La femme chaouia de l'Aurès** (Paris : Paul Geuthner,1998 ) ,p 83.

[4] Mathéa Gaudry , **La Société féminine au Djebel Amour et au Ksel** (Paris : Geuthner,1961),p 45.

إفريقيا.فلم يرقه غير القول:"الأوراس سلسلة جبلية جد مرتفعة،يقيم بها سكان محدودي الذكاء،والأكثر من ذلك أنهم لصوص و قتلة لا يمكن الدخول في علاقة مع هؤلاء الجبلين الذين يحتمون بجبالهم بإخفاء نقاط الوصول إليها عن الغرباء"[*1].و كان عليه بالاحرى ان يقول "بإخفاء نقاط الوصول إلي جبالهم،عن أعداء الدين و الوطن."

كما وصفت إحدى الكتابات الكولونيالية الأوراس بأنه جبل تنبت فيه الذئاب،وقد شكل هذاالإنبات المتكاثر ضد الاحتلال، اكبر مأساة للمستعمر،حال دون تطبيق المقولة الرومانية"إذا نلنا الأوراس نلناالجزائر".ولم تنل الأوراس من الفرنسيين لان أسدها ظل لهم بالمرصاد.أسد، صد و رفاقه المحتل حتى وصفه هذا الأخير بثعلب الأوراس الماكر.

وبقلم جون بيار غيلدرو نقرأ هذا الوصف :"ان بن بولعيد و هو ينبح هنا و هناك، يواصل الإعداد النفسي- لهؤلاء الرجال الذين سيشعلون نار الثورة الشاملة في الثالثة صباحا،بعد ان نفذ صبرهم و اشتعلت نار كراهية المستعمر في احداقهم. فبجسمهم النحيف و الجاف و بطبعهم العصبي... تراهم يتربصون كما تتربص بالقطيع الذئاب الجائعة،الصامتة و القاسية... مع رغبة عميقة في غرس أسنانهم في جسد البشر- و كلهم خضوعا لسيدهم، ثعلب الأوراس مصطفى بن بولعيد"[2].هذا الأخيرالذي وصفه الكاتب الصحفي سيرج برومبيرجر ب" قوة الطبيعة"هو ابن الجبال الثري الذي كرس أهله و ممتلكاته جميعها للكفاح وجعل من كهف الأوراس البارد مقرا له لإدارة الثورة.

**2- جبال جرجرة**

بعد هذه الجولة الجغرافية والاثنولوجية والتاريخية في بلاد الشاوية( الأوراس)،نصل معا إلى بلاد القبائل. وبناءا على ما بدا للكاتب الرحالة جون مارينار،منطقة القبائل هي الجزء الأكثر فخامة و بهجة في الجزائر.و قد قسمها إلى ثلاثة أجزاء: القبائل الكبرى او قبائل جبال جرجرة و تمتد من بجاية إلى العاصمة الجزائرية.القبائل الصغرى و تسمى قائل جبال البابور و تمتد من شرق بجاية إلى ما وراء منطقة جيجل لتشمل حتى منطقة جميلة الاثرية و سطيف.و تطلق تسمية قبائل القل على المنطقة التي تشمل الميناء الذي يحمل هذا الاسم.

وحينما نتحدث عن القبائل سياحيا تصبح زيارتها بكاملها إلزاما.فالمناظرالطبيعية تضطرك للذهاب إليها،لأن فيها من العظمة والجمال البري المفاجئ مالا

---

[1]Jean léon l'africain, **Description de l'Afrique**,Volume 2 (Paris : Adrien-Maisonneuve,1956) ,p 407.

[*] و مثل هذا الحكم عن جبلي الاوراس نقرأه ايضا عند ليون بوانصار حيث يرد هذه الصفة الى فقر جبلهم و شح وسائل العيش الذي يدفعهم إلى الاعتداء على ممتلكات الغير، مصحوبين بالسلاح و مدعومين بطبعهم النصف متوحش، و عنفهم و ميلهم للعراك. انظر:

1-Léon poinsard, **propos d'un pays neuf** ( Paris : bureaux de la science sociales,1950),p 38.

2- Léon poinsard, **La production,le travail et le problème social dans tous les pays au début du XXme siècle**,Volume 1(Paris, Alcan,1907),p 114.

[2]Jean-Pierre Gaildraud ,**Les années Monnerot** (Limoges .Éditions Flanant,1999),p 30.

تتوقعه من مثل هذه الجبال القريبة من المدن الكبرى.أهلها مميزون و هم من أنقى الأمازيغ.

وتتواصل مع جون مارينار المقارنةو التفرقة التي عهدتها الدراسات و الكتابات الكولونيالية، بين العربي و الأمازيغي. فالأمازيغ القبائل أكثر ديناميكية و شرف،أكثر بياضا من العرب و اقل تأثرا(بسلبيات العقيدة المحمدية منهم)،ويضيف واصفاالجبلي القبائلي، بأنه مزارع من الدرجة الأولى،على تربة أرضه النادرة و الجدباء نسبيا،تمكن من تحقيق درجة مذهلة من النمو. ففي كل مكان و بكل الأشكال، تكاثرت الكروم و أشجار البلوط وحتى في أوديته الضيقة نمت أشجار الدردار الباسقة،التي صارت توفر له العلف الرئيسي لمواشيه. لكن ملكيتها جد معقدة، بسبب نظام التوريث وغياب الملكية الجماعية،فغالبًا ما يحدث أن تكون التربة التي على الجبل ملكًا لشخص والأشجار التي تنمو عليها ملكًا لشخص آخر. و يروي له أحد القبائل أنه يعرف حالات،حيث تنتمي شجرة واحدة لعدة أشخاص، فيكون لكل واحد منهم فرع معين .[1]

هكذا تتجلى جرجرة، جبال الحديد كما سماها الرومان،جبال الفخر والشجاعة والمقاومة العنيدة المختبئة داخل ووراء الصخور والمسالك الوعرة،متزينة بمناظرها الفخمة والجملية،بقراهاو بساتينهاالمعلقة التي تعاند وتقاوم بها الفقر والشر( هذه التسمية الاخيرة تطلق في ثقافتناكمرادف للجوع).

وتروي إحدى الأساطير التي ينقلها لنا جون سرفيه[2] عن جرجرة ذات شتاء وهي تحت الثلوج،التي غطت كل الحقول،وبينما كان أحدهم نائما في ركن دافئ في بيته،جاءته بغتة فرسه الجائعة منذ أيام،والتهمت لحيته،التي حسبتها خصلةعلف. ولاحقا نجده يصف القرى القبائلية بعوالم الصخور الجافة والوحل،ترغمه على الإحساس بحمى الاكتشاف،فيحفر مثل عالم الآثار،بأسئلته، التي يكتشف بكل واحدة منها،عالما جديدا في هذه الجبال.

وقد وصفها أستاذ القانون الإسلامي، لويس ميليو بأنها"جبال وعرة مثل لوفزنييه الفرنسية وآهلة مثل لومبارديا الايطالية".[3]فالقبائل كاهل الأوراس،أمازيغ و مستقرين في الجبال،في بيوت حجرية تشكل قرى صغيرة و مداشر معلقة حيث تحتمي ثقافتهاواستقلاليتها.

ولكي يتمكن الأمازيغي من العيش هناك تتدخل زوجته على الدوام بعد مهام البيت الموكلة إليها حصرا،لتتقاسم معه العناء في الأعمال الزراعية والانحدار نحوالوديان و المنابع البعيدة،لجلب الماء،مما يتطلب منهاوقتاوجهدا أكبر نزولا و صعودا،محملة بالأثقال صوب القرية الأمازيعية المشيدة على القمة كالقلعة المحمية من هجوم الأعداء.ولا تجد من تعويض عن جهد النزول من الصخور العالية،و لم شتات قوتها للعودة من جديد غير الجلوس للاستراحة و الترفيه

[1] John Marrine,**Sailing to Timbuctoo** (London:William Kimber and co.limited,1973),p 25-29.

[2] Jean Servier, **Dans l'Aurès sur les pas des rebelles**, op.cit.,p 95.

[3] Louis Milliot,**Pluralisme ethnique et culturel en Algérie,** Compte rendu,Volume 30, Lisbon : institut international des civilisations différentes ,1957), pp 123 -1 35. Voir,l'ed :(Bruxelles, 1957, p 127).

بتبادل اطراف الحديث مع النسوة عند الينابيع في اسفل الجبل [1].

فحسب ميشال صالیناص[2]، تستحق جبال قبائل جرجرة بان توصف بالجبال الواعدة بالعظمة والرفعة والرعب.لا يستطيع أن يقدر ثراءها السياحي،إلا الشجعان والمشاة والعارفين بها.فمن القمم إلى التلال،من المنحدرات الشديدة المفاجئة نحو الوديان،كلها مناظر جليلة، ذات جمال لا متناه يثير الخيال. ولعل ما يزيد من عظمة هذه الجبال هو مقارنة جيلس لوكلارك لها بالجبال الأوربية التي يخلص من خلالها إلى القول أن معرفتنا بهذه الأخيرة لا يمكن أن تعطي لنا أية فكرة عن جمال الأولى.فحاجز جرجرة المهيب الذي يسد الأفق،تنقسم تلاله ذات الجدران العمودية في صورة أبراج و قلاع وتتابع في لونها الرمادي تحت زرقة السماء،مثل أمواج المحيط .

ويروي الكاتب الرحالة،الضابط سابقا،إدوارد دو كايسر، في مقاله"الروح العربية"[3]،عن كرم القبائل وإنسانيتهم، أنه على الرغم من زعم بعض الغربيين أن القبائل أكثر توحشا و قسوة من العرب،و أنهم يستقبلون الغريب بالهراوات،إلا انه لا يمر شتاء إلا وقد تعرض للضياع و التجمد تحت الثلوج مسافرون و جنودا جياع، لولا تلقيهم الاستقبال والإطعام والتدفئة،من أهالي الأكواخ البائسة الفقيرة،وذات مرة عثر القبائل على فيلق مفقود،يكاد يموت أفراده،فتم الاستنجاد بالسلطات الفرنسية بالعاصمة للتدخل،لان الثلوج الجبلية حالت دون نقل المرضى منهم إلى المستشفى.و ما كان من سلطات الاحتلال إلا أن تأمر الأهالي بالاحتفاظ بهم إلى غاية انجلاء الثلوج.هكذا هم المنتصرون الأقوياء لا ينسون تحت أي ظرف أنهم أسياد،لدرجة أنهم حتى حين يستلزم الوضع الشكر،يقدمون أوامر صارمة و كأن الضيافة ليست أخلاقا حرة أو قيمة إنسانية و ثقافية،بل إلزام على العبد اتجاه سيده.ويؤكد صاحب المقال أن هؤلاء الأهالي القبائل لم يلقوا أبدا لا شكرا ولا أية مكافأة. فبدل القليل من اللطف والرفق في مثل هذه المواقف، يمارس المستعمر هيمنة لا تصدق على هؤلاء الجبليين المحمومين بالحرية والذين يخفون في جوفهم قلوب الأطفال.

ووصفها مارتيال ريمون، مدير البلدية المختلطة بمنطقة القبائل سنة 1933،بقوله:"قد تتذوق العظمة البرية لجبالها،والتراخي اللطيف لتلالها وسهولها،فضلاً عن العادات الأصلية لسكانها.أقل إقامة ستجعلك تستمتع بسحرها الآسر و المتجدد ألف مرة ؛ لكن سيتعين عليك في كثير من الأحيان العودة لاكتشاف روحها السرية، داخل متاهة معقدة ذات الطيات المتعددة.ربما، سيترك هذا البلد في ذاكرتك ذكرى أقل غرابة من تلك التي تتركها واحات وأشجار نخيل الجنوب ، لكن الذكرى هنا أعمق وأدق: البحر والجبال وأشجار الزيتون وأشجار التين والبلوط و الارز. ، قرى تطفو بشكل غريب ، غالبًا ما تكون

[1] Louis Milliot, **Étude sur la condition de la femme musulmane au Maghreb** (Paris : J.Rousset,1910),p 262.

[2] Michèle Salinas,**Voyages et voyageurs en Algérie** (Toulouse : Privat,1989),p 126.

[3] Edouard de Keyser:l'ame arabe, **La Belgique artistique et littéraire**, Volume 31( bruxelles : accumulateurs tudor), 1913, p 214.

الأرض غير مثمرة على الرغم من أنها مكتظة بالسكان، تثير الفضول وتعج بوعود للمستقبل!"[1].

و ينصح م. لاير السائح الراغب في زيارة المنطقة بان يأخذ انطباعا صحيحا عن المنطقة قبل الندم، فهي ليست زاوية من عدن[2] حيث يجد الحياة عذبة،كما قد يوحي له بذلك سحر انطباعاته. فشعوره سيتغير حتما لأنه، حتى في فصل الربيع، بينما يمتد نظره مرتاحا للبانوراما المتموجة والمتنوعة، سيدرك الإرهاق الذي يفرضه مسار هذه المناظر الخلابة الشديدة التقلب التي يمكن وصفها بالمظطربة . لقد كانت تلك المنحدرات المتتالية دون توقف، هي الطريق الذي يرهق البغل، هو الذي كان يسلكه المنصرين لساعات صعودا و نزولا و هم يقومون بمهمتهم الدينية في بلاد القبائل.

وكنتيجة للترتيب الطبيعي لسلسلة الجبال وارتفاعها، تخضع الظروف المناخية لتقلبات شديدة مع تغيرالمواسم.ففي الشتاء يشتد البرد و تكثر الثلوج،إلى حد يعيق إمداد القرى بالمؤونة لولا تدخل الكاسحات. أما صيفا فان الحرارة تجور و تصبح مضنية. فيستبد معها الجفاف فيحرم البساتين و الحقول من الماء. لكن على الرغم من ذلك يظل الهواء جد نقي على القمم تعجز عن بلوغه الحمى المسوطنة في الأراضي المسطحة.

و في رسالة دكتوراه سنة 1911[3].يقدم لنا برنار ليك الرجل الجبلي القبائلي بربط صفاته بخصائص جبله. فعلى الرغم من الاكراهات التي يمارسها الوسط الطبيعي على الإنسان في بلاد القبائل، فإنها لم تطفئ طاقة ساكن هذه الجبال، بل أثارت سخطه وهيجتها.

فلكي يعبر الهوة التي تفصل بين القرى في موطنه،شحذ لنفسه عضلات من حديد. و لكي يتمكن من العيش على هذه الأرض الصخرية، كان عليه ان يكون عاملا دون هوادة و غارس أشجار حكيم. من جمع مساحة قدم من التربة، يغرس شجرة دردار. و على ارتفاع 800 متر تنمو أشجار التين، التي تعد موردا ثمينا بالنسبة لسكان جرجرة،و في الأعالي و أحيانا قرب القرى أو حتى في الوديان تمتد أشجار الزيتون ذات الجذوع الهائلة و الأذرع المورقة على الدوام، و التي يتجاوز عمر عطائها الآلف عام. و في أعلى و ابرد الأجزاء من الجبل ينمو البلوط، الذي يعد المورد الأغلى لساكن الجبل حينما تدفعه الحرب للخروج من قريته. و في محل آخر يعطي لنا برنار ليك شرحا مؤثرا من اهل الجبل لكرم الضيافة عندهم. فعندما تتلقى القرية الجبلية العديد من الضيوف الذي لا تتحمله قدرات الأسرة الواحدة يوزع هؤلاء على بيوت القرية، و تتفق الجماعة المضيفة على طبيعة الكسكس الذي سيقدم للضيوف.لاتخاذ قرار مشترك حول ما إذا كان الطعام سيكون بسيطا أو بالعسل أو اللحم أو بالزبدة أو

[1] Martial Rémond, **La Kabylie** (Alger: Baconnier,1937),p 26.

[2] M.layer ,**Voyage en kabylie par monts et par vaux** (Rouen : les belles lettres et arts,1913) ,p 102.

[3] Bernard Luc, **Le droit kabyle** (Toulouse : Librairie des étudiants, 1911) , p 9-10 (voir aussi l'édition de 1917,avec une lettre-préface de Rouard de Card,A.Challamel,Paris,p 7-8.

الزيت.[1]. فالطبيعة الجبلية في حالتها الخام جد شرسة و غير مضيافة، لكن ضيافة اهلها جعلتهم يبذلون مجهودا أشرس منها لترويضها و تطويعها.

فالغريب بمجرد أن يدخل إلى المنطقة يجد نصيبه من الزاد،المأخوذ بالقانون،من الثروة العامة في انتظاره،و هذا لأنه في منطقة دون فنادق( جبلية فقيرة ووعرة)،تصبح الضيافة مسؤولية و عبئ عام و شاق.لكن الالتزام بها والحفاظ على هذا المبدأ الجميل يتم بطريقة مؤثرة جدا،تصل إلى حد القيام بأفعال بطولية[2]*.

و تروي مبشرتين مسيحيتين عن الاستئناس بأخلاق الضيافة في العزلة، عند القبائل في فترة اختطافهما و احتجازهما تعبيرا عن رفض جبهة التحرير لتواجد المسيحيين هناك. لقد أدركتا معنى ان يكرم ضيافتهما الجبلي القبائلي البائس بطبق لحم، يحرم نفسه منه،و قد اقتصد لكي يوفره لهم.

وتضيف أنهما باتفاق مع حراسهما،اختارتا المشي لتدفئة الجسد، مما سمح لهما باكتشاف جمال جرجرة البري، بجبالها الضاربة في السماء تلاشت مخاوف ليالي الاحتجاز، لان أمام هذه الطبيعة، الجميلة و الهادئة لا يتبادر الى ذهن الناظر غير الصلاة[3].دون أن ينسى- المستعمر المغتصب أن هذا المكان العظيم الجمال هو مكان مثالي أيضا لنصب الكمائن للعدو. فلم يصدق يوما االقبائلي و لا الأوراسي أن فرنسا التي أحرقت أراضيهم و خربت موطنهم ستصبح يوما حاملة رسالة حضارية، بل اتفق هؤلاء على الانتقام منها و طردها.

ففي قلب جبال القبائل، التي تعد جرجرة عمودها الفقري،كان للثوار في الكهوف،في صدع عميق من الجبل، ملاجئ لا تطالها وسائل العدو،و مخازن للأسلحة تزود مناطق كثيرة من الوطن بالسلاح.

و من نافذة نزله الواقع على ساحل جزائري أطل باكرا، المسيحي ، المحامي والخبير الشهير في العلوم العسكرية ، هنري واجر إليك، فكانت له فرصة جميلة لرؤية الشمس و هي تشرق من وراء قمة جرجرة المغطاة بالثلوج، فتحظى هذه الجبال بالتقاط أولى أشعتها أما آخرها فيتلألأ على أمواج السواحل والوديان. إشراقة تعد بحياة و جمال جديدين، يدفعان الإنسان بقوة لا تقاوم إلى التفكير في حضور الله المحتجب عن مخلوقات الأرض. و الذي لا تستطيع أن تراه إلا عين المؤمن. و حينما ينزل الظلام و تطل على المدينة و ضواحيها ألف نجم، يتألق هذا الحضور،و يضيئ المفكر وسط الظلمات المحيطة. مثل هذه الأفكار و وهج المجد المنعكس على الجبال يشكلان أجواء وصورًا تفوق قدرة المرء على وصفها.ولا ينتهي اليوم إلا وهو منتصرا على الظلام، و لم أر في حياتي مثل هذه الروعة في السماء المتوهجة باللون القرمزي و الذهبي. و كان الأفق البعيد مهيبا باللون الأرجواني. لكن في الوادي ، يرتفع الضباب

[1] Ibid.,p 60(p 51 pour l'ed.,1917)

[2] Ernest rénan , **la famille kabyle**, **Les établissements français d'outre-mer et leur reflet dans la littérature**,larose-paris : Bédu,1952,p132.

* انظر الأعمال الكاملة لارنست رينان :

Ernest Renan, **OEuvres complètes**,Volume 2(Paris :Calmann-Lévy, 1947),pp 25-26.

[3] Jean-Philippe, Ould Aoudia,**Un enlèvement en Kabylie** (Paris :Tirésias,1996) p, 53et 87.

الأبيض النقي، أحيانًا إلى الصدر ، وأحيانًا ينحرف على غير هدى . فبدى و هو ينخفض كانه يمتلك الارض و ياسرها على الرغم من مجد السماء التي اختفى بريقها تدريجيا. هكذا هو مجد السماء في المساء، إنها سماء الليل اللامنتاهية العمق،صافية و هادئة و تبشر- بالتأكيد بفجر ذهبي و يوم ازرق يتلاشى معه الضباب .[1]

و يكتب الجندي الفرنسي و القناص الألبي، يومياته في جرجرة خلال ثورة التحرير، و على ظهر ها يصف الطريق في هذه الجبال بالمزروع بالكراهية، و المعاناة و الفرح. في مواجهة حرب العصبات التي فرضها ثوار جبهة التحرير ، و قدرتهم على التحمل الكبيرة على التحمل في الجبل ، أثناء الزحف، أو خلال الاشتباكات، و كأنهم مبرمجون للاستجابة للأوامر، و أحيانا يفقدون كل حكمتهم ، و يدعو القارئ الى أن يشاركه حزنه و دموعه عبر هذه الجبال في حرب يصفها باللامعقولة. كما يدعوه أيضا إلى يرافقه في هذه المسالك البرية اللامتناهية، في بيئة متعددة الأوجه .

فبين التعبير عن الفرحة و الإعجاب بهذه الجبال و التعبير عن الخوف منها ، ستتراوح النصوص التي انتقيتها من هذه اليوميات.

في البداية بدت الرحلة نحو القبائل الكبرى، كما وصفها لهم كبار القادة ، حدثا سارا، بل رحلة جميلة تكاليفها الباهظة كلها مدفوعة الثمن مسبقا من السادة . و محظوظ جدا ذلك الجندي، الذي يتم اختياره للذهاب إلى هناك. وهاهي اللحظة المنتظرة قد أتت، لحظة رؤية سلسلة جرجرة العالية مكسوة بالثلج. التي نفخ الكبار من اجلها معنويات الجنود الشباب بكلمات عذبة تعدهم بالجنة في جرجرة. لقد خاب ظنهم في جرجرة ، جنائن عدن الموعودة، و انهار حلمهم. و صاروا أمام الواقع يذوبون كالثلوج تحت أشعة الشمس، واقع لا يحكمه إلا الخوف البرد، الحرارة، التعب، الضيق و الحزن و الأمل في العودة السريعة للأهل. لأنه أمام مشاهد الموت و أصوات السلاح و حشرجة الأرواح و هي تخرج من صدور الضحايا، و صور مئات الجثث من الثوار، يكاد يتقيأ روحه. لدرجة انه يصرح " إنني اكره تلك القرى، أكره تلك الجبال، و أكره تلك البربرية". فغير إصابات أجسادهم العميقة التي لا تلتئم إلا بصعوبة فإن ثوار جرجرة، حتى و لو ضحوا بأرواحهم، فقد جرحوا جنود العدو في ارواحهم. فالقبائل في ديار المعركة التي هي ديارهم، سادة الميدان الدءوبين اللذين لا يصيبهم الكلل، فهم مثل الحيوانات يعرفون كل ركن في الجبل، زواحف جبال بامتياز و بلا هوادة. مجرد تناول بعض التين و الماء يمنحهم القدرة على قطع كلومترات عبر سلاسل جبالهم المألوفة .[2]

فشتانا بين التنزه في جبال جرجرة،والتنزه في المرتفعات التي ألفها الفرنسيون و هم يكتشفون و يتمتعون بلذة المناظر الطبيعية الجديدة على جبالهم ، التي بازدياد صعودها تزداد متعة الصاعد، لأنها تمنحه فرصة المشي على وتيرته الخاصة. و لن يصدق استحالة التشابه، إلا ذلك الذي جرب ولوج هذه المتاهة، فحتى بعد خرجات العديدة إلى هذه الجبال، التي أكسبته القدرة على التحمل أثناء الزحف على

[1] Henry W. Case, **A Place in the Sun** (New York: Gospel Publishing House,1919),p 25.

[2] Roger Conroux , **La Kabylie des chasseurs alpins** ( Paris :Editions des écrivains, 2001),p 31.

الجبال، فإن الجندي يظل يعاني، لأنه يطلب منه كل يوم الأكثر أثناء تمشيط الجبال الذي شعله و رفاقه يشعر انه وصل إلى آخر نقطة في العالم مما ألزمهم بسرعة حط الرحال للاستراحة، حتى لا يلتهمهم الليل. و في اليوم الموالي السيناريو ذاته سيتكرر: الوديان، القمم، التعب و الخوف[1]. فلم يعد هذا القناص يطيق جرجرة التي يصفها ببحر من القمم ،المثيرة للغثيان، تمتد كل موجة من الأرض فيها نحو الأعلى،على شكل تلال طويلة لا متناهية،وعلى قممها تعصف و تعوي الرياح العنيفة،و كأنها تريد أن تمتصه.فأمام جرجرة لم يعد هذا العسكري إلا شيئا هينا، و كان قوة هذا الجبل الذي يريد القضاء عليه تزداد بضعف هذا الإنسان الذي أقحم نفسه في عراك غير متكافئ الطرفين،خاصة وأن الجبل قد تواطأ ضده مع رذاذ المطر الناعم و المتماسك، الممتزج بثلوج جامدة تصفع وجهه.

بعد هذه المقاومة والصراع مع هذه القوة الطبيعية الهائلة،لم تعد لديه القدرة على تحمل المزيد.فضجيج صفير الرياح يصم الآذان.فجرجرة تواجهه بكل غرور و هيمنة وانتصار وكأنها تقول له"إحذر! حينما تكون معي، يجب عليك أن تحسب لي حسابا،وتتحملني و تواجهني وتعاني، دون أن تتجرأ حتى على رفع نظرك إلي. مما يضطره إلى السير كحبة الطماطم، رأسه مغروس بين كتفيه لا يجرأ إلا على النظر إلى خذائه العسكري، ليراقب حركة قدميه على ارتفاع الجبل. إن الضباب المحيط بها بالكاد يسمح له برؤية الطريق، الذي قد تظهر على جوانبه فجأة صخور ضخمة بظلالها الداكنة المثيرة للإعجاب. فالأرض الجبيلية صخرية و من حين لأخر تعيق بعض الشجيرات تقدمه في الصعود. ثم انغمس المسار في الصخور وكأنه ضاع في ثقب اسود، زاده سواد الليل انغماسا، لأن نور النهار قد تلاشى بغتة، ليولج الجندي و رفاقه في عتمة سرية و مزعجة. فالقمر الباهت الذي ظهر في سماء الجبل،لم يكن مهدئا من الخوف من مباغتة الكمائن،التي لا ينجو منها إلا من كان قوي الحظ أو كان لديه ملاكا حارسا[2].

لكن قبل أن يعتريه هذا الرعب و التعب مجددا، في ارض يصفها بالأرض اللعينة ذات الوجه القبيح ، الوفي لسمعته، أرض بؤسهم و معاناتهم، لم يغفل أثناء استفادته من قسط الراحة ، أن يغازل جرجرة و هو مستلقيا على ظهره ليبدد بتحسس جمالها بعض من خوفه و قلقه ، لكن هيهات ان يتحقق له ذلك، حيث تتبع عنده دوما أحاسيس الخوف و القلق و الحذر، الأحاسيس الرومنسية، إن لم نقل ترافق الواحدة منها الأخرى، و تغلب الأولى على الثانية في تصويره لجبال جرجرة . حيث يقول " بينما كنت استرجع بعض أنفاسي مستلقيا على ظهري موسدا حقيبتي، كنت أتامل السماء التي تضيئ تدريجيا كالراية المرصعة بالنجوم المتلألئة. و هناك بعيدا تبدو لنا التلال، و التقطعات غير المنتظمة لسلسلة جرجرة ، التي تسمح بمتابعة المغيب الرائع بينها...و على الرغم من هذا الهدوء الباعث على الحلم، لا يجب ان ننسى سبب حضورنا هناك . ففي هذا الديكور الرائع، يظل الخطر دوما حاضرا مما يتطلب الحذر من التراخي. و كنا لا ننام إلا قليلا، مع الإبقاء على عين مفتوحة، لان الليالي الحالكة و حيوانتها المزعجة للجميع ، تعمل كترياق للنوم... و لا تدع هذه الوضعية( وضعية العسكري

[1] Ibid.,p 79.

[2] Ibid.,p 81-83.

المعتدي النائم في جبال القبائل) ادني فرصة للراغب في الحلم "[1].

فلا حلم و لا نصر أيضا للعدو في مثل هذه الجبال،فكل ما بقي لجون كلود بونين،الكاتب،العسكري الفرنسي السابق ،هو العذاب: لم يبق أي انتصار قائم،كل ما بقي قائما هو قمم العذاب من قمم الجزائر،التي وصفها بالوطن اللعين، لأنه سرق منه و من رفاقه شبابهم، لقد دربوا على السلاح والقتال،وهم لا يزالون صغارا،لم ينتهوا بعد من التمتع بألعابهم.فما كادوا يستفيقون من أحلام الأطفال البريئة العجيبة حتى زج بهم في جبال صعبة،أهلها و حتى الشيخ منهم تجده كالبغل، ثابت الخطى على جباله،لا يتعثر الا قليلا ولا يسقط أبدا،حتى في أسوء الطرق فيها و هو محملا بجهاز راديو العدو،الثقيل على أكتافه المسنة. فكم من الصعب و القاتل أن يضيع أحدهم في هذه الجبال.فيصف الجبل بالخطير والجبل الشيطان،الذي جعل من الشمس العربية اللعينة، حليفة له،و تآمرا معا على قتلهم جميعا،رافضا أن يسلمهم رشفة من مياه العناية الإلهية،التي كانوا يثمنونها.إنه الآن يعاني و يتألم من ذكرى سيئة جدا عن هذه الجبال، فصور القتال فيها جعلته يكره كل الرياضات والألعاب القتالية،مثل صراع الثيران والديكة، والملاكمة والمصارعة[2].لأن "أناه المحاربة" بل و المعتدية قد تخلى عنها هناك في جبال الجزائر ووديانها و لو يعد يهوى القتال و لو كان في صورة لعب أو فن.لقد صنعت منه الجبال الثائرة المسالم المتقاعد عن الظلم والإيذاء.

خاتمة

إن هذه الجبال في كتابات المستعمرين، و على الرغم من إحساسهم بروعتها ، جاذبية و سحر مناظرها الطبيعية و دلالتها على وجود الله فهي أيضا شاقة و لعينة ، و خطيرة و ممقوتة من أعدائها، لكنها كانت عبر تاريخ الكفاح الجزائري ضد الغزاة، مأوى آمن للثوار و محل اجتماعاتهم و تواصلهم، و مخبأ الأسلحة و قد وصفت بالمتاهة فوق الطبيعية من طرف من خافها من المستعمرين .غير أن أهلها في جبالهم يشعرون و كأنهم في ديارهم، بالأوراس أو بجرجرة. و قد تغنى بها أهلها و الثوار، استوحى منها مولود فرعون شخصياته، و كتاباته الاقرب الى الوصف الاثنولوجيي منها إلى الرواية الأدبية، في "ابن الفقير" الذي هو ابن الجبال و "الدروب الوعرة" التي هي دروب الجبال ايضا .كما الهمت أيضا الفنان لونيس منقلات كلمات أغانيه المحملة بالتراث و الحنين لارض الجبال ، بلاد القبائل. بلاد قال عنها مولود فرعون"قلبي في جرجرة للأبد"وقدتغنى الثوار في المنطقتين بجبالهم اعتزازا بانتمائهم الذي كان يقوي روح الثورة فيهم. و كان مغنوا الجبال يربطون بين الجبل والثورة والتضحية والاستشهاد.

**قائمة المراجع**

Albert Meunier,Voyage en Algérie, Paris : Alcide Picard,1909.

André Jean Marie Hamon,Vie de Saint François de Sales: évêque et prince de Genève, Volume 1,Paris :V. Lecoffre, 1920.

[1]Ibid.,p 8.

[2]Jean-Claude Bonnin,**Adieu colon** (Auto édition : Montpellier-de-Médillan, J.C. Bonnin 2000), pp117,124,133,228.

Ernest rénan ,la famille kabyle, Les établissements français d'outre-mer et leur reflet dans la littérature,larose-paris :Bédu,1952.

Ernest Renan, OEuvres complètes,Volume 2,Paris : Calmann-Lévy, 1947.

F. Sarrazin, L'Algérie,pays sans loi,Esprit,sept – oct) 1955.

George Gordon Byron Baron Doubleday, Childe Harold's Pilgrimage:And Other Romantic Poems, New York: Doran and company,1936.

Georges Louis Le Clerc de Buffon, Œuvres,Paris, Paris : Gallimard,2007.

Georges Rozet, L'Algérie,Paris : Horizons de France,1929.

Georges Rozet, l'Aurès, escalier du désert, Alger :Braconnier,1935.

Georges Simon:, 1954-196 ,l'autre guerre d'Algérie: car assuré d'une vie éternelle, Paris : Pensée universelle,1988.

Gilbert Jacqueton , Algérie et Tunisie,Paris : Hachette,1911.

Henry bordeaux:émile javelle et la littérature alpeste,Le

Anne Nercessian,l Ímage de la montagne dans la mythologie grecque,(La montagne et ses images: du peintre d'Akrésilas à Thomas Cole,*actes* du 16e Congrès National *des* Sociétés Savantes,Chambéry,France) Paris : C.T.H.S.,1991.

Bernard Janin, Une région alpine originale,le Val d'Aoste: tradition et renouveau, Grenoble : Raoul Allier,1968.

Bernard Luc,Le droit kabyle, Toulouse : Librairie des étudiants,1911.

Charles de Brosses, Le Président de Brosses en Italie, lettres familières écrites d'Italie en 1739 et 1740,Paris, Club des libraires de France,1958.

Charles Durier,Le Mont-Blanc,Paris :Fischbacher,1923.

Charles Hanin, Algérie,terre de lumière,Paris,Alsatia, 1950.

Edouard de De Keyser, l'ame arabe,(La Belgique artistique et littéraire, Volume 31) bruxelles : accumulateurs tudor, 1913.

Encyclopédie berbère, Volume 8,aix-en-provence, Edisud, 1984, p 1097

Emile Javelle, Souvenirs d'un alpiniste, Lausanne – Paris : Payot et Cie,1920 .

Jean-Jacques Rousseau:Oeuvres complètes,Volume 1,Paris, Seuil,1967.

Jean léon l'africain:Description de l'Afrique,Volume 2,Paris : Adrien-Maisonneuve,1956.

Jean-Philippe, Ould Aoudia, Un enlèvement en Kabylie, Paris : Tirésias,1996.

Jean-Pierre Gaildraud Flânant , Amours,violences en Algérie: de l'Afrique romaine à l'Algérie française (54 après J.-C.-1962), Limoges, Flânant : 2004.

Jean-Pierre Gaildraud, Les années Monnerot,Limoges : Éditions Flanant,1999.

Jean Servier, Dans l'Aurès sur les pas des rebelles,Paris : France Empire,1955.

John Grand-Carteret,La Montagne à travers les âges,Grenoble : Librairie Savoyarde,1903.

John Marriner,Sailing to Timbuctoo,London:William Kimber and co.limited,1973.

John Ruskin,Selected Writings,Londres:Penguin Books,1991.

John Ruskin,Works, Modern painters,v.2-5,New York:T.Y. Crowell,1951.

Correspondant,Paris : V.-A. Waille,1913.

Henry bordeaux, Paysages romanesques, Paris :Plon , Nourrit et Cie,1906.

Henry bordeaux,Reflets de la montagne,Paris,Gallimard :1960.

Henry Bordeaux,Un précurseur :vie, mort et survie de saint Louis, roi de France,Paris,Plon,1949.

Henry W. Case, A Place in the Sun,New York: Gospel Publishing House,1919.

Jean Boisson, Essai sur le problème algérien, Paris : Scorpion,1960.

Jean-Claude Bonnin,Adieu colon, Montpellier-de-Médillan : J.C. Bonnin (Auto édition),2000.

Jean de La Fontaine, Fables; Psyché; Œuvres diverses,Paris : Les éditions nationales,1947.

Jean dresch, reflexion sur le rôle de la haute montagne, Actes du IV Colloque de géographie maghrébine,L'homme et la montagne Tunis : Centre d'études et de recherches économiques et sociales, Tunis,1979.

Jean-Jacques Rousseau, Les confessions, Volume 1,Paris : Gallimard,1965.

Michèle Salinas,Voyages et voyageurs en Algérie, Toulouse :Privat,1989.

Martial Rémond,La Kabylie,Alger :Baconnier,1937.

Marthe Meyer, L'homme devant la montagne,Proses de montagne recueillies et commentées, Paris : Durel,1949.

Michel de Montaigne, Essais,Volume 2,Paris :Imprimerie nationale éditions,1998.

Michel de Montaigne, Journal de voyage en Italie par la suisse et l'Allemagne, Paris : Arléa, 1998.

Michel de Montaigne :Œuvres complètes, Paris :Seuil,1967.

Michel Klen,L'Algérie française,un tragique malentendu,ou Les périls de l'ambiguïté, Nice :France Europe livres, 2005.

Michèle Salinas, Voyages et voyageurs en Algérie, Toulouse : Privat,1989.

M.layer ,Voyage en kabylie par monts et par vaux,Rouen : belles lettres et arts,1913.

Martial Rémond, La Kabylie, Alger: Baconnier,1937.

Paul Veyret, Géographie de La Montagne,Maurice Herzog,La montagne,Paris:Larousse,1956.

Joseph Addison,The Works,Poems on several occasions, Poemata.Dialogues upon the usefulness of ancient medals. Remarks on several parts of Italy,1701-03, London:George Bell and Sons,1903.

Jules Blache ,L'homme et la montagne, Paris : Gallimard,1934.

Léon poinsard, propos d'un pays neuf, Paris: bureaux de la science sociales,1950.

Léon poinsard:La production,le travail et le problème social dans tous les pays au début du XXme siècle,Volume 1,Paris : Alcan,1907.

Luc Joly, Forme et signe : Genève : Tricorne,1980.

Louis Milliot,Étude sur la condition de la femme musulmane au Maghreb,Paris : J.Rousset,1910.

Louis Milliot,Pluralisme ethnique et culturel en Algérie, Compte rendu,Volume 30,institut international des civilisations différentes,Lisbon,1957.

Mathéa Gaudry,La femme chaouia de l'Aurès, Paris : Paul Geuthner,1998.

Mathéa Gaudry, la Société féminine au Djebel Amour et au Ksel,Paris,Geuthner,1961.

Philippe Leveau ,l'aures dans l'histoire,La Montagne dans l'Antiquité: actes du colloque de la Société des professeurs d'histoire ancienne de l'université, Pau (France) :Société des professeurs d'histoire ancienne des universités,Congrès ,1990.

Philippe Tripier, Autopsie de la guerre d'Algérie, Paris : France-Empire,1972.

Prosper Ricard, Les merveilles de l'autre France, Paris : Hachette,1924.

Raoul Julien François de Lartigue ,Monographie de l'Aurès,Constantine :Marle-Audrino,1904.

Roger Conroux ,La Kabylie des chasseurs alpins, Paris : Editions des écrivains, 2001.

Roger Ikor, La Kahina,Paris :Encre,1979.

Voltaire, les œuvres complètes, Volume 28,Partie 1, Genève :Institut et Musée Voltaire,1968.

# منهج اليعقوبي في كتابه مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر

أ.م.د. لمى فائق احمد
الجامعة المستنصرية / كلية الاداب

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا مُحَمَّد (ﷺ) وعلى آله وصحبه اجمعين .

صاحبت ظاهرة التنقل من مكان الى اخر الانسان في حياته منذ القدم يدفعه في ذلك حبه للاستطلاع وضرورة الحصول على حاجاته المعاشية، لذلك فإن تاريخ الرحلات والاسفار يعود الى اقدم العصور عندما كان الانسان يقطع المسافات لاشباع حاجاته .

لقد اعطى اليعقوبي البحث العلمي المتواصل قيمته العلمية التي يستحقها حيث انبرى العديد من العلماء الغربيين لدراسته، ولقد تجلى أثره في ثقافة التواصل بين الشعوب من خلال نشاطه العلمي ومؤلفاته بحيث اسهم مساهمة فعالة في بناء صرح الحضارة العالمية ببحوثه ودراساته وما جاء به من علوم ومعارف واراء كان بها اكبر دور في بناء التطور الحضاري .

كتاب اليعقوبي من الكتب النادرة حيث يعد من نفائس التراث العربي في الفكر الاجتماعي، وهو كتاب (( مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر)) ، يبحث فيه تأثير ثقافة النخب واهتماماتهم على سلوك الناس العاديين في حياتهم اليومية الذين يبحثون عن الرمز ويحاكون نمط حياته واهتماماته، وهو ما لاحظه علماء الاجتماع فالافراد ينتمون الى حقول مميزة تخضع لمنطق واحد او من خلال ظاهرة انتشار الأفكار في المجتمع.

تتبع اليعقوبي في كتابه ظاهرة انتشار القيم والعادات والتقاليد والاهتمامات وما يشيع بين الناس عموما، وتوصل الى أسبابها وهرمية انتشارها فهي وفق ملاحظته تبدأ من الخليفة ثم يقلده كبار رجال دولته، مثل ولاته ووزرائه وعماله ثم يقلدهم من تحتهم حتى تصبح عادة منتشرة في المجتمع فالخلفاء كانوا رمزا اجتماعيا ومصدرا أساسيا لتوجيه أفكار الناس واهتماماتهم.

ان كتابه هذا من حيث موضوعاته يمثل كتابا في التاريخ، إلا انه يتميز عن كتب التاريخ الإسلامي المعهودة من حيث مضمونه ومادته ومنهجه، فلم يتضمن التاريخ للأحداث وسني وقوعها او سير الخلفاء واخبار الفتوحات الإسلامية والحروب التي وقعت في عهودهم وانحصرت موضوعاته في أمور ترتبط باخلاق الخلفاء وافعالهم واقوالهم .

ارتأيت ان اقسم البحث الى مبحثين : الأول يتضمن حياة اليعقوبي ونشأته وظائفه ومكانته العلمية ووفاته.

اما المبحث الثاني : فقد تناولت فيه كتاب مشاكلة الناس لزمانهم من حيث مضمون الكتاب واهميته ونهجه ومؤلفاته .

## المبحث الاول

### اسمه ولقبه

هو احمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح الاخباري العباسي[1]، وقد لقب بالمصري والاصبهاني والكاتب واليعقوبي[2]. ومن ملاحظة هذه الألقاب نرى انها جاءت إما

[1] البغدادي، إسماعيل بن مُحَمَّد امين (ت 1399هـ)، هدية العارفين، دار احياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ج1،ص52؛ الأمين، محسن (ت 1371هـ)، أعيان الشيعة، تحقيق : حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، لبنان – بيروت 1983م، ج10،ص330؛ الزركلي، خير الدين محمود بن مُحَمَّد(ت 1396)، الاعلام،ط15، نشر: دار العلم للملايين، 2002م، ج1،ص90- 91 .

[2] متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، تحقيق : مُحَمَّد عبد الهادي أبو ريده،ط1، نشر : دار الفكر العربي، 1999م، ج1،ص321 .

نسبة الى قطر معين كمصر، أو الى مدينة ما كأصبهان المدينة الفارسية المعروفة، أو جاءت من مهنته التي اشتهر بها وهي الكتابة والتدوين والتي تسمى بها فيما بعد جماعة من العلماء . أما لقبه اليعقوبي والذي عرف به فربما جاءه عن أبيه أبي يعقوب إسحاق، ومن المحتمل ان اسم ابي يعقوب تحول بمرور الزمن الى اليعقوبي، أو لشهرته العلمية وشهرة عائلته في مجال السياسة غلبت عليه هذه التسمية[1] .

ويحمل اليعقوبي نسب العباسي[2]نسبة الى البيت العباسي الحاكم . وجاء هذا النسب عن جده واضح الذي كان من موالي المنصور ومن المقربين اليه والمعتمد عليه في المهمات[3] . وكان قد تقلد مناصب إدارية كبيرة إذ عُين واليا على أرمينيا وأذربيجان[4]، كما عُين أيضا حاكما على مصر في عهد الخليفة المهدي[5]. ومن هذا الانتماء جاء نسبه العباسي .

**نشأته**

ولد في بغداد[6]، ونشأ وترعرع في كنف عائلة كانت ذات شأن في المجال السياسي والإداري، وكان افرادها من المقربين للعائلة العباسية الحاكمة . ولذا فإن عائلة اليعقوبي كانت تعيش في مستوى معاشي جيد، وقد انعكست آثار هذا المستوى على أفراد العائلة . لذلك يكون اليعقوبي والحالة هذه عاش في بيئة متنعمة أولته الرعاية والاهتمام. وأولى مجالات العناية هي التعليم، خاصة وان عصره الذي عاش فيه كان للعلم المكانة المرموقة في المجتمع، ولابد انه تهيأت له كل وسائل التربية والاعداد ليكون الشخص الناضج المتعلم الذي تفتخر به عائلته[7]. حيث كان عالما فلكيا وجغرافيا ومؤرخا عربيا مسلما، برع في علوم الفلك والجغرافيا والأرض حيث كانت أولى اهتماماته هي الحصول على كما هائلا من العلوم والمعرفة التي تختص في تلك المجالات، الامر الذي جعل منه واحدا من ابرز العلماء الذين حققوا شهرة عالمية وتاريخية في وقت وجيز[8] .

انتقل اليعقوبي في بداية حياته من مدينة بغداد التي ولد فيها حتى وصل مدينة الهند التي استقر فيها فترة طويلة، ومن بعد ذلك قرر الانتقال الى مجموعة من الدول المحيطة والبعيدة حيث يقال انه زار الأقطاب العربية كاملة، حيث كان اليعقوبي في حله وترحاله شغوفا بلقاء أهل الامصارفتجمع لديه حصيلة جيدة من المعلومات أضاف اليها ملاحظاته ومشاهداته فجاءت كتاباته في التاريخ والجغرافيا دقيقة جديرة بالثقة والاعجاب، فاقتبس من جاء بعده من الجغرافيين والمؤرخين الكبار[9] .

كما كان اليعقوبي يقيم العديد من المحاضرات والندوات التي كان يعقدها في شتى البلاد والدول والتي كان يتحدث فيها عن أهم

[1] البغدادي، هدية العارفين، ج1،ص52؛ كحالة، عمر بن رضا بن مُحَمَّد (ت1408هـ)، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، دار احياء التراث العربي، بيروت،ج1،ص161 .

[2] ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين (ت 874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، مصر 2010، ج2، ص40.

[3] اليعقوبي،أبوالعباس احمد بن إسحاق(ت 292هـ)، تاريخ اليعقوبي، منشورات المكتبة الحيدرية،ج2،ص372.

[4] اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي،ص372.

[5] الطبري، مُحَمَّد بن جرير(ت 310هـ)، تاريخ الرسل والملوك، ط2، دار المعارف، 1967م،ج5،ص564؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج2،ص10.

[6] كراتشكوفسكي، اغناطيوس، تاريخ الادب الجغرافي العربي، ترجمة : صلاح الدين عثمان، جامعة الدول العربية، 2017م،ج1،ص158؛ خصباك، شاكر ، الجغرافية عند العرب، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1986م،ص366.

[7] عاصي، حسين ،اليعقوبي عصره وسيرته، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ص40.

[8] اليعقوبي، البلدان، ط1، دار احياء التراث العربي، بيروت 1988م،ص1 .

[9] مصطفى، شاكر ، التاريخ العربي والمؤرخون(( دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله))، دار العلم للملايين، بيروت 1978م، ص97.

العلوم والمعارف التي اختص بها، فقد كان يحضر تلك المحاضرات العديد من كبار الشيوخ والعلماء والأساتذة[1].

## شيوخه

لم نجد في طيات الكتب خلال البحث عن مصدر يذكر شيوخه او تلاميذه فقط يذكر آثاره العلمية، وذلك لأن الكتاب يخلو من مقدمة يذكر فيها المؤلف عن تلاميذه او شيوخه وجدنا فقط بعض الأسماء لشيوخه وهم :

إبراهيم الفزاري
جابر بن أفلح
مُحَمَّد الفزاري
اثير الدين الابهري
ابن يونس المصري
السجزي
أبو سهل القوهي
احمد بن كثير الفرغاني[2].

## وظائفه

أولى العباسيون عائلة اليعقوبي ثقة كبيرة حيث أناطت بافرادها أهم المراكز الإدارية حساسية كإدارة الأقاليم ومهمات البريد[3].

فواضح الجد الأعلى لليعقوبي انيطت به إدارة إقليمي أرمينيا وأذربيجان في عهد المنصور[4]، وعين أيضا حاكما على مصر في عهد الخليفة المهدي[5]. كما شغل والده منصب عامل بريد[6].

أما اليعقوبي انه لم يخدم في بغداد لأنه غادرها مبكرا الى أرمينيا[7]حيث امضى فترة شبابه هناك في خدمة الطاهريين[8]، الطاهريين[8]، وربما كانت مغادرته المبكرة بغداد لتبلور فكرة التعرف والاطلاع على

اخبار البلاد، وقد يكون أيضا صاحب والده في احدى تلك المهمات التي كانت تناط به بحكم وظيفته في نقل الاخبار بين مركز الخلافة وبين الولايات الإسلامية. كل ذلك نمى عند اليعقوبي الرغبة في السفر للسياحة وطلبا للمعرفة من مظانها، وذلك في وقت مبكر[9].

## مكانته العلمية

يعتبراليعقوبي بحاثة في التاريخ واخبار البلدان، ولقد اعطى التنقيب حقه في سياحته في البلاد شرقا وغربا ودخل بلاد فارس وأطال المقام في بلاد ارمينية وكان فيها سنة 260هـ ، ودخل الهند أيضا والاقطار العربية فالشام فالمغرب الى الاندلس وأغرق نزعا في البحث فطفق يسائل أهل الامصار

[1] المصدر نفسه، ص98.
[2] ميكيل، اندريه ، جغرافية دار الإسلام البشرية، ترجمة : إبراهيم خوري، وزارة الثقافة ، دمشق 1995م، ص53.
[3] اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، تحقيق : د. مضيوف القرا، مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، قطر 1993م، ص184.
[4] اليعقوبي، تاريخ، ص372؛ زامباور، معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، دار الرائد العربي، بيروت- لبنان 2000م، ج1، ص39.
[5] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة،ج2، ص10.
[6] كراتشكوفسكي، تاريخ الادب الجغرافي، ج1، ص158.
[7] المصدر نفسه، ج1، ص158.
[8] اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص184.
[9] عاصي، اليعقوبي عصره وسيرته،ص42.

عنها وعنهم، وعن عاداتهم ونحلهم وحكوماتهم وعن المسافات بين البلاد فإذا وثق بنقلهم أثبته في كتابه[1] .

قيل : يمكن عدَه معلما جغرافيا للمسلمين وقيل : ان الكثير من علماء الجغرافية التالين لعصره، كأبن الفقيه وابن رسته والمسعودي وغيرهم كانوا يعتبرونه أستاذا لهم[2] .

ان اليعقوبي كان على مستوى عقلي رفيع واطلاع متنوع وثقافة علمية واسعة، الامر الذي مكنه من اتحافنا بإنتاج علمي غني وضع الأساس الذي بنيت فوقه عقول الأجيال اللاحقة إنتاجها العلمي[3] .

**وفـاته**

اختلفت الآراء في تحديد تاريخ وفاته. فقد ذكر ياقوت ان اليعقوبي قد توفي في سنة أربع وثمانين ومئتين للهجرة[4]. وقد اعتمدت معظم كتب التراجم والمراجع الحديثة هذا التاريخ . صحيح انه يختم تاريخه بالخليفة المعتمد على الله العباسي سنة 258-259هـ/ 872-873م . كما تؤكد بعض المراجع الحديثة انه انجز كتابه البلدان عام 278هـ/ 891م[5] مما دفع بالبعض الى اتخاذه تاريخا لوفاته[6]، ولكن بالرجوع الى كتاب مشاكلة الناس لزمانهم نرى انه قد ختمه بالخليفة المعتضد 289هـ/ 902م[7]. كما ارفق بالطبعة الأخيرة لكتاب البلدان ملحقا ذكر فيه اليعقوبي اشعارا نظمها بعد سقوط الدولة الطولونية ليلة عيد الفطر سنة 292هـ/ 905م[8] . مما يعطي دليلا على وفاته في هذه السنة .

## المبحث الثاني

## مايتضمنه كتاب اليعقوبي

يرجع تأليف هذا الكتاب (290هـ/ 903م)، يتناول بشئ من الايجاز عددا من الملوك والحكام في التاريخ الإسلامي، عمل المؤلف في هذا الكتاب على تأكيد تعميم يقول بأن صلاح الامة يتبع صلاح السلطان وكان أسلوبه في ذلك عذبا وعرضه شائقا لا يشعرمعه القارئ بالملل[9].

هذا الكتاب اذن ليس دعوة لاتباع هوى السلاطين، بل هو فقط يبين ان الأمم تتبع سلاطينهم فإن كان السلطان يحب العلم والمعرفة كانت رعيته كذلك، وان كان الملك يهوى الشراب والغناء كانت رعيته كذلك .... لذا وجب على كل رعية ان تعلم ما تريد وتختار بناءا على ذلك السلطان الذي حتما ستكون له تبعا[10].

يمكن وصف هذا الكتاب الصغير في حجمه بأنه بمثابة رسالة في التاريخ الإسلامي تصف جوانب معينة من أحوال المسلمين تتمثل في أنماط من السلوك والعادات التي سادت بين المسلمين على مدى ثلاث عهود من تاريخهم الطويل[11] .

ابتدأ المؤلف (اليعقوبي) بقوله (( فأما الخلفاء وملوك الإسلام، فإن المسلمين في كل عصر تبع للخليفة يسلكون سبيله وينهلون

---

[1] فارس، مُحَمَّد ، موسوعة علماء العرب والمسلمين وأعلامهم،دار العلم للملايين، ص65.

[2] اليعقوبي، تاريخ، ص380.

[3] مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ص104.

[4] الحموي، معجم الادباء، ج5،ص153-154.

[5] زيدان، جرجي ، تاريخ آداب اللغة العربية، راجعه وعلق عليه: شوقي ضيف، دار الهلال، ج2، ص505.

[6] المصدر نفسه.

[7] اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص35.

[8] اليعقوبي، البلدان، ص372؛ الأمين،اعيان الشيعة،ج10،ص335..

[9] حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله،كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، تحقيق: مُحَمَّد شرف الدين، دار احياء التراث العربي، 2008م، ج1،ص199.

[10] الحموي، معجم الادباء، ج14، ص138.

[11] اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص187.

مذهبه ويعملون على قدر ما يرونه منه ولا يخرجون عن اخلاقه وافعاله واقواله ))[1].

بهذه العبارة الجامعة الواضحة يفتتح الكاتب والمؤرخ (اليعقوبي) كتابه الذي سماه ((مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر)). والمشاكلة من مصدر شاكل بمعنى ماثل وشابه، وهذا ما أراده اليعقوبي من كتابه هنا وهو القصد من وراء وضعه ان يبين لنا ان اخلاق الناس وعاداتهم على اختلاف مشاربهم واعرافهم، تكون في الغالب مماثلة لزمانهم وهو اذ يقول الزمان فإنه يريد به الساسة والملوك الغالبين الذين سادوا في تلك الحقب والأزمنة . عاش اليعقوبي سائحا بين البلدان مُكرما من قبل الملوك الذين ينزل في بلاطهم، واحتك بخلق غفيرمن اهل تلك الامصار فرأى ما رأى وأخبر عما أبصر وكتب تاريخه المعروف في مجلدين[2].

يزعم مؤلف هذا الكتاب ومن خلال معايشته للناس ان أنماط السلوك والعادات التي سادت بين الناس في العهود الأولى للاسلام ( العهد الراشدي ثم الخلافة الاموية فالعباسية) كانت مشابهة حد التطابق لما كان عليها الخلفاء والملوك وهو من اجل نصرة هذه الدعوى يحشد الأدلة ويقيم البراهين، إما بذكر اخبار وحوادث متصلة الاسناد الى عهد الخلفاء الراشدين، أو بذكر وقائع ومشاهدات خبرها المؤلف بنفسه . وهو إذ يصف ما غلب على الناس من طبائع واخلاق مضطر ان يبين خصائص كل خليفة من الخلفاء أو حاكم من حكامهم الذين تشبه بهم الناس واقتفوا اثرهم، يذكر كل هذا بلغة سلسة لا تصيب القارئ بالملل وتعطي صورة بانورامية لذلك العهد[3].

1- **العهد الراشدي**

أورد المؤلف ابتداءا ما كان من اخبار ابي بكر الصديق (رضي الله عنه) عندما قدم عليه ملوك اليمن وأصحاب الشوكة من العرب، فقال : ((كان أبو بكر بعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ازهد الناس واشدهم تواضعا وتقللا في لباسه، وكان يلبس وهو خليفة الشملة[4] والعباءة، وقدمت عليه اشراف العرب وملوك اليمن وعليهم التيجان وبرود الوشي والحبر فلما رأى القوم تواضعه ولباسه نزعوا ما كان عليهم وذهبوا مذهبه واقتفوا اثره . ثم يضيف في ذات السياق وكان ذو الكلاع ملك حمير فيمن قدم على ابي بكر (رضي الله عنه) في عشيرته وقومه وعليه التاج، وكان له عشرة الف عبد فلما رأى لباس ابي بكر قال: ما ينبغي لنا ان نفعل بخلاف ما عليه خليفة رسول الله (ﷺ) ، فنزع لباسه الأول وتشبه بأبي بكر[5].

ثم يذكر خبرا عن الخليفة عمربن الخطاب (رضي الله عنه) عندما ولي الخلافة، يقول: "كان عمر ابن الخطاب رحمه الله مع تواضعه وخشونة ملبسه ومطعمه شديدا في ذات سائر من يحضره ويغيب عنه يتشبهون به . ويكمل المؤلف : " وكان العامل من عماله وهم امراء الامصار وقد فتح الله عليهم وخولهم ومكن لهم واغناهم واكفاهم، يتحفون ويخلعون النعال ولا يلبسون الخفاف ويلبسون غلاظ الثياب واذا قدموا عليه شعثا غبرا غلاظا ثيابهم شاحبة الوانهم. فإن رآهمالله، فكان عماله أو سائر من يحضره ويغيب عنه يتشبهون به . ويكمل المؤلف : " وكان العامل من عماله وهم امراء الامصار وقد فتح الله عليهم وخولهم ومكن لهم واغناهم واكفاهم، يتحفون ويخلعون النعال ولا يلبسون الخفاف ويلبسون غلاظ الثياب واذا قدموا

[1] الهقاص،معتصم ، مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر، دار جداول، السعودية 2019م،ص2.

[2] الهقاص، مشاكلة الناس، ص3.

[3] المصدر نفسه .

[4] الشملة : وهي عند العرب مئزر من صوف أو شعر يؤتزر به. ابن منظور، مُحَمَّد بن مكرم(ت 711هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت 2010م،ج11،ص 368.

[5] اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص195.

عليه شعثا غبرا غلاظا ثيابهم شاحبة الوانهم. فإن رآهم او بلغه عنهم غير ذلك أنكر عليهم، وكان ركوبهم الإبل اكثر من ركوبهم الخيل على التشبه بعمر وسلوك فعله"[1].

وكذلك فعل مع الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وذكر انه كان سمحا في طبعه من غير ضعف، كريما جوادا بالمال من غير إسراف وانه اتخذ له دارا في المدينة وأنفق عليها مالا جليلا وشيدها من الحجارة مظهرا بذلك نعمة الله عليه وعلى المسلمين . وان الصحابة في خلافته واقتداء به اتخذوا الأموال واقاموا الدور، فبنى الزبير بن العوام داره المشهورة بالبصرة وفيها الأسواق والتجارات قائمة. وبنى الزبير أيضا دارا بمصر ودارا بالإسكندرية. وما كان هذا التوسع في البناء ليكون مع عهد خليفة سوى الخليفة عثمان (رضي الله عنه) الذي رأى ان اظهار نعمة المال تكون في بذله، وعلى هذا كان الصحابة وسواد الناس وهذا هو القصد الذي ذهب اليه اليعقوبي واراد بيانه[2].

## 2- العهد الأموي

لما ولي معاوية بن ابي سفيان الخلافة، يخبر اليعقوبي عن بعض احواله فيقول : " بنى القصور وشيّد الدور واتخذ الحرس والشرطة واقام الحُجاب، وبنى المقاصير في المساجد وركب الدواب

الهماليج ( الحسنة السير) بالسروج المصفقة، ولبس الخز والوشي واتخذ الصوافي والضياع وعمل له الطراز باليمن وبمصر والإسكندرية، فاتخذ أهله وولده وعماله ما اتخذ وفعلوا ما فعل"[3]. ويذكر المؤلف ان هذا كان نهجا سلكه معاوية فاتبعوه من كان تحته، يخبر مثلا عن عمروبن العاص

انه كان أول من قلد الخليفة فبنى له دارا بمصر واتخذ لنفسه الضياع . وفعل عبد الله بن عامر بن كريز عامل معاوية بالبصرة مثل ذلك، فحفر الأنهار وشيد الدور وبنى القصور واتخذ الضياع والأموال بالبصرة ومكة والطائف. موضحا بذلك ان الطريقة التي اتخذها الخليفة معاوية بن ابي سفيان كانت هي النهج الذي سلكه اتباعه من بعده . ليس هذا وحسب، بل يرجع المؤلف سبب غلبة الشعر على سواه من الفنون الأدبية في الدولة الاموية وارتفاع أجور الشعراء كان بسبب حب الخليفة عبد الملك بن مروان له، أي الشعر وتفضيله على سواه من الفنون فكان في عصره فحول الشعراء. الفرزدق وجرير والاخطل، فكثر المدح والهجاء والتنافس بين الشعراء. وينقل اليعقوبي ان الخليفة عبد الملك كان متساهلا بأمر الدماء مقبلا عليها غير هياب، فكذلك كان امراء الامصار على مذهبه، الحجاج بالعراق وامره معروف، المهلب بخراسان، وهشام بن إسماعيل المخزومي بالمدينة، ومُحَمَّد بن يوسف الثقفي ( اخو الحجاج ) باليمن، ومُحَمَّد بن مروان بالموصل، ثم يعقب المؤلف :" وكلهم جائر ظالم غشوم عسوف"[4] ولما ولي عمربن عبد العزيز الخلافة وهو معروف بالزهد والتواضع والتنسك والتقلل من الدنيا، عزل بعض اهل الجور عن مناصبهم واستعمل الصلحاء من الناس وقرّب اهل الفضل وغيَر في خطب الجمعة وجعل خواتيمها ذكر من آيات القرآن. فلما رأى الناس الخليفة وما كان عليه، "كان عماله يذهبون مذهبه، ارتفع عن الناس ما كانوا فيه من الجور والظلم"[5].

## 3- العهد العباسي

كان اول ما فعله الخليفة أبو العباس عبد الله بن مُحَمَّد بن العباس وقلده الناس انه خطب واقفا جاء في خبره "انه خطب على المنبرقائما، وكانت بنوامية تخطب قعودا فناداه الناس : يا ابن عم رسول الله (ﷺ) أحببت سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)"[6]. ثم كان المعتصم وهو مُحَمَّد ابن هارون الرشيد،

[1] اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص 197.
[2] المصدر نفسه.
[3] اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص 199.
[4] الهقاص، مشاكلة الناس، ص4.
[5] المصدر نفسه.
[6] اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص203.

ومن اطرف ما رواه صاحب الكتاب عنه انه مرة اشتهى ان يضيق أكمام ثوبه فضيقها، فضيق الناس اكمام ثيابهم تشبها به. "وكان الذي يغلب عليه ( أي المعتصم) الفروسية والتشبه بالعجم، فلبس الثياب الضيقة الأكمام فضيق الناس اكمام ثيابهم"[1]. يكثر المؤلف من شوق الأمثلة التي تجلي هذه الفكرة وتوضحها من ان الناس على ما كان من أمر الخليفة محمودا كان امره أم مذموما.

بقي ان نذكر ان نظرية المحاكاة كانت متداولة في أوساط الفنون والأدب منذ اللحظة اليونانية، ومنها قول ارسطو: "ان الفن محاكاة للطبيعة"، لكن من أوائل الذين انتبهوا لهذه الظاهرة الاجتماعية النفسية ونقلوها الى الدراسات السوسولوجية هو العالم الفرنسي جابريال تارد( 1843- 1904م) في كتابه ( laws of imitation) الذي صدر في طبعته الأولى عام 1890م. يقرر تارد ذات المبدأ أو قل انه يمنهج هذه الظاهرة ويؤسس لها ويؤصلها . ويخبرنا انها ظاهرة عامودية، يعني انها تكون من الأعلى الى الأسفل . من الأقوى حيث يكون ذا سطوة في التأثير الى الأضعف، ومن الغني الى الفقير، ومن الأمير الى الانسان العادي. والمحاكاة في نظر تارد لا تكون في غير الجماعة وعامل تقويتها كثيرة من أفعال واقوال، لكن اللغة هي الأهم يقول تارد في كتابه "قوانين التقليد" : "ان الوسيلة الرئيسة للمحاكاة هي اللغة، فهي الأداة الأولى لنقل كثير من الأعراف الماضية، ولنقل اثر الخبرات على اختلاف مستويات تنظيمها عبر الأجيال وعبرعقول الافراد رغم انها ليست الوسيلة الوحيدة"[2].

## أهمية كتاب اليعقوبي

تتبع اليعقوبي ظاهرة انتشار القيم والعادات والتقاليد والاهتمامات والموضة، أو ما يشيع بين الناس عموما وتوصل الى تسلسل أسبابها وهرمية انتشارها، فهي وفق ملاحظته تبدأ من الخليفة ثم يقلده كبار رجال دولته مثل ولاته ووزرائه وعماله، ثم يقلدهم من تحتهم حتى يصير هذا التقليد عادة منتشرة في المجتمع فالخلفاء كانوا رمزا اجتماعيا ومصدرا أساسيا لتوجيه أفكار الناس واهتماماتهم.

تتبع اليعقوبي الظاهرة عبر ثلاثة قرون بدراسته الدقيقة للتاريخ الاجتماعي لواحد وثلاثين خليفة التي شملت الخلافة الراشدة والعصرين الاموي والعباسي الأول[3] .

وتؤكد ملاحظة اليعقوبي على ان التفاعل الاجتماعي اقوى تأثيرا من المهام الرسمية فجميع الخلفاء مهمتهم الرئيسة هي إدارة الدولة سياسيا وعسكريا وإداريا وماليا، ولكن سماتهم الشخصية وتفاعلهم الشعبي مع المجتمع هو الذي يتأثر به رجالهم بوعي منهم أو بلا وعي[4] .

كما يتضح من موضوع هذا الكتاب والاسقاطات التي استدل بها اليعقوبي لتدعيم فكرته انه لا يرى ان هناك استقلالية للوعي، بل ان الوعي الجمعي ظاهرة اجتماعية ومن ثم فإنه لا يكفي ان نثبت ظاهرة ( الناس على دين ملوكهم ) تاريخيا واجتماعيا دون فحص لماهية هذه الظواهر التي تتغير مع كل خليفة))[5].

ومن ابرز قوانين منطق التقليد التي فككها ((تارد))، منطق انتقال العادات من الطبقات العليا الى الطبقات الدنيا، وهي في صميم موضوع هذا الكتاب إذ يقول : (( ويكفي ان نعرف في أي اتجاه يسير التيار الرئيسي لنماذج التفكير والسلوك لكي نحدد مركز السلطة الحقيقية ولا شيء أسهل من هذا التحديد اذا كانت الدولة تقوم على نظام ارستقراطي، إذ نلاحظ دائما وفي

[1] الهقاص، مشاكلة الناس، ص5.

[2] يوسف،جمعة سيد ، سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، عالم المعرفة، الكويت 1990م، ص14.

[3] فارس، موسوعة علماء العرب، ص70.

[4] المصدر نفسه.

[5] الشقير، عبد الرحمن بن عبد الله، تحقيق كتاب مشاكلة الناس لزمانهم، صدرعن مركز المسبار للدراسات والبحوث ، السعودية 1919م، ص20.

كل مكان ان النبلاء يقلدون الملوك والحكام وان الشعب يقلد النبلاء بمجرد ان يصبح هذا التقليد في إمكانه وقد حدث ذلك في فرنسا ايام لويس الرابع عشر[1].

ويتوقف (تارد) عند هذه الملاحظة ليؤكد على تسلسلها من أعلى الى ادنى وانها شاملة وليست منحصرة على سلوك محدد: ((ان الدور الرئيسي الذي كانت تلعبه طبقة النبلاء وسمتهم المميزة هي انهم كانوا يمثلون طابع المبادأة أو على الأقل تيار الاختراع، وقد ينبع الاختراع من بين صفوف الشعب ولكنه لكي ينتشر يحتاج الى قمة اجتماعية ينحدر منها، كما ينحدر الماء من المسقط ليفيض بعد ذاك في الأنهر والقنوات. وفي كل زمان ومكان كانت الطبقة الارستقراطية هي الطبقة المتفتحة لتلقي كل جديد من الخارج، كما كان وضعها يؤهلها لاستيراده)). ويشرح تارد نظرية التقليد بانها تنتقل من المركز الى الأطراف وتبدأ من العواصم لتنتقل الى القرى[2].

وأخيرا يمكن القول بأن مشاكلة الناس لزمانهم اليوم لا تزال ظاهرة مستمرة، ولكن المجتمع يعيد انتاجها بحسب الإمكانات المتاحة في كل عصر، وقد اتخذت اليوم شكلا جديدا مختلفا عن زمان الأمس وصار طابع المشاكلة يتغير بصفة دورية وسريعة متضمنة توفير بدائل لها في الموضة والعادات، ولكنها بدائل خاضعة لسيطرة الشركات المتنفذة والموجهة لسلوك الافراد[3].

**منهجه**

يعتبر اليعقوبي كغيره من علماء العرب الذين احسنوا توظيف المواد المبعثرة التي كانوا يجمعونها من كل موضع ثم تجميعها فصبها في قالبهم لتخرج متجانسة متمازجة استطاعت ان تكون بمثابة مخرجات تحاكي عقولهم حيث تتمثل فيها الوحدة والصفات الفائقة[4].

لم يتضمن التاريخ في منهج اليعقوبي للأحداث سني وقوعها أو سيَر الخلفاء واخبار الفتوحات الإسلامية التي وقعت في عهدهم، وانما كانت موضوعاته في أمور ترتبط باخلاق الخلفاء وافعالهم واقوالهم كان لها تأثير على الناس فقلدوها وعملوا بها[5].

لم يستخدم الاسناد في هذه الرسالة حيث تتبع الرواية وصولا الى شاهد العيان الرئيسي . فقد اختط اليعقوبي في القرن الثالث الهجري لنفسه منهجا مختلفا يقوم على أساس الكتابة المرسلة دون اسناد معتنيا بالخبر في ذاته ومناقشته[6].

تتبع اليعقوبي الخلفاء مبتدأ بأبي بكر (رضي الله عنه) ومنتهيا بالخليفة العباسي المعتضد، وذكر ما اشتهر به كل خليفة وما قلده الناس فيه[7].

امتازت كتابته بالأسلوب العلمي والمنهج الواضح والمتين وهو اقرب ما يكون الى المنهج الاكاديمي المعاصر[8]. كما كان أسلوبه أسلوبه في عرض المعلومات والأفكار في كتبه ومؤلفاته يتسم بالأسلوب السلس المشوق الذي يجعل من يبدأ بالقراءة يستمر حتى النهاية، أي لايشعر القارئ بالملل .

كان اليعقوبي في عرضه للامور التي تخص كل خليفة لم يخل من تحيز في نفسه للخلفاء العباسيين، في حين لم يتعرض لمحاسن الامويين باستثناء الخليفة عمربن عبد العزيز، ومع ذلك فقد نجح اليعقوبي في التأكيد على القول بأن صلاح الامة يتبع صلاح السلطان[9].

**مصادر اليعقوبي**

[1] المصدر نفسه .
[2] الشقير، تحقيق كتاب مشاكلة الناس، ص21.
[3] المصدر نفسه .
[4] الخليفي، د. شيخة احمد ، اليعقوبي والعصر الاموي ، مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، دولة قطر،ص79.
[5] اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص188.
[6] فارس، موسوعة علماء العرب، ص53.
[7] محمد فارس، موسوعة علماء العرب، ص60.
[8] اليعقوبي، تاريخ، ص159.
[9] اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص194.

لم يذكر اليعقوبي المصادر التي اعتمد عليها في رصد ما احتوى عليه الكتاب من معلومات، ولم يضع مقدمة لكتابه يشير فيها الى تلك المصادر كما فعل في مقدمة كتابه (( التاريخ )) .

اعتمد اليعقوبي في كتابه (مشاكلة الناس لزمانهم) على خبرته الواسعة التي اكتسبها من معاصرته لعدد من الخلفاء العباسيين وهم المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي بالله والمعتمد على الله ثم المعتضد .

بالإضافة الى ذلك اقامته في عدد من أقاليم الدولة الإسلامية متمتعا برعاية ذوي الامر فيها، مما أتاح له التعرف عن قرب من خلال مشاهداته ومعاملاته على الاخلاق والعادات التي كانت سائدة، فكانت حصيلته مصدرا هاما لكتابته[1].

## مؤلفاته

ان ثقافة اليعقوبي المتنوعة وعلمه الغزير المتعمق في كثير من ألوان المعرفة وذكاؤه الخارق وعقله الناضج وصبره الدائب على البحث والدرس والتجوال، كل هذه العوامل مجتمعة أمكنته من اتحافنا بثروة عظيمة من المؤلفات التاريخية والجغرافية كانت بمثابة الأساس الذي بنت فوقه عقول الأجيال اللاحقة انتاجها العلمي . وقد وصل الينا من آثار اليعقوبي مجموعة من الاقوال والاشعار وثلاث كتب[2] وهي :

1- **تاريخ اليعقوبي**

وهو كتاب كبير يتألف من جزئين، يختص الأول بالتاريخ القديم بدءا من آدم (عليه السلام) الى ماقبل الإسلام ، فيما يتناول الجزء الثاني التاريخ الإسلامي من مولد الرسول الكريم (ﷺ) حتى عام 259هـ/ 872م ، ويحتل هذا الكتاب مكانة مرموقة بين كتب التاريخ[3] .

2- **كتاب البلدان**

يعتبر كتاب البلدان من الكتب المهمة في الجغرافية الإقليمية العامة، لم يقتصر اليعقوبي في الكلام فيه عن العالم الإسلامي فحسب بل تعداه الى اقطار أخرى خارج ديار الإسلام مدخلا تبويبا جديدا في التأليف الجغرافي وذلك عن طريق توزيع الموضوعات الجغرافية التي تناولها على الأقاليم، وقد قسم اليعقوبي الكرة الأرضية الى أربعة اقسام حسب الاتجاهات الأساسية للعالم[4] .

ويعكس كتاب البلدان عدة معطيات جغرافية حيث ذكر لنا اليعقوبي الظروف الطبيعية في المناطق التي زارها كالجبال والسهول والانهار ويكون بذلك من الأوائل الذين كتبوا في الجغرافية الطبيعية. كما قدم لنا وصفا طوبوغرافيا للمناطق والمدن التي زارها أيضا واعتبر من الأوائل الذين ساروا على هذا الطريق[5]. وقد أورد موجزا عن إمكانيات المناطق التي زارها والطرق التي تؤدي اليها مما يدخل في دراسة الجغرافية الاقتصادية . واخرا فهو مصدر مهم للمواصلات اذ نراه يوضح الطرق والمسالك بأسلوب مفهوم .

---

[1] المصدر نفسه، ص 189.

[2] يذكر ياقوت، (معجم الادباء، ج5، ص153)، أسماء كتب اليعقوبي وهي: كتاب التاريخ الكبير، كتاب أسماء البلدان، كتاب في أسماء الأمم السالفة، كتاب مشاكلة الناس لزمانهم، وقد سارت بقية التراجم على خطاه في ذكر تلك المؤلفات، هدية العارفين،ج1،ص52. الزركلي: الاعلام، ج1، ص90-91.

[3] عاصي، اليعقوبي عصره حياته، ص51-52.

[4] كراتشكوفسكي، تاريخ الادب الجغرافي، ج1،ص158؛ عاصي، المصدر نفسه، ص52.

[5] زيادة، نقولا ، الجغرافية والرحلات عند العرب، ط1، الشركة العالمية للكتاب، 1987م،ص19.

3- **كتاب مشاكلة الناس لزمانهم**

وهو كتاب صغير على شكل رسالة تمثل نظرة مقتضبة حول عهود الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين حتى المعتضد . وقد قدم اليعقوبي فيها نماذج مختلفة من التقاليد التي سار عليها الناس. وكان الأصل فيها تقليد الخلفاء[1]، كما يحتوي على بوادر الفكرة الفلسفية للتاريخ[2].

وهناك أربع مؤلفات لليعقوبي مفقودة وهي :

1- **أسماء الأمم السالفة**

2- **فتوح المغرب**

3- **فتوح افريقيا**

4- **تاريخ الطاهريين**

ومن كتبه التي لم يصرح بها اليعقوبي :

**كتاب المسالك والممالك**

وقد أشار اليه أبو الفداء واعتمد عليه، كما ذكر أيضا في ملحق الطبعة الحديثة ككتاب البلدان[4]. كما ان اليعقوبي نفسه يذكر في كتابه (( البلدان )) حين تطرق الى اخبار بلاد الرومان فيقول: ((وقد ذكرنا أخبار بلاد الروم ورجالها ومدنها وحصونها وموائنها وجبالها وشعابها وأوديتها وبحيراتها ومواضع القارات عليها في كتاب غير هذا ....))[3].

**الخاتمة**

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبفضله نبلغ اقصى الغايات، واكمل الصلاة واتم السلام على سيدنا مُحَمَّد ما بلغ الليل والنهار في كل وقت وحين وعلى آله وصحبه اجمعين ....

بعد هذه الجولة العلمية التي عشناها مع اليعقوبي، آن للرحلة ان تنتهي وآن لمسيرة هذا البحث ان تتوقف، فكان لابد ان أضع خلاصة أختصر فيها ما قدمت فأقول :

ان اليعقوبي بدراسته الدقيقة للتاريخ الاجتماعي لواحد وثلاثين خليفة، شملت الخلافة الراشدة والعصرين الاموي والعباسي الأول. لاحظ أمورا انتشرت مجتمعيا مثل ملاحظته سماحة الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وزهد الخليفة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) وعمربن عبد العزيز، وعناية الوليد بن عبد الملك بالعمارة ... وانعكاس هذه السمات الشخصية على الحياة اليومية في المجتمع .

وتكتسب ملاحظة اليعقوبي قوتها الاجتماعية من وضوحها وتكاملها، لذلك لايمكن التقليل من شأن ملاحظاته الاجتماعية .

وتؤكد ملاحظة اليعقوبي ان التفاعل الاجتماعي اقوى تأثيرا من المهام الرسمية، فجميع الخلفاء مهمتهم الرئيسية هي إدارة الدولة سياسيا وعسكريا واداريا وماليا ولكن سماتهم الشخصية وتفاعلهم الشعبي مع المجتمع هو الذي يترك الصورة الذهنية عنهم وهو الذي يتأثر به رجالهم بوعي منهم أو بلا وعي .

تبين من ملاحظة اليعقوبي ان السمات الشخصية للخلفاء الراشدين والامويين وبعض العباسيين تركز على الاستهلاك الثقافي المتمثل في التسامي بالذات والبناء الحضاري والفكري والعلمي، في حين بدأت ظاهرة الاستهلاك المظهري مع بعض الخلفاء العباسيين، ويبدو ان سبب ذلك هو توسع الفتوحات وزيادة دخل الدولة وبروز ظاهرة دخول العناصر التركية في المناصب .

ويمكن ان يجد الباحث الاجتماعي والمؤرخ قضايا اجتماعية كثيرة في الكتاب، حيث نجد مادة تاريخية خام لظاهرة تحقيق المكانة الاجتماعية والمحاكاة والتقليد والقيادة "الكارزمية" وانتشار الأفكار في المجتمع .

**المصادر**

1- البغدادي، إسماعيل بن مُحَمَّد امين (ت 1399هـ)، هدية العارفين، دار احياء التراث العربي، بيروت – لبنان .

[1] اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص9.

[2] عاصي، اليعقوبي عصره سيرته، ص56.

[3] اليعقوبي، البلدان، ص80.

2- ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين (ت 874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، مصر 2010.

3- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله،كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، تحقيق: مُحَمَّد شرف الدين، دار احياء التراث العربي، 2008م .

1- الطبري، مُحَمَّد بن جرير(ت 310هـ)، تاريخ الرسل والملوك، ط2، دار المعارف، 1967م .

2- ابن منظور، مُحَمَّد بن مكرم(ت 711هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت 2010م .

3- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت 626هـ)، معجم الادباء، تحقيق : احسان عباس، ط1، نشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت 1993م .

4- اليعقوبي،أبوالعباس احمد بن إسحاق(ت 292هـ)، تاريخ اليعقوبي، منشورات المكتبة الحيدرية.

5- اليعقوبي، البلدان، ط1، دار احياء التراث العربي، بيروت 1988م .

9- اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، تحقيق : د. مضيوف القرا، مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، قطر 1993م .

## المراجع

1- الأمين، محسن (ت 1371هـ)، أعيان الشيعة، تحقيق : حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، لبنان – بيروت 1983م .

2- الخليفي، شيخة احمد ، اليعقوبي والعصر الاموي ، مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، دولة قطر.

3- خصباك، شاكر ، الجغرافية عند العرب، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1986م .

3- زامباور، معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، دار الرائد العربي، بيروت- لبنان 2000م .

5- الزركلي، خير الدين محمود بن مُحَمَّد(ت 1396)، الاعلام،ط15، نشر: دار العلم للملايين، 2002م .

6- زيادة، نقولا ، الجغرافية والرحلات عند العرب، ط1، الشركة العالمية للكتاب، 1987م .

7- زيدان، جرجي ، تاريخ آداب اللغة العربية، راجعه وعلق عليه: شوقي ضيف، دار الهلال .

8- الشقير، عبد الرحمن بن عبد الله، تحقيق كتاب مشاكلة الناس لزمانهم، صدرعن مركز المسبار للدراسات والبحوث ، السعودية 1919م

9- عاصي، حسين ،اليعقوبي عصره وسيرته، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان .

10- فارس، مُحَمَّد ، موسوعة علماء العرب والمسلمين وأعلامهم،دار العلم للملايين .

11- كراتشكوفسكي، اغناطيوس، تاريخ الادب الجغرافي العربي، ترجمة : صلاح الدين عثمان، جامعة الدول العربية، 2017م .

12- كحالة، عمر بن رضا بن مُحَمَّد (ت1408هـ)، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، دار احياء التراث العربطظي، بيروت .

13- متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، تحقيق : مُحَمَّد عبد الهادي أبو ريده،ط1، نشر : دار الفكر العربي، 1999م .

14- مصطفى، شاكر، التاريخ العربي والمؤرخون(( دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله))، دار العلم للملايين، بيروت 1978م .

15- ميكيل، اندريه ، جغرافية دار الإسلام البشرية، ترجمة : إبراهيم خوري، وزارة الثقافة ، دمشق 1995م.

16- يوسف، جمعة سيد ، سيكولوجية اللغة والمرض العقلي،
عالم المعرفة، الكويت 1990م .
17- الهقاص، معتصم ، مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم
في كل عصر، دار جداول، السعودية 2019م .

# الدستور المغربي رمز للتعايش بين مكونات الشعب المغربي وثقافاته

د. لحسن أوري
جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس- فاس
مختبر: المغرب التاريخ واللغات والعلوم الشرعية

## مقدمة:

لقد ساهم الإرث التاريخي والتقليدي للمغرب في تنوعه الثقافي والبشري، وساهم هذا التنوع في التأسيس لقيم التسامح والتعايش بين مختلف مكونات المجتمع المغربي، عبر تعزيزها بالحفاظ على الإرث التاريخي والتراث الثقافي المغربي بمختلف روافده؛ الأمازيغية والعربية والإفريقية والحسانية واليهودية والأندلسية، فضلا عن التوجه المميز للمملكة المغربية، التي اعتبرها الكثير من الباحثين أرضا لتعايش الأديان والثقافات والشعوب منذ القدم. وقد تم تثمين هذا الطرح من طرف ملوك الدولة العلوية الذين تعاقبوا على حكم المغرب، منذ صدور أول مشروع للدستور سنة 1908 حيث يقول في مادته الخامسة: " تُحترم سائر الأديان المعروفة بلا فرق، ويحق لأصحابها أن يقيموا شعائر ومعالم معتقداتهم، حسب عوائدهم بكل حرية، ضمن دائرة مراعاة الآداب العمومية([1]).

وفي هذا الصدد وردت في غير ما مرة في الخطب الملكية كذلك، وفي الدستور المغربي لسنة 2011 هذه المفاهيم التي أكدها سلطان البلاد الملك محمد السادس، حيث اعتبر بأن هذا التاريخ الاستثنائي للتعايش، يعد السبب في احتضان المغرب لأكبر طائفة يهودية في العالم الإسلامي، كما أنه يُظهر كيف تمتع المسلمون واليهود المغاربة والمسيحيون بسلام طبيعي، وتعايش ترسخ على مر العصور في الجينات وفي الهوية الجماعية المغربية([2]).

ومن هذا المنطلق يعتبر موضوع التسامح من المواضيع الهامة التي لا تنحصر في الماضي، ولكنها من المواضيع الراهنة، التي تشغل بال المغاربة، الذين امتازوا دائما بتعددهم، واختلاف ثقافاتهم وتنوع لغاتهم وأصولهم، لكنهم استطاعوا دائما أن يدبروا هذا الاختلاف، وأن يتعايشوا معه، ويحولوه إلى مصدر غنى وقوة، وأن يركزوا على المشترك وعلى مبادئ الجوار والتسامح والتساكن([3]). وتحفظ الذاكرة المغربية منها الفردية والجماعية، تجارب المغاربة في الماضي، لاحتواء الاختلاف وتدبيره، لأنه لم يكن في معتقدهم وسيلة للتنافر، والخلاف، والتفرقة، والتفكك، وإنما مصدر غنى المجتمع المغربي، الذي كان دائما في سلم

---

[1]- عبد الكريم غلاب(1988)، **التطور الدستوري والنيابي بالمغرب 1908-1988**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، صص.294-295.

[2]- **دستور المملكة المغربية لسنة 2011**، الديباجة، ص.5. ويقول الدستور في هذا الصدد : "المملكة المغربية دولة إسلامية ذات سيادة كاملة، متشبثة بوحدتها الوطنية والترابية، وبصيانة تلاحم وتنوع مقومات هويتها الوطنية، الموحدة بانصهار كل مكوناتها، العربية - الإسلامية، والأمازيغية، والصحراوية الحسانية، والغنية بروافدها الإفريقية والأندلسية والعبرية والمتوسطية . كما أن الهوية المغربية تتميز بتبوإ الدين الإسلامي مكانة الصدارة فيها، وذلك في ظل تشبث الشعب المغربي بقيم الانفتاح والاعتدال والتسامح والحوار، والتفاهم المتبادل بين الثقافات والحضارات الإنسانية جمعاء".

[3]- **دستور المملكة المغربية لسنة 2011**، ص.8.

وسلام مع نفسه، ومع باقي الثقافات التي مرت عليه وعبره، ومع الشعوب التي جعلت من الضفة الغربية للمتوسط مجالا لعبورها الدائم والمستمر.

هكذا مثل المغرب استثناء في المنطقة المغاربية، والإسلامية، والمتوسطية على الأقل، بإقراره شرعية ومشروعية التنوع الثقافي واللغوي والإثني ببلادنا، وذلك من خلال الكثير من الخطب الملكية، وفي تصدير دستور المغرب لفاتح يوليوز في عهد جلالة الملك محمد السادس حيث يقول: " ويقول الدستور في هذا الصدد : "المملكة المغربية دولة إسلامية ذات سيادة كاملة، متشبثة بوحدتها الوطنية والترابية، وبصيانة تلاحم وتنوع مقومات هويتها الوطنية، الموحدة بانصهار كل مكوناتها، العربية - الإسلامية، والأمازيغية، والصحراوية الحسانية، والغنية بروافدها الإفريقية والأندلسية، والعبرية والمتوسطية . كما أن الهوية المغربية، تتميز بتبوأ الدين الإسلامي مكانة الصدارة فيها، وذلك في ظل تشبث الشعب المغربي بقيم الانفتاح، والاعتدال، والتسامح، والحوار، والتفاهم المتبادل بين الثقافات والحضارات الإنسانية جمعاء"([4]).

## 1- مظاهر التنوع الثقافي، قيم من قيم التسامح في الدستور المغربي لسنة2011 :

يتميز المغرب بخصائص جغرافية وحضارية، جعلت منه على مدى تاريخه الطويل جسرا للتواصل العلمي، والثقافي، والحضاري، بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب. وساهم هذا الاحتكاك المستمر، مع هذه الحضارات والشعوب والأقليات في جعله مجالا لتعايش لغات وثقافات متعددة ومتنوعة، وساكنة متميزة باختلاف وتعدد وغنى ثقافاتها ولغاتها ولهجاتها([5])، التي شكلت فسيفساء الهوية الثقافية المغربية التي ساهمت في إرساء ثوابت الديمقراطية التي انعكست بشكل إيجابي على تعايش الثقافات بمختلف أنواعها بالمغرب، على غرار الثقافات الأم منها؛ الأمازيغية والعربية والحسانية والعبرية، كروافد أساسية ومهمة، لا يمكن للمغرب والمغاربة أن يتخلوا عنها، بعد أن تمت دسترتها خلال يوليوز 2011([6]).

لا يختلف المغرب كثيرا في تاريخه عن باقي الدول، حيث استقبل على مر تاريخيه شعوبا وحضارات عديدة، أثرت في ثقافته وحضارته، وتركت آثارها في ديانته، ولغته، وعاداته ولباسه، وبشرته، وأسلوب حياته، وتقبله للآخرين. وتعامل المغاربة مع هذا الاختلاف كمكون أساسي من مكونات مجتمعهم، وسعوا باستمرار إلى تلافي ما يمكن أن يحوله إلى عامل

[4] - دستور المملكة المغربية لسنة 2011، الديباجة، ص.5 .

[5] - علي بنطالب(1439هـ/ 2018)، " المشهد اللغوي والثقافي بالمغرب رصد تاريخي ومحاولات في التدبير"، أعمال الأيام الوطنية الثالثة والعشرين، للجمعية المغربية للبحث التاريخي، مطبعة رباط نت، طبعة ص.151.

[6] - فاطمة لمجرحر( ماي 2021)، " ثقافة التسامح في المواثيق الدولية"، مجلة رواق، العدد الثاني، ص.128.

سلبي، عن طريق التدبير الجيد، والتعايش وتطويق الخلافات بالأعراف والقوانين([7]).

ويمكن استلهام من هذا التوجه دروسا للحاضر، مكنت المغاربة من التعرف الجيد على أصول الاختلاف، واستطاعت أت تجعل منه محركا للتطور والتعايش، واستشراف الأفضل([8]).

إن الاختلاف ليس ظاهرة مقتصرة على المغرب، ولا على واقعنا الراهن، بل هو ظاهرة قديمة، عرفها المغرب منذ القديم، وليست قصرا عليه فقط، بل عاشتها وتعيشها دول كبرى. وقبل أن يكون هذا التنوع والاختلاف مصدر خلاف وتوتر، فإنه كان يحمل في كنهه طاقة إيجابية استغلها المغرب والمغاربة لتكون مصدر غنى المغرب وقوته. وعلى الرغم من الاختلافات الموجودة في الأصول واللغات والعادات، فقد تعايش المغاربة لمآت من السنين، ودبروا اختلافاتهم بأساليب متعددة، على الصعيدين المحلي والمركزي، داخل سلطة المخزن وخارجها([9]).

وكان هذا الاختلاف قيمة مضافة، أغنت التراث المغربي المادي واللامادي في العمران والسكن، والغناء والرقص، والأمثال والحكايات، والتقاليد والأعراف وفي كل مناحي الحياة اليومية للمغاربة التي لا زالت الذاكرة الفردية والجمعية تحتفظ بها وتراجعها عندما يقضي الأمر إلى ذلك من حين لآخر([10]).

لقد بدلت مكونات المجتمع المغربي البشرية والثقافية والحضارية والإثنية، مجهودات لا زال التاريخ يحفظها، رغم الاختلاف والتنوع، مع ما يقتضيه ذلك من تفتح على الآخرين وتعاونهم معهم، وأظهرت أن المغاربة عرفوا كيف يحتوون خلافاتهم، ويضبطونها من خلال اجتهادات، نجد صداها في المأثور من السير ودور الصلحاء والعلماء والقوانين العرفية المكتوبة والنوازل، والظهائر، وخصوصا عندما تتعرض البلاد للأزمات الداخلية وللأخطار الخارجية([11]).

## 2- الإصلاح الدستوري لسنة 2011 وقاعدة التسامح بين الدسترة والخطب الملكية الرسمية:

أكد الدستور المغربي لسنة 2011 وقبله دساتير أخرى على أن المملكة المغربية دولة متشبثة ب" تلاحم وتنوع مقومات هويتها الوطنية، الموحدة بانصهار كل مكوناتها، العربية، الإسلامية، والأمازيغية والصحراوية والحسانية، والغنية بروافدها الإفريقية والأندلسية والعبرية والمتوسطية"(12)، "كما أن الهوية المغربية تتميز بتبوإ الدين الإسلامي مكانة الصدارة فيها، وذلك في ظل تشبث الشعب المغربي بقيم الانفتاح، والاعتدال، والتسامح، والحوار، والتفاهم المتبادل بين الثقافات والحضارات الإنسانية"(13) ونص الفصل الخامس من الدستور على أن " تعمل الدولة على صيانة الحسانية، باعتبارها جزءا لا يتجزأ من الهوية الثقافية المغربية الموحدة، وعلى حماية اللهجات والتعبيرات الثقافية المستعملة في المغرب، وتسهر على

---

[7]- الجمعية المغربية للبحث التاريخي(1439/ 2018)، تدبير المغاربة للاختلاف: استلهام لأساليب التعايش وقبول الآخر، أعمال الأيام الوطنية الثالثة والعشرين، مطبعة رباط نت، الرباط، ص.18.

[8]- نفسه.

[9]- نفسه، ص.3.

[10]- لطيفة الكندوز(1439/ 2018)، تدبير المغاربة للاختلاف...م. س.، صص.3-4.

[11]- المرجع السابق، ص.4.

[12]- ديباج الدستور المغربي ليوليوز2011، ص.3.

[13]- فاطمة لمحرحر(ماي 2021)، " ثقافة التسامح في المواثيق الدولية" م. س.، ص.129.

انسجام السياسة اللغوية والثقافية الوطنية، وعلى تعلم وإتقان اللغات الأجنبية الأكثر تداولا في العالم، باعتبارها وسائل للتواصل، والانخراط والتفاعل مع مجتمع المعرفة، والانفتاح على مختلف الثقافات، وعلى حضارة العصر"([14]).

يبدو جليا من خلال نصوص الدستور المغربي لسنة 2011 أن المشرع المغربي عمل على تدبير التنوع اللغوي والثقافي بالبلاد بشكل إيجابي، من خلال الاعتراف بكل المكونات والروافد الثقافية واللغوية بالمغرب، وتكريس التعايش والتكامل بينها، والتنصيص على ضرورة التواصل والانفتاح على الثقافة الكونية الحضارية([15]).

لقد أكد بشكل لا يدع مجالا للشك الدستور الجديد لسنة 2011 على التعدد الثقافي للمغرب في إطار الهوية الوطنية، بكونه أولوية للبلاد تستمد مبدئها من حكمة الثقافات التي تشكل المجتمع جميعها، إلى جانب ذلك منح التعديل الدستوري اللغة الأمازيغية صفة رسمية بترسيخها لغة مكتوبة، كما هو منصوص عليه في الفصل الخامس من الدستور، وبأن تتخذ الدولة التدابير الكفيلة بحمايتها لِتكون رصيدا مشتركا لجميع المغاربة، رغم أن ربطها بإصدار قانون تنظيمي يحدد كيفية تفعيلها، لتنزيلها من أجل العمل بها، لا زال في طور التحضير([16]).

رغم انخراط الدساتير المغربية السابقة (1908-1962-1970-1972-1992-1996) في الدستورانية المعاصرة، بمعاييرها، ومؤسساتها، وآلياتها، وإقرارها بكيفية شاملة بالحقوق الأساسية للمواطنين، والتأكيد على تشبث المغرب بحقوق الإنسان كما هي متعارف عليها في المواثيق الدولية، غير أن قضية الهوية الثقافية ظلت ناقصة وغير واضحة ولا تعبر عن كل مكونات الروافد الثقافية، إلى أن جاءت سنة 2011 التي شكلت سنة دستورية بارزة، وفارقة في تطور الحياة السياسية، والثقافية في المغرب، حيث كان للسياق التاريخي الذي طبع هذه الفترة، دوره الحاسم في بصم النص الدستوري بهاجس الهوية، باعتباره أحد الآثار المباشرة لدينامية التفاعل بين مختلف الروافد الثقافية المكونة للمجتمع المغربي، الشيء الذي استحضره استقراء بنود دستور 2011، بحيث تمكنت الصيغة النهائية إلى إعادة تعريف الهوية المغربية، وانصهار مكوناتها الأساسية العربية والأمازيغية والحسانية والعبرانية، مع الإقرار بتبوأ الدين الإسلامي مكانة الصدارة. وفي ظل التأكيد على تشبث المغاربة بقيم الانفتاح، والاعتدال، والتسامح، والحوار المتبادل بين الثقافات، والحضارات الإنسانية. واستنادا إلى هذه الأسس، فقد تولى الدستور المغربي لسنة 2011 التطرق في الفقرة الثالثة من الفصل الأول إلى الثوابت الجامعة للأمة والحياة العامة والمتمثلة في الدين الإسلامي، والوحدة الوطنية المتعددة الروافد، والملكية الدستورية، والاختيار الديمقراطي. وتشكل هذه الثوابت في مجموعها الهوية المغربية، التي هي بحاجة مستمرة للتوضيحها وتمريرها للأجيال المتعاقبة، والتذكير بها في كل نسخة جديدة من أي دستور

---

[14]- الفصل الخامس من دستور المملكة المغربية ليوليوز 2011

[15]- علي بنطالب،" المشهد اللغوي والثقافي بالمغرب... م. س.، ص.168.

[16]- فاطمة لمحرحر، (ماي 2021)، " ثقافة التسامح في المواثيق الدولية"، ... م. س.، ص.129.

جديد للبلاد، وتحصينها من أية مراجعة دستورية تهدد الوحدة والتنوع في وطننا([17]).

لقد وفرت الوثيقة الدستورية لسنة 2011 ما يكفي من المشروعية الدستورية والسياسية للمسألة الأمازيغية، ما يتجلى من خلال أن الشرعية الدولية لحقوق الإنسان مرجعية عليا للدستور، والتأكيد على سمو المواثيق الدولية والمعاهدات على التشريعات الوطنية إلى جانب الإقرار الصريح بالتعددية الثقافية واللغوية، وهذا التنصيص يكتسب أهمية قانونية وسياسية بما يوفره من حصانة دستورية للتعدد([18]):

1- تأسيس المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

2- إقرار حرف تيفيناغ

3- دمج الأمازيغية في الإعلام والتعليم

4- فتح شعب للأمازيغية في عدد من المؤسسات الجامعية ومسالك الاجازة المهنية والماستر

5- تدريس العبرية في كليات الآداب والعلوم الإنسانية

6- فتح مراكز للبحث في الثقافة الحسانية ودعمها

7- إدماج خريجي مسالك التكوين الخاصة بالأمازيغية في الوظيفة العمومية

8- الاهتمام بالثقافة والتاريخ الإفريقيين من خلال تأسيس معهد الدراسات الإفريقية،

علاوة على المكانة التي حظيت بها الثقافة الأمازيغية إلى جانب المكونات الأخرى، فقد حرص دستور 2011 كذلك التأكيد على أن الهوية الصحراوية، مكون من مكونات الهوية الثقافية المغربية، وضرورة النهوض بتعبيراتها اللغوية والثقافية.

وعلى غرار الحسانية فقد أطلق الملك محمد السادس نصره الله، مجموعة من المبادرات والتدابير من أجل الحفاظ على التراث والهوية اليهودية للمغرب، وفقا لما جاء في ديباجة الدستور التي تقر بدور اليهودية في تاريخ المملكة، وتؤكد أن المكون العبري جزء من روافد الهوية الوطنية، مستشهدا بالمبادرة الملكية لإعادة تأهيل المقابر والأحياء والمعابد اليهودية في المغرب، وكذا ترميم مجموع الآثار اليهودية المغربية، وافتتاح "بيت الذاكرة" وإصلاح المناهج التعليمية، لتشمل تدريس الثقافة، والتاريخ المغربي في بعده المتعلق بالطوائف المغربية اليهودية، التي شكلت مكونا مهما من مكونات المجتمع الشمال إفريقي وتاريخه العريق.

يشكل الاعتراف الدستوري بالهوية الثقافية، خطوة مهمة لترقية كل المكونات الثقافية، والانتقال بها إلى مجال التعايش، والتسامح، ونبذ العنف، والخلاف، للتأسيس لمجتمع يتميز بالتنوع والغنى وقبول الآخر.

---

[17]- فاطمة لمحرحر(ماي 2021)، " ثقافة التسامح في المواثيق الدولية" م. س.، صص.131-132.

[18]- إبراهيم بايزو(2016)،" الجمعيات الأمازيغية بين النضال الثقافي والتوظيف السياسي"، مجلة رهانات، ع.40، ص.19.

## 3-البعد التاريخي لقيم التعايش والتسامح في الخطب الملكية:

لقد انخرط سلاطين الدولة العلوية المغربية منذ قرون في الحفاظ على المكانة المتميزة للمغرب، وذلك بتنظيم العلاقات مع حضارات أخرى، على أساس التعايش والتسامح والاستفادة المتبادلة، التي جسدتها الحركة العلمية، ورحلاتها الدؤوبة بين المشرق والمغرب، وبين الشمال والجنوب، والسفارات المتبادلة بينه وبين البلدان الأخرى، أو للمشاركة في المحافل الدولية، والإسهام في صياغة القانون الدولي، والاعتراف باستقلال دول كبرى، في الوقت الذي كان فيه هذا الأمر غير مستساغ عند بلدان أخرى. وحفاظا على هذا الرقي الحضاري الذي بلغه المغرب، سار المغفور له السلطان سيدي محمد بن يوسف على النهج نفسه، منبها في خطاباته على الأخوة الإنسانية، حاثا على ضرورة التعايش بين الثقافات، دون تمييز ولا استعلاء. فعلى الرغم من قيود سلطات الحماية لم يدفعه ذلك إلى التخلي عن مبدأ الحوار والتسامح. وعندما تولى المغفور له الحسن الثاني مقاليد الحكم، رسخ هذه الخصوصية الحضارية، عبر براهين عملية وتاريخية وعلمية، فمن يتتبع خطبه وحواراته يجدها مليئة بالحجج الدامغة، والإثباتات القاطعة الدالة على أن لا خيار للأمم من غير انخراطها في حوار إنساني على أسس متينة. فالصدام لن ينفع بني الإنسان في شيء، وأن رابط الأخوة الآدمية أسمى من مصالح ونزوعات ضيقة. وهكذا تحصل لدى المغرب رصيد ثمين، ومكسب عظيم، يستطيع من خلاله القيام بمهام جليلة في إصلاح العلاقات بين الحضارات([19]).

انطلاقا من هذا الرصيد النفيس، وبناء على أوامر القرآن الكريم، بضرورة التعارف والتعايش والحوار بين بني الإنسان، صاغ جلالة الملك محمد السادس نصره الله بصفته أميرا للمؤمنين مشروعه الكبير في إقامة حوار بين الحضارات، على مرتكزات رئيسية منها:

"يشكل تاريخ المغرب أيضا في بعض مراحله لوحات رائعة لتدبير الاختلاف مع الآخر، على أساس المشترك القيمي بين الحضارات، والمتمثل في ترسيخ قيم التسامح والتعايش، ونبذ شرور العدوان والتظالم، وقد أسهم المغرب في التلاقح العلمي والحضاري بين الأمم، وذلك بتنوير أوروبا في مراحل متقدمة بنور العلم والأخلاق. فَعَبْر جهود علمائه وحكامه، انتشرت بعض العلوم والمعارف التي عليها بنيت الحضارة الإنسانية المعاصرة، لذلك كان المغفور له جلالة الملك الحسن الثاني، يؤكد دائما على دور المغرب في الوصل بين الحضارات، حيث قال رحمه الله :"لقد كُنتُ دائما أرى في بلدي صلة وصل بين الحضارات والثقافات، وخاصة بين الإسلام والغرب"([20]).

---

[19]- عبد الرزاق وورقية، " حوار الحضارات عند أمير المؤمنين صاحب الجلالة محمد السادس نصره الله: مرتكزات أساسية وجهود علمية"، مجلة دعوة الحق، العدد 393، السنة رجب 1430هـ/ الموافق ليوليوز 2009، ص.22.

[20]- الحسن الثاني، عبقرية الاعتدال، حوارات مع إيريك لوران، تقديم صاحب الجلالة الملك محمد السادس، الناشر

لقد استند أمير المؤمنين محمد السادس نصره الله في كثير من الأحيان على تاريخ المغرب وتقاليد ملوكه وذاكرته الفردية والجماعية في ترسيخ الحوار بين الحضارات، والثقافات المختلفة، حيث يؤكد ذلك قوله : "وإن التاريخ المعاصر ليُسجل باعتزاز أن والدي المُنعَّم جلالة الملك الحسن الثاني قدس الله روحه كان رائدا في انتهاج سبل الحوار، ثاقِب النظر في كل مواقفه، متشبثا بالقيم الروحية والإنسانية، وتحكيمها في كل النزاعات الدولية، جاعلا من الحوار والاعتدال والجنوح للسلم ومناصرة الحق، قوام مذهبه في الحكم، واضعا مكانته الروحية والزمنية كملك أمير المؤمنين، في سبيل ترسيخ ثقافة الوفاق، والتفاهم، والتعايش بين الأمم والشعوب، مما جعله رحمه الله مثالا يُحتذى به، ومرجعا في التقريب بين الأديان والحضارات والثقافات، وبذل المشورة، والرأي السديد، في كل المعضلات بما شهد به الجميع بمن فيهم الذين كانوا خصوما ثم أقروا بما كان لجلالته من بعد نظر وصواب وحكمة وريادة"([21]).

مجمل القول، إن تاريخ المغرب بمختلف محطاته أثبت بالأدلة والحجج انخراط الدساتير المغربية وعبر مراحل في الحفاظ على التنوع الثقافي واللغوي والتاريخي، واستثمره السلاطين بما يتناسب وكل مرحلة من مراحل تاريخ المغرب، والتي تم تتويجها بدستور يوليوز 2011 الذي يعتبر تأكيدا على تبؤ الثقافات المغربية المكانات التي تستحقها في أفق تنزيل مقتضياتها القانونية لتعم فائدتها مختلف مكونات الشعب المغربي.

## خاتمة:

لقد انخرطت التجربة الدستورية المغربية لسنة 2011 في إطار سياسي متميز، فبقدر تفاعلها مع الواقع المحيط، فإنها نهضت على مقاربة تنتصر لمبدأ الإصلاح في ظل الاستمرارية، حيث استجاب الدستور لانتظارات المغاربة في شموليته، لأنه تبنى نفس برنامجي مختلف عن ذلك الذي طبع أجيالا سابقة من الدساتير المغربية.

---

عثمان العمير، ص. 34. وعبد الرزاق وورقية،" حوار الحضارات عند أمير المؤمنين صاحب الجلالة محمد السادس نصره الله"، مجلة دعوة الحق، العدد 393، يوليوز 2009، ص.27.

[21]- الرسالة التي وجهها أمير المؤمنين إلى المشاركين في ملتقى حوار الأديان المنعقد ببروكسيل في موضوع "سلم الله في العالم" يوم الأربعاء 19 دجنبر 2001 م. وعبد الرزاق وورقية، م. س.، ص.27.

## البيبليوغرافيا:


- عبد الكريم غلاب، **التطور الدستوري والنيابي بالمغرب 1908-1988**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1988. - **دستور المملكة المغربية لسنة 2011، الديباجة.**

- علي بنطالب، " المشهد اللغوي والثقافي بالمغرب رصد تاريخي ومحاولات في التدبير"، **أعمال الأيام الوطنية الثالثة والعشرين، للجمعية المغربية للبحث التاريخي**، مطبعة رباط نت، طبعة 1439هـ/ 2018.

- فاطمة لمحرحر، " ثقافة التسامح في المواثيق الدولية"، **مجلة رواق**، العدد الثاني، ماي 2021.

- لطيفة الكندوز، **تدبير المغاربة للاختلاف: استلهام لأساليب التعايش وقبول الآخر، الجمعية المغربية للبحث التاريخي**، أعمال الأيام الوطنية الثالثة والعشرين، مطبعة رباط نت، طبعة 1439هـ/ 2018.

- **الفصل الخامس من دستور المملكة المغربية ليوليوز 2011**

- إبراهيم بايزو،" الجمعيات الأمازيغية بين النضال الثقافي والتوظيف السياسي"، **مجلة رهانات**، ع.40، السنة 2016.

- الحسن الثاني، **عبقرية الاعتدال، حوارات مع إيريك لوران**، تقديم صاحب الجلالة الملك مُحَمَّد السادس، الناشر عثمان العمير.

- عبد الرزاق وورقية،" حوار الحضارات عند أمير المؤمنين صاحب الجلالة مُحَمَّد السادس نصره الله"، **مجلة دعوة الحق**، العدد 393، يوليوز 2009.

- **الرسالة التي وجهها أمير المؤمنين إلى المشاركين في ملتقى حوار الأديان المنعقد ببروكسيل في موضوع "سلم الله في العالم" يوم الأربعاء 19 دجنبر 2001** م.

ينظر : - عبد الرزاق وورقية،" حوار الحضارات عند أمير المؤمنين صاحب الجلالة مُحَمَّد السادس نصره الله"، **مجلة دعوة الحق**، العدد 393، يوليوز 2009.